مضمار الحقائق وسر الخلائق

لصاحب حماة

محمّد بن تقي الدّين عمر بن شاهنشاه الأيّوبي

(٥٦٧ (؟) - ٦١٧ هـ)

تحقيق

الدكتور حسن حبشي

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

كلية الآداب - جامعة عين شمس



ملتزم الطبع والنشر

عالم الكتب

٣٨ شارع عبد الخالق ثروت

القاهرة ت : ٥١٤٠١

مضمار الحقائق وسر الخلائق

لصاحب حماة

محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي

(٥٦٧ (؟) - ٦١٧ هـ)

تحقيق

الدكتور حسن حبشي

ملتزم الطبع والنشر

عالم الكتب

٣٨ شارع عبد الخالق ثروت

القاهرة ت : ٥١٤٠١

المقدمة

مؤلف هذا الكتاب هو المنصور محمد صاحب حماة بن المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، نشأ فى بسطة من العيش وفى أسرة تركت طابعها قويا وعميقا فى تاريخ الاسلام والغرب فى العصر الوسيط ونعنى بها الأسرة الأيوبية ، فأبوه عمر بن أخى صلاح الدين وعمه الصلاح الذى حسبه أن يذكر اسمه لترتسم فى الذهن صورة أمة وموكب فتوحات ، وانتصار عقيدة ، وكتاب تاريخ فهو فى الطليعة من رجالات القرن السادس الهجرى باجماع ليس فيه من شاذ أو منكر ، وهو فى ذروة مجد ظهر فى ازالة دولة واقامة أخرى مستقلة وان كانت تابعة للخلافة العباسية ، وكانت للاسلام درعا وعلى أعدائه والطامعين فى أرضه حربا .

أما الأب فهو تقى الدين عمر بن أخى الصلاح ، وكانت له همة تسمو الى المعالى وتتطلع الى احتجان السلطة : تقديرا منه لنفسه — عن حق — وادراكا لقوته وعزيمته ، ويزكى هذه المطامع « اقدامه فى الحروب وتأييده فى الوقائع» (١) و «ليس فى عينه من أحد شىء» (٢) ، وكان صلاح الدين يدرك فيه هذا الطموح دون أن ينكره عليه أو يعاقبه من أجله ، اذ كان يرى فيه الرجل الذى يستطيع الاعتماد عليه فى أوقات تتطلب الرجال (٣) ذوى القدرة والكفاية ، وقد يكون بعض الشر أحيانا أهون من بعض ، ولقد رتبه الصلاح نائبا عنه فى الديار

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ١٢٨/٣ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٤٦ .

(٣) وبما كان أعظم ما يبين تقدير الصلاح للرجال أخذه حلبا من ابنه المظفر « وكان أحب أولاده الى قلبه ، لما خصه به من الشهامة والفطنة والتعقل وحسن السمت والشغف بالملك وكان أبر الناس بوالده » ، واعطاؤه اياها لاخيه العادل لمصلحة رآها ، انظر ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦٤ .

المصرية فى بعض غيباته عنهـا ، ذلك أنه فى رجب سـنة ٥٧٩ هـ برز السلطان لمحاصرة الكرك وبعث فى طلب أخيه الملك العـادل من مصر وحينئذ سير الملك المظفر تقى الدين اليها وسير معه القاضى الفاضل ، وفى هذه النوبة أعطاه السلطان الفيوم وأعمالها مع القايات وبوش (١) وكان اقطاعا عظيما (٢) ، وان أبقى معه فى الوقت ذاته حماة وجميع أعمالها ، ومع استجابة الملك العادل لأمر أخيه صلاح الدين الا أنه شق عليه ترك مصر « لأنه كان آنس بأحوالها من المظفر » ، فرضخ السلطان لمطلب العادل وكتب الى تقى الدين عمر يأمره بالقدوم الى الشامفغضب التقوى ولم يكتم عن الناس غضبه ، وأعلن عزمه على المسير الى برقة وديار المغرب ليلحق بفتاه شرف الدين قراقوش المظفرى التقوى (٣) ، غير أن الكثيرين ممن حوله لاموه على أن يقدم على هـذه الخطوة ونجحوا فى ثنيه عن مرماه (٤) ، وانصاع لنصحهم وخرج فلاقاه السلطان بمرج الصفر بعد اقامة طالت ثلاثة أعوام بمصر « وكان فرح الصلاح به شديدا » ووصـل مع قفل مصر الشتوى ومعه آل بيته غـير ابنه المنصور فقد تركه بها نائبا عنه ، على أن تقى الدين انصرف لتحقيق ما أراده السلطان فسار الى حارم « ليعلم العدو أن هذا الباب ليس بمهمل (٥) » .

ويبـدو لنا أن المظفر كان ينوى الاقامـة فى مصر ، ومن ثم نراه يشترى « منازل العز » التى كانت قد بنتها السيدة تغريد أم الخليفة العزيز بالله الفاطمى : نزار ، والتى كانت قد بذلت فيها كل ماصيرها من

---

(١) ابن شداد : النوادر ، ص ٦٣ ،المقريزى : السلوك ، ٨٢/١ .

(٢) راجع ص ٦ من هذه المقدمة ، وحاشية رقم ١ بها .

(٣) كان قراقوش هذا قد خرج الى تلكالبلاد غازيا وكتب الى مولاه تقى الدين عمر يقول له « ان البلاد سايبة » ، أنظر أبو شامة : الروضتين ٧٠/٢ ، وابن واصل : مفرج الكروب ١٨٠/٢ ؛ وقد وجدت دعوة المظفرصدى طيبا فى نفس التقى وعزم على الخروج وكتب الى السلطان يسأله « ألا يمنعه منسلوك مسلكها » وكان همه ان يؤسس لنفسه ملكا بها ، وقد وجد التأييد من العساكر المصرية « لبذله وشجاعته » وكان من رأىالسلطان « أن فتح المغرب مهم ، ولكن فتح بيت المقدسأهم ، والفائدة به أتم ، والمصلحة منه أخص وأعم » .

(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ١٢٩/٣ .

(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ،ص ٧٥ .

أحسن أماكن القاهرة بهجة لا سيما وهى مطلة على النيل من ناحية مصر القديمة ، وأصبحت هذه المنازل من بعدها مكانا لنزهة الخلفاء الفاطميين وكان الى جوارها حمام يعرف بحمام الذهب ؛ وقد أعجبت « منازل العز » هذه تقى الدين عمر ، ولم يخف ذلك على السلطان صلاح الدين فأسكنه اياها حين أزال الدولة الفاطمية وسكنها المظفر فترة من الزمن ثم ما لبث أن اشتراها لنفسه فى شعبان سنة ٥٦٦ هـ ؛ ويشير المقريزى(١) الى أنه حينما خرج من مصر الى الشام « وقف العز على فقهاء الشافعية ووقف عليها الحمام وما حولها ، وعمر الاصطبل فندقا عرف بفندق النخلة ، ووقفه عليها كما وقف عليها الروضة » .

ومما يدل على عناية السلطان بتقى الدين أنه جعله كفيل ولده الملك المظفر عثمان بوصية سلطانية ، وأمر بأن يستقر فى خبزه وما بيديه حتى بعد استرشاده ، وأخذ تقى الدين نفسه باصلاح الأمور فخرج فى سنة ٥٨١ هـ لكشف أحوال الاسكندرية (٢) ؛ وقد ختم المظفر حياته خير خاتمة فمات فى حومة الجهاد حيث كان قد توجه فى سنة ٥٨٧ هـ الى قلعة « منازكرد » ـــ وكانت لبكتمر صاحب خلاط ـــ وضايقها بعسكره ، ولكن الموت باغته يوم الجمعة ١٩ رمضان من السنة ذاتها ، فحمل الى حماة سرا ، حيث نقله ولده المنصور محمد صاحب كتاب « المضمار » (٣) .

على أن ابنه المنصور استولى على البلاد الجزرية بغير اذن السلطان وأرسل الى صلاح الدين يطلب تقريرها عليه ، الا أن الصلاح رأى فى هـــذه الخطوة من جانب المنصور استهانة بسلطانه وتحـــديا لمشيئته وخروجا عليه وهو ولى نعمته ونعمة أبيه ، واجبارا له على الرضوخ

---

(١) المقريزى : الخطط ، ١/٤٨٤ ، ٢/٣٦٤ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ١/٩٠ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣/١٢٩؛ وأبو الفداء : المختصر فى تاريخ البشر ٣/٨٠ ـ ٨١ ، وجاء فى النجوم الزاهرة ٦/١١ نقلا عن ابن شداد أنه لما جاء صلاح الدين ـ وهو بالرملة ـ كتاب بوفاة تقى الدين عمر قال وقد خنقته العبرة : مات تقى الدين ، اكتموا خبره مخافة العدو .

للأمر الواقع ، ومن ثم عهد الى ابنه الأفضل أن يزحف على الثائر الصغير ، وكتب الى أصحاب البلاد الشرقية (كالموصل وسنجار وديار بكر) يأمرهم بنجدة ولده فيما أنهضه من أجله ، فأوقع بيد المنصور الذى رآى السلامة فى اصلاح ذات البين بينه وبين عم أبيه ، فاستجاب له الملك العادل الذى توسط له لدى أخيه صلاح الدين وراح يفثىء غضبه عليه حتى قبل أن يبقيه على ما كان بيد تقى الدين فى بلاد الشام — وهى حماة والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم (١) — على أن تؤخذ منه البلاد الجزرية (٢) ؛ ولقد كانت اقامة المنصور بحماة حاملة اياه على بناء جسر بظاهرها خارج باب حمص (٣) .

وعلى الرغم من اشتراك صاحب « المضمار » فى أحداث هذه الفترة سياسيا الا أنه ليس بأيدينا ما يشير الى سنوات حياته الأولى ، ولقد سكتت المراجع كلها عن تحديد سنة مولده وان كان الأرجح أنه ولد عام ٥٦٧ هـ ، نستدل على هذا من عبارة وردت فى ترجمته الموجزة التى ذكرها المقريزى (٤) حيث قال انه مات فى ذى القعدة سنة ٦١٧ هـ « عن خمسين سنة » . على أن هذه المصادر كلها تجمع على شجاعته وحبه للعلماء (٥) ، حتى ليقال انه كان فى خدمته مائتا متعمم من النحاة والفقهاء ، وكان ولوعا بالأدب والشعر بل كان هو نفسه ينظمه ، ووضع فيه كتابا اسمه « طبقات الشعراء » ، كما اهتم بالتاريخ وتدوينه ، وترك لنا كتابا ضخما فيه وان ضاع معظمه هو « المضمار » ، الذى وصفه أبو شامة (٦) بأنه قد جمع فيه « جملة من التواريخ وأسماء من ورد عليه وأقام عنده » ، ونستبين ضخامة هذا السفر مما ذكره مترجموه

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ٣٧٩/٢، وأبو الفداء : شرحه ١٢٦/٣ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ١١٨/١١ .
(٣) ابو الفداء : المختصر ١٢٦/٣ .
(٤) المقريزى : السلوك ٢٠٥/١ .
(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٢٥٠/٦ .
(٦) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص١٢٤ .

عنه من أنه بلغ عشر مجلدات (١)، وان اكتفى ابن العماد الحنبلى بقوله انه يقع فى « عدة » مجلدات (٢).

ولقد كان المنصور محمد ممن يحبون الأدب وأسهموا فيه بقسط وافر كما أسهم فى الحروب بسيفه، وقد جمع حوله — أو اجتمع حوله — لفيف كبير من الشعراء والأدباء فأفسح لهم مجالسه ولم تصرفه أحداث العصر — وهى جسام — من أن يخلو الى نفسه فيقرض الشعر وينظر فى أشعار السابقين، ولقد وصلت الينا نسخة من مؤلف له عن الشعراء أملاه فى دار المزة من قلعة حماة فى مجالس آخرها سنة ٦٠٢ هـ أى قبل موته بخمس عشرة سنة، وتوجد من هذا الكتاب نسخة فى مكتبة ليدن بهولندة تحت رقم (٣)Or. 639، ويستدل من تصفح هذا المؤلف على أنه معجم للشعراء وفيه الكثيرون ممن طواهم النسيان لضياع آثارهم لولا ما ادخره « الطبقات » فى ثناياه.

أما كتابه فى التاريخ فهو « المضمار » الذى ينشر اليوم لأول مرة — أو تنشر ما وصل الينا منه وسلم من عاديات الزمن — ومن أقدم من أشار اليه حاجى خليفة صاحب كشف الظنون (٤)، فقد وصفه بالنفاسة ولكنه انفرد برأى لم يجاره فيه أحد ممن أشاروا الى المضمار أو ترجموا للمنصور اذ قال « توهم بعض المؤرخين فأسند تأليفه اليه، وانما صنفه رجل من علماء عصره كماهو المفهوم من المختصر، وصاحبه أعلم به »، على أن أبا شامة المقدسى المولود سنة ٥٩٩ هـ (أى قبل

---

(١) أبو شامة : شرحه، ص ١٢٤، وتابعه فى ذلك الزركلى : الاعلام ٢٠٤/٧.

(٢) انظر أبو الفداء : المختصر ١٢٥/٣، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ٧٧/٥ — ٧٨.

(٣) اسم هذا الكتاب بالكامل « أخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك » فى طبقات الشعراء المتقدمين من الجاهلية والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين وذكرمختصرمن أخبارهم ومختار أشعارهم ومن تلاهم من الشعراء الىهذا الزمان والأوان » وتوجد منه صورة على فيلم بمكتبة معهد المخطوطات العربية بالجامعةالعربية بالقاهرة أنظر فؤاد سيد : فهرس المخطوطات المصورة، التاريخ، ق ٢، ص ١٠ — ١١ رقم ٨٧٥.

(٤) حاجى خليفة : كشف الظنون ١٧١٢/٢.

ثمانية عشر عاما من موت المنصور بن المظفر) والمتوفى سنة ٦٦٥ هـ (أى بعد ثمانية وأربعين عاما من موت المؤلف) ينص صراحة على نسبة المضمار لمحمد بن تقى الدين عمـــر اذ يقول (١) « وصف كتابا سماه المضمار جمع فيه جملة من التواريخ وأسماء من ورد عيه وأقام عنده »، ثم جاء من بعده أبو الفداء فقال (٢) « صنف عدة مؤلفات مثل المضمار فى التاريخ » ، أما ابن العماد الحنبلى (٣) فقد أشار فى معجمه الشذرات الى عناية الملك المنصور بالنظر فى التاريخ والى أنه « جمع تاريخا على السنوات فى مجلدات » .

على أنه من الأمور التى تسترعى الانتباه أن المقريزى « المؤرخ » لم يشر قط الى مؤلف من مؤلفات المنصور محمد بن تقى الدين عمر ، واكتفى بقوله عنه « انه كان اماما مفتيا فى عدة علوم وله شعر جيد » ، وقد ترجم له فى سطرين ونصف شغل اسمه منها سطرا بأكمله ، وربما كان سر هذا الصمت عن كتب المنصور عند المقريزى أن أحداث هذا العصر السياسية وفتنه واضطراباته وحروبه كانت هى شاغل صاحب السلوك من حيث التدوين حتى لقد طغت على ما سواها ، وكان ذلك الصمت حظ وفيات هذه الحقبة عنده ، اذ أهمل ما لا يمت للحـــرب والسياسة بصلة ، ومع ذلك فقد تبين لنا أن المقريزى (المتوفى عام ٨٤٥هـ) قد استعمل كتاب المضمار وان لم يشر اليه وذلك فى معـــرض ذكره « الاقطاعات » حيث قال :

« كان اقطاع المظفر تقى الدين عمر البحيرة جميعها وهى بأربعمائة ألف دينار ، والفيوم بثلاث مائة ألف دينار ، وقاى ، وقايات وبوش وهى بسبعين ألف دينار ، ثم عوض عن بوش بسمنود والواحات وهى بستين ألف دينار ، وفوة والمزاحمتين وهى بأربعين ألف دينار ، وحوف رمسيس وهـــو بثلاثين ألف دينـــار » والمرتب « فى كل شـــهر على

---

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٢٤

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ١٢٥/٣ .

(٣) ابن العماد الحنبلى : الشذرات ٧٨/٥ .

الاسكندرية ألف وخمسمائة دينار » ويلاحظ أن هذه هي نفس عبارات المضمار (١) ، مما يدل على أن المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ قد نظر فى المضمار واقتبس منه ، وقد مات صاحبه عام ٦١٧ هـ ومع ذلك فانه لم يشر اليه بشيء .

ولقد سكت أبو المحاسن عن مؤلفات المنصور فترجم له باختصار وكان شأنه فى هذا شأن معاصره المقريزى .

أما ما ذهب اليه صاحب كشف الظنون من عدم نسبة « المضمار » للمنصور بن تقى الدين عمر فقول مردود وحجة تسقط بالبينة المستمدة من هذه النسخة ذاتها ، فأول ما نلاحظه أن المؤلف يشير الى المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بالنص على أبوته اياه ، فنراه يكثر فى ثنايا الكتاب من قوله « والدى الملك المظفر » والأمثلة على ذلك كثيرة .

ثم انه عظيم الحب لأبيه كبير التقدير له ، وهذه صفات نستشفها صراحة من أحداث هذا العصر ، أما تمجيده له فيتجلى فيما يذكره (٢) من أن صلاح الدين كان قد كاتب الصليبيين لهدم حصن بيت الأحزان فأبوا طمعا منهم فى أن يزيد القدر الذى بذله لهم من أجل هذا الهدم ، فأشار عليه بعض أصحابه فى اعطائهم ما يرضيهم من المال ، فقال : « ما أفعل شيئا ولا أبرم أمرا الا بمشاورة ابن أخى الملك المظفر عمر » وأنفذ اليه — وكان بحماة — للاستنارة به وأخذ رأيه ، فأشار تقى الدين عليه بالزحف عليهم وصرف المال الى الأجناد وترغيبهم فى الجهاد ، فلما وقف السلطان على رأيه « السديد » استصوبه وركب عليهم بعد أن سار اليهم المظفر بجماعته فوافاه على دمشق فى أول ربيع الآخر من السنة .

---

(١) انظر هذه الطبعة من المضمار ، ص١٥٤ س ١٨ حتى ص١٥٥ س ٢ وقارن أيضا السلوك ١/٨٠ — ٨١ بما جاء فى المضمار ، ص ١٥٠ — ١٥١ [illegible]

(٢) المضمار ، ص ٢٥ .

ثم انه يشير فى موضع آخر (١) الى أن السلطان — وقد سمع باضطراب الأمور فى الشام اثر وفاة الصالح — شرع فى التأهب والزحف على الشام ، ولم يجد من يعتمد عليه فى مساعدته فى تسكين الأمور بها سوى « والدى » تقى الدين عمر فكتب اليه « يأمره بالتأهب والنهوض بعسكره ويعرفه أنه سيدركه » ومعنى هذا أن مؤلف « المضمار » هو ابن تقى الدين عمر : الملك المنصور محمد .

واذا قيل ان الكتاب قد يكون من وضع ولد آخر للتقى غير المنصور محمد ، فالمعروف أنه كان للأب ثلاثة أولاد أحدهم المنصور محمد وثانيهم أحمد وثالثهم شاهنشاه .

أما المنصور فقد شارك فى أحداث هذا العصر حتى موته سنة ٦١٧ هـ .

وأما أحمد فقد استشهد « أول ما طر شاربه » فى كسرة الرملة فى جمادى الآخرة سنة ٥٧٣ هـ .

أما ابنه الثالث شاهنشاه فقد وقع فى هذه الكسرة فى يد الصليبيين ، ويصرح أبو شامة (٢) بذلك فيقول ان بعض الفرنج بدمشق خدعه وقال له : تجىء الى الملك (٣) وهو يعطيك الملك ، وزور كتابا فسكن الى صدقه .. « فلما تفرد به شد وثاقه وحمله الى الداوية ، وبقى فى الأسر أكثر من سبع سنين حتى فكه السلطان بمال كثير ... فغلظ قلب التقوى على ذلك الولد الذى جر هلاك أخيه » ، ويستفاد من هذا أن الابن الثالث كان فى أسر الصليبيين حين جرت معظم الأحداث التى تضمنها «المضمار» فى خلال هذه الأعوام . يضاف الى هذا ما استشعره التقى من غضب على ابنه شاهنشاه الذى أنكر الأبوة والقرابة طمعا فى الملك حين لوح له به الصليبيون ، فخان الأمانة ، والصالح الاسلامى ، على حين أن حب المنصور لأبيه وللاسلام لم يكن يعدله حب ، ثم انه كان مشاركا لأبيه طوال فترات أسر أخيه سعد الدين شاهنشاه ، ودون

---

(١) المضمار ، ص ٦٠ . (٢) الروضتين ، ٢/٧٠٠ .

(٣) يقصد بذلك رينودى شاتيون أمير الكرك المعروف فى المراجع العربية باسم ارناط .

أحـداث هذه السنوات فى صفحات المضـمار . وليس أدل على أن « المضمار » بصورته الحالية من انشاء الملك المنصور ما جاء فى بعض صفحاته (١) من أن مؤلفه كان نائب المظفر بمصر ، وذلك فى سـنة ٥٨٠ هـ ، فالثابت أن السنة كانت امتدادا لنيابة تقى الدين عمر عن عمه السلطان بمصر فاستدعاه السلطان « فخرج فى عسكر مصر » (٢) وحينذاك أناب ابنه الملك المنصور محمدا مكانه ، وعلى هذا الأساس فان ما جاء فى المضمار من قول صاحبه ، « أمر السلطان والدى الملك المظفر بالرجوع الى مصر بالعساكر المصرية وكنت يومئذ نائبه بمصر » دليل صريح على ان صاحب المضمار هو « محمد » وليس بأحد سواه .

يضاف الى هـذا أن صاحب المضمار يشـير الى انه بعد أن تم للمسلمين فتح « ميافارقين » أرسل صلاح الدين « الى والدى الملك المظفر وكان حينئذ صاحب مصر والمتولى على ممالكها يخبرنا بما قد من الله تعالى عليه (٣) » يطابق هذا ما أورده المقريزى (٤) من اشارته الى وجود المظفر تقى الدين عمر فى مصر فى هذه اللحظة بالذات وأنه « خرج لكشف أحوال الاسكندرية وشرع فى عمـل سور على مدينة مصر بالحجر ، فلم يبق فقير ولا ضعيف الا خط فيه ساحة من درب الصفا الى المشهد الحسينى » بل انه حين اسـتدعاه اليه بدمشق فى اوائل السنة التـالية أقره على ما بيده من البلاد الشـامية ، وأضاف اليه ميافارقين (٥) .

من كل هذا نستطيع أن نجزم بأن صاحب المضـمار هو ابن تقى الدين عمر وأنه كان نائبه بمصر ، وما من ولد للمظفر ولى النيابة عنه سوى ابنه المنصور محمد مما يؤيد نسبة الكتاب اليه .

* * *

(١) المضمار ، ص ٢٠٠ .
(٢) المقريزى : السلوك ، ٨٣/١ ، س ٧ ، ٨ ، ١١ .
(٣) المضمار ، ص ٢٢٢ ، س ١٣ ــ ١٥ .
(٤) المقريزى : السلوك ، ٩٠/١ .
(٥) المقريزى : السلوك ٩٢/١ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ١٠٣/٦ .

أما كتاب « المضمار » أو ما وصل الينا منه فلا توجد منه سوى نسخة واحدة معروفة حتى الآن بالمكتبة الأحمدية بتونس رقم ٤٩٣٨ ، وهى تقع فى مائة ورقة ، ومسطرته ١٧ سطرا ، وقد كتب بخط نسخ قديم ، ويظهر أن الناسخ لم يكن على دراية تامة بالأحداث والوقائع وأسماء الأشخاص والمدن فرسمها بصورة — رغم حسن الخط — توقع القارئ فى حيرة بالغة ، ويتجلى هذا فى أسماء مدن المغرب لا سيما ما يتعلق بحملة قراقوش المظفرى التقوى على بلاد المغرب ، وقد حاولنا جهدنا التعرف على هذه الأماكن فى مظانها الأولى حسب رسمها الوارد فى نسخة المضمار التونسية فوفقنا الى بعض وأعجزنا الوصول الى رسم صحيح للبعض الآخر رغم عرضها على كثير من أصدقائنا فى هذه البلاد الشقيقة ، ولعل ثم من يستطيع الادلاء بالرسم الصحيح لبعض ما غم علينا .

* * *

والمضمار — كما يستفاد ممن أشاروا اليه من المؤرخين — يقع فى عدة مجلدات أوصلها بعضهم الى عشرة ، ولكن ما بين أيدينا لا يشمل الا سنوات قليلة (ما بين ٥٧٥ ، ٥٨٢ هـ) (١) ، ويستدل من أولى صفحاته التى وصلت الينا على أن هناك أقساما سابقة له قد ضاعت أو دشتت . على أن صفحة الغلاف منه قد كتبت بخط مغربى وما فيها من بيانات تضل القارئ ، فقد ورد فيها أن ما بين دفتى هذه المخطوطة هو « تاريخ البدرى » ولا نعرف من هو « البدرى » أو البديرى المقصود بهذه الاشارة ، ولا جدال فى أن هذه الصفحة الخارجية قد أقحمت على المضمار اقحاما فهل كانت اشارة الى كتاب للشيخ أحمد البديرى الحلاق الدمشقى (٢) ؟

(١) راجع الفهرس التفصيلى فى آخر الكتاب .

(٢) نعنى بذلك كتاب حوادث دمشق اليومية للشيخ احمد بديرى الحلاق الشامى من أهل القرن الثانى عشر الهجرى وقد نشر مخطوطته وحققتها الدكتور احمد عزت عبد الكريم وصدرت سنة ١٩٥٩ فى مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

على أن كل ما ضمته المخطوطة بشكلها الحاضر ينفى أن تكون
به ، لا للفارق الزمنى بين أحداثها فحسب وبين الوقت الذى عاش فيه
البديرى ، ولكن لأن أسلوب المضمار يرقى الى الأسلوب الأدبى الذى
يدل على أن واضعه كان ممن يتقنون الكتابة بالفصحى ، على حين أن
صاحب حوادث دمشق اليومية فى جمعه لمادته « كتبها بأسلوبه الذى
تشيع فيه العامية » (١) ، يضاف الى هذا ما جاء فى مستهل المضمار
صراحة من أن هذا القسم هو ختام « المضمار » (٢) .

ثم ان النسخة التونسية هذه لم تصل الينا كاملة حيث وقفت عند
أحداث مستهل ٥٨٢ هـ ، وكان ضياع الباقى منها مانعا ايانا عن معرفة
السنة التى انتهى فيها المؤلف .

* * *

لكن متى كتبت هذه النسخة من المضمار ؟

ليس فى صفحاته التى بين أيدينا ما يشير الى تاريخ كتابة المنصور
للمضمار ، غير أنه وردت بعض عبارات نستطيع على هديها أن نرجح
أن ما وصل الينا قد كتب — أو كتب معظمه — بعد سنة ٥٨٩ ، ومن
هذه المعالم التى نسترشد بها فى الوصول الى تأييد هذا الرأى ترحم
المؤلف على والده اذ يقول فى شأن وقعة مرج عيون « ذكر سبب غيبة
والدى الملك المظفر سقى الله عهوده الرضوان » (٣) ، وهذا الدعاء
لأبيه يدل على أن هذه الصفحات كتبت بعد وفاة تقى الدين عمر فى
العاشر من رمضان سنة ٥٨٩ هـ ، وهو تاريخ يجمع عليه كل من كتب
عنه ولا اختلاف بينهم فيه وان اختلفوا فى مكان دفنه (٤) حين باغته
الموت وهو فى محاربة صاحب خلاط .

---

(١) راجع ص ١٧ من مقدمة الاستاذ الدكتور احمد عزت عبدالكريم لكتاب البديرى حوادث دمشق اليومية .

(٢) المضمار ص ٤

(٣) المضمار ، ص ١٨ .

(٤) مفرج الكروب ٢/٣٧٦ .

وتراه فى موضع آخر (١) يستمطر شآبيب الرحمة على والده حين علم بوفاة الملك الصالح فيقول :

« كتب الى والدى الملك رضــوان الله عليه كتابا وكنا حينئــذ بحماة » ، فهذه العبارة صريحة فى أنه يدون الخبر بعد وفاة المظفر أبى سعيد ، ومثل هذا النص أيضا يطالعنا فى كلامه عما أعطــاه السلطان لتقى الدين من اقطاعات بمصر حين استنابه عليها والتقليد الذى بعث به اليه فيقول « ذكر ولاية والدى الملك المظفر رضوان الله عليه مصر وأعمالها » (٢) .

ثم يقول أيضا فى نفس الموضــع « والدى المظفر رحمه الله » ؛ واستنزال الرحمة عليه دليل جازم على وفاته مما ينسحب بعدئذ على القول بأنه كتب هذه الأحداث بعد وفاته .

* * *

أما أسلوب الكتابة عند صاحب المضمار فيدل على أن صــاحبه أوتى حظا من العربية ، وأنه كان شــديد الاهتمام بعبــارته وحسن صياغتها ، فهو مشرق الديباجة واضح العبارة غير ذات عوج ، وليس من شك فى أن تذوقه الأدب والشعر قد انعكسا فى كتابته ، وليس أدل على اهتمامه بهذه الناحية من استشهاده فى كثير من المواضيع بقصائد ذات صلة بالأحداث ، على حين أهملها غيره من المؤرخين الذين عرضوا لها فى تدوينهم تاريخ هذه الحقبة ؛ وهو لا ينكر أنه قد يورد القصيدة بتمامها « لاستحسانها » كمــا قال فى تقديمــه لقصيدة (٣) سبط ابن التعاويذى فى تهنئة الناصر لدين الله حين ولى الخلافة وهى قصــيدة تقع فى ٥٢ بيتــا ، وأخرى فى مدح صــلاح الدين اقتبس منها ســتة

---

(١) المضمار ، ص ٦٠
(٢) المضمار ، ص ١٥٤
(٣) المضمار ، ص ٦ .

وأربعين بيتـــا (١) ويظهر تذوقه الأدب والشـــعر فى حكمـــه على ابن التعاويذى هذا حين يصفه بأنه « من أفاضـــل الشعراء المقدمين » (٢) كما يورد أبياتا لابن الساعاتى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ فى مدح الصلاح (٣) وهو حين يستحسن قصيدة يوردها بأكملها أو يورد جلها كما فعـــل فى قصيدة المهذب ابن أسعد الموصلى (٤) فى مدح السلطان ، ومع أن ما أورده منها هو أربعة وسبعون بيتا الا أن ثلثها الأول تقريبا (٢٤ بيتا) تصلح مستهلا لأى قصيدة تجرى على النهج القديم فى الشعر العربى حيث لا نستطيع أن نسترشد بها وحدها عن الغرض الذى قيلت به أو شخصية الموصوف ، وينصب هذا القول أيضا على قصـــيدة لنفس الشاعر (٥) سار فيها على النهج ذاته فى مدح صلاح الدين ، ومثل هـــــذا أيضا نراه فى ايراده قصـــيدة ثالثة طـويلة لسبط بن التعاويذى (٦) يهنىء فيها الناصر لدين الله بختان ولديه أبى نصر وأبى جعفر ، ورابعة لنفس الشاعر أوردها بتمامها (فى ٨٣ بيتا) ، على حين اكتفى أبو المحاسن (٧) منها بستة عشر بيتا حين نقل عن ابن خلكان هذه القصيدة التى جاء فى مطلعها :

حتام أرضى فى هواك وتغضب وإلى متى تجنى على وتعتب

ويبرر صـــاحب النجوم منهجه فى ايراده الشـــعر مختصرا بأنه « اضراب منه لطوله » ، غير أن الواقع هو اختلاف فى نشـــأة كل من ابن تغرى بردى والملك المنصور مما كان له أثره فى تذوق كل منهمـــا الشعر واصطناعه وسيلة لخدمة التاريخ ؛ فأبو المحاسن نشأ فى جو تسوده العجمة ، ولم يكن ذا حظ كبير فى فنون الأدب ، على حين أن صاحب المضمار كان له من بيئته وثقافته ما يحبب اليه الشعر والأدب

(١) المضمار ، ص ٢٠ — ٢٤ .
(٢) المضمار ، ص ٦ س ٨ — ٩ .
(٣) المضمار ، ص ٣٠ — ٣١
(٤) انظر المضمار ، ص ٤٤ .
(٥) انظر المضمار ، ص ٩٧ — ١٠٢ .
(٦) المضمار ، ص ٧٦ ، ٧٩ .
(٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٦/ ٥٧ .

يجد فيهما متعة روحية انعكست كما رأينا فى تأليفه كتابا عن « طبقات الشعراء » ، وفى ايراده القصائد كاملة فى كثير من الأحيان ، ثم ان أباه تقى الدين ذاته كان شاعرا « وكان له ديوان شعر » [١] .

ولقد عرف الملك المنصور محمد بحبه للشعر والشعراء ، وليس من شك فى أنه كان يهز عطفه المديح ان صيغ فى أسلوب مشرق الديباجة ، حلو الرنين ، وكان يطرب له طربا تجلى فى ايراده قصيدة مدحه بها أحد الشعراء جاء فيها مسترفدا اياه :

قسما برقة خده المتورد ورشاقة فى قده المتأود
انى لأهواه ولست بحائل عن حبه أن صد أو لم يصدد

ثم يقول الشاعر فى مدحه :

واذا خشيت من الزمان سجية تردى فلا تعلق بغير محمد
العادل الملك الهمام الناصر الند ب الكمى الباذل المتودد
يا أوحد الدنيا أتيتك قاصدا مستعديا من جور دهر أنكد
فخطبت من جدوى يديك مآثرا وأمنت من صرف الزمان الأنكد

ولقد أجدت علينا نزعة صاحب المضمار الأدبية هذه فى ايراده نصوصا وكتبا وعهودا تعتبر بحق مصدرا أساسيا فى ترجمة كثير من الأحداث فى هذه الفترة ، والكثير منها غير موجود لدينا الآن ، ومن ثم فان بعضها يظهر لأول مرة فى هذا الكتاب ويلقى ضياء على جوانب حركات صلاح الدين ازاء الخلافة أولا ثم ازاء أهل بيته ثانيا ، ويكفى أن نقارن بين ما تضمنه « المضمار » من هذه النصوص وبين ما ورد فى الموضوع فى كتب ذلك العصر كالفتح القسى والروضتين والنوادر وابن الأثير لنرى رجحان كفة المضمار فى امداد الباحث بأصول جديدة. [٢]

* * *

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ٦/١١٤ .

(٢) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ٦/١١٤ حيث أورد له البيتين التاليين :

يا ناظريه ترفقا ما فى الورى لكما مبارز
هبكم حجبتم أن أراه فهل لقلب الهب حاجز ؟

ومما يلاحظ الى جانب هذا فى المضمار استعمال صاحبه لضمير المتكلم فى أكثر من موضع ، فهناك الى جانب اشاراته الى « والدى » راه يشير الى اشتراكه فى بعض الغزوات التى وقعت فى هذه الحقبة ، ومن هذا مشاركته الصريحة مع صلاح الدين حين هم بقصد الاستيلاء على الموصل سنة ٥٧٨ هـ بعد غزوة طبرية وبيسان ، ومهد لذلك بزحفه على حلب « وجهاد من بها لما بلغه عن المواصلة أنهم قد كاتبوا الفرنج وأنفذوا اليهم الرسل وبذلوا لهم الأموال » ، فيقول المؤلف « توجهنا بعد ذلك الى بعلبك وخيمنا بمرج عدوسة أيام ورحلنا الى حمص على طريق الزراعة ، فنزلنا بها ورحلنا منها فنزلنا بحمص على العاصى » ، ويفصل هذه الأمور أكثر من غيره ، على حين يجمل ابن واصـــل (١) هذه الرحلة ولا يصف خط السير الذى اتبعه السلطان ، ويهملها تماما أبو المحــاسن فى نجومه (٢) ، على حين أن المقريزى (٣) اكتفى بقوله « خرج السلطان من دمشق يريد حلب ثم رحل الى الفرات ورحل الى الرها فتسلمها وسار عنها الى حران فرتبها ، وانفصل عنها الى الرقة فملكها وما حولها ، ونازل نصيبين حتى ملكها وقلعتها » ، على حين أن هذه الأحداث تستغرق فى المضمار (٤) قدرا كبيرا ويشرح ما أجمله المقريزى ويوضح ما أوجزه ابن شداد (٥) .

واستعماله ضمير المتكلم واضح فى بياناته عن وصولهم ــ فى ركب السلطان ــ الى حران ويفسر علة اقدام المواصلة على مهاجمته لما رأوه « من انفراده عن أصحابه بحران وتفرقهم عنه فى البلاد » ، ثم يشرح ما جرى فى أعقاب هذا من أمور وأحداث تضيف جديدا الى تحركات صلاح الدين ، غير أنه مما يؤسف له أن بعض الصفحات ضاعت عند ذكر مسير السلطان الى آمد والنزل عليها (٦) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ١١٧/٢ ــ ١٢٠ .
(٢) النجوم الزاهرة ٩١/٦ ــ ٩٢ .
(٣) المقريزى : السلوك ٧٨/١ .
(٤) المضمار ، ص ١٠٢ ــ ١٠٦ .
(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥٦ ــ ٥٧ .
(٦) انظر المضمار ، ص ١١٥ وحاشية رقم ١ .

ويمكن أن يقال ان اشتراكه مع عم أبيه فى القتال يمدنا بمعلومات جديدة (١) ، ولعل من أوضح الصور التى تجعل للمضمار موضعا فى الصدارة بين المصادر التى تؤرخ لهذه الفترة النص الجديد الذى انفرد به المضمار فى ما ذكره من كتاب الصلاح الى تقى الدين عمر (٢) وهو فى مصر « يحثه على انفاذ العساكر المصرية للجهاد » ، ولقد ساعد المؤلف على ذلك مساهمته الفعلية فى هذه الأحداث ، وهو صريح فى الاشارة الى وجوده فى معسكر الصلاح عند « كوك سو » (٣) حيث ورد عليهم الخبر بموت سيف الدين غازى صاحب الموصل وقيام أخيه عز الدين مكانه ، وهو يكمل الصورة القلمية التى جاء بها ابن الاثير فى ذكره وفاة غازى وما جرى فى أعقابها (٤) .

* * *

على الرغم من أن ما وصل الينا من المضمار لا يعدو أن يكون سنوات قصارا تمثل فترة من عهد صلاح الدين ، الا أن مطالعته توضح لنا بجلاء انه كان لصاحبه منهج رسمه فى الكتابة والتأليف التاريخى ، واذا كان قد أم سمت غالبية المؤرخين من جعل الكتاب على نظام الحوليات الا أنه كان له نهج لم يحد عنه ، اذ قسمه الى ثلاثة أقسام ، خص القسم الأول بدار الخلافة فى بغداد ، والثانى منها بصلاح الدين متناولا فى ذلك فتوحاته ومتجدداته وأعماله بمصر والشام ، أما القسم الثالث فجديد كل الجدة ونعنى به عنايته التامة بذكر حملة قراقوش التقوى على بلاد المغرب .

* * *

أما الخلافة العباسية فكان لها تقدير عظيم فى نفسه رغم ما كانت

---

(١) انظر على سبيل المثال ص ١٥١ فى شأن رحيل السلطان من حلب .
(٢) المضمار ، ص ١٦٣ — ١٦٤ .
(٣) المضمار ، ص ٤٣ .
(٤) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٨١ .

تمر به من تدهور تمثل فى أكثر من موضع فى كتابته ، وهذه الخلفية التاريخية فى الاهتمام « بالحضرة الامامية » على حد تعبيره عنها تظهر جلية فى محاولته ذكر كل كبيرة وصغيرة عنها وقد تدفعه هذه الخلفية الى تدوين أمور تحمل الدلائل على أنه كان لابد لهذا التكوين السياسى من السقوط العاجل ، فهو يبرز فى صورة ضخمة ولكنها جوفاء ، وفى هيكل مارد ولكن ساقيه لا تستطيعان حمله لما استشرى بالخلافة من فساد تمثل فى انصراف الرأس الكبير ونعنى به الخلافة — الى أمور كان أولى برجال العصر — وفى مقدمتهم الصلاح أن يعملوا على ازالته حفاظ للدين والمصلحة السياسية العامة لهذه الرقعة من الشرق الأدنى ، والأمثلة المستمدة من « المضمار » كثيرة كمصرع ظهير الدين ابن العطار (١) واهتمام الخليفة بأن يخرج أرباب الدولة والأمراء خيامهم الى حيث يقدمون فروض الولاء له ، واهتمامه بالنزهة فى دجلة (٢) وانصراف القوم ببغداد لنقل رفات المستضىء بأمر الله الى التربة الجديدة (٣) ، ونقض السفينة الزبزب .

ففى الوقت الذى كان فيه الصليبيون يثبون على بلاد الاسلام ، وفى الوقت الذى كان فيه السلطان صلاح الدين يقضى معظم أيامه فى مهاد غير وثير وفى ميدان القتال كان كل ما يشغل الخليفة العباسى أن لا تكون الزبزب « بدجلة » ازاء التاج الشريف لترقب من يموت يحمل بها ، لأنه كلما رآها « تكدرت عليه الحياة » (٤) مما يدل على تفاهة فى التفكير كانت لابد من أن تؤدى الى انهيار الخلافة ، وليس من شك فى أن صلاح الدين كان يدرك هذا الجانب الضعيف فى الخلافة ويستهين بها فيما بينه وبين نفسه ، لكنه كان سياسيا داهية أراد استغلالها واتخاذها مخلب قط فى تحقيق ما هدف اليه من انزالها الضربة بصاحب الموصل « بأن يلزم حده ولا يتجاوز حقه ، حتى يطيع ويعود

---

(١) المضمار ، ص ١١ — ١٢ .
(٢) المضمار ، ص ٣٩ — ٤١ .
(٣) المضمار ، ص ٥٧ — ٥٨ .
(٤) المضمار ، ص ٩ ـ ٥٠ .

للصواب ، والا فما قصدنا الا أن تقاتله » (١) وان الخلافة لا تنظر في اصطناعها رجالاتها في بغداد وقتذاك الا بقدر ما يبذلون من ارضاء نزوات صاحبها ونساء القصر ، كما حدث في الخلع على مجاهد الدين خالص الخادم من انعام عليه لخدمته لأمير المؤمنين في زمن امارته وكان قد رباه ، كما أن بحر درة أمير المؤمنين تحبه وتحترمه وتشتهى أن تراه بهذه الحال لسابق خدمته لها (٢) ، بل ان هذا الانعام ليصل للشخص لجماله ، « وكان الخليفة لا يصبر عنه ساعة واحدة » (٣) وانه ليقطع أحدهم — وهو طغرل الخاص — البصرة ويجعل في خدمته خمسمائة مملوك لا لشيء الا لأنه كان يمضى الى الأمراء في السر ويستحلفهم للخليفة وقد ألبس جماعة منهم ثياب النساء « وأدخلهم اليه قبل ولايته وهو أمير » .

وعلى الجانب الآخر من هذه الصورة القاتمة التى يصورها صاحب المضمار — عن قصد أو غير قصد — للخليفة العباسى كانت هناك الصورة الثانية المشرقة عن صلاح الدين وجهاده وهى تشغل جزءا طيبا من الكتاب .

أما القسم الثالث من المضمار فكان في الواقع تأريخا دقيقا يكاد يكون يوميا لحملة قراقوش المظفرى على بلاد المغرب وقد اتخذ المؤلف لها عنوانا في ختام كل سنة هو « ذكر وقعة قراقوش المظفرى في هذه السنة » .

* * *

ولقد رجعنا الى مصادر ذلك العصر وما بعده في تحقيق ما ورد في المضمار ، ومن الله التوفيق .

الدقى السبت ٥ أكتوبر ١٩٦٨

حسن حبشى

(١) المضمار ، ص ٦٥ .
(٣) المضمار ، ص ٨٥ .
(٢) المضمار ، ص ٧٩ — ٨٠ .

ورقة ٨٧ ب — ٨٨ ا من مخطوطة المضمار
الأصلية التونسية

(انظر ص ٢٠٠ ، س ٩ — ص ٢٠٣ ، س ٣)
من هذه الطبعة

الصفحة الاولى من مخطوطة مضمار الحقائق نسخة الأحمدية بتونس
راجع ص ١٢ من مقدمة المحقق لهذه الطبعة

هذا ما جاء فى صفحة غلاف المخطوطة بالمكتبة الأحمدية بتونس رقم ٤٩٣٨ ، انظر المقدمة ص ٩ .

١٥ قيمته خمسة عشر ريالا

الحمد لله ، أشهد مولانا الملك المالك المطاع ، الآتى من أصناف البر بما فوق الاطلاع ، البدر المنير ، والكهف الشهير ، المعتمد على الملك اللطيف الخبير سيدنا المصراص (؟) باسباى صاحب قريتى تونس (؟) ، الواضع طابعه بعد ، ألهمه الله رشده ، ومنحه الكرامة عنده ، أنه حبس هذا الجزء من تاريخ البدرى (؟) على من له أهلية الانتفاع به لينتفع به ولو استنساخا ، تعميما لحصول النفع ، وتوسعة لدائرته ، شارطا ــ أيده الله ــ عدم اخراجه من الجامع الأعظم ــ الذى هو مقر خزائن كتبه الموقوفة ــ الا لأمين بقدر الضرورة فى مدة انتفاعه به فقط ، وأقصى المدة سنة لا يزاد عليها بوجه ، موصى المنتفع به داخل الجامع وخارجه بغاية حفظه مدة انتفاعه ، والله تقع منه بالمرصاد (؟) ، لا تخفاه خافية حبسا مؤبدا لا يغير عن ذلك أبدا ، وشهد على اشهاده ــ وهو على أكمل حال ــ المشهدين فى أواخر ٢٣ رمضان عام ستة وخمسين ومائتين وألف .

فعل سيدنا نصره الله الاكمال والاشهار عليه بواسطة طابعه المرقوم الذى ... وخ (ستم) بخير .



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

سنة خمس وسبعين وخمسمائة

فيها غلت الأسعار جداً بالعراق واشتد المحْل وكثر الجدب ، وكانت الغلات كثيرة والحبوب موجودة غير أن الناس رفعوا أيديهم عن البيع ، وسبب ذلك أن ظهير[1] الدين أبا بكر [منصور] بن العطار — صاحبَ المخزن — كان قد تحكم فى دولة الخليفة تحكما زائداً ، واستولى على جميع المعاملات الواسطية وضمّن[2] البلاد سائرها ، ومنع البيع من خزائن الغلات والحبوب ، فاشتدت بغضته فى قلوب الناس وخاصة أرباب دولة الخليفة ، وكانوا يقولون : « سبب غلوّ الأسعار منّعُه لبيع الغلات » .

وفيها كثر الوباء حتى مات من الخلق مالا يحصى كثرة .

---

(١) هو ظهير الدين أبو بكر بن منصور بن نصر بن الحسين المعروف بابن العطار المتوفى بالعقوبة فى هذه السنة (٥٧٥هـ) من قبل الخليفة الناصر لدين الله ، وقد أشار ابن كثير فى البداية والنهاية ٣٠٥/١٢ الى أن مصرعه أدى الى تمكن الأمر للخليفة وعظم هيبته فى البلاد ، وذكر ما يشتم منه قبح سيرته ، على حين أثنى عليه من هو أقدم منه واقرب الى عصره ونعنى بذلك ابن الاثير فى الكامل ١٨٧/١١ ، ثم قفاه فى ذلك ابن الوردى فى تتمة المختصر ٩٠/٢ . ويعلل ابن الوردى ما أصاب ابن العطار من نكبة بحسد الناس له لما بلغه من المكانة ، ومن ثم استشهد بالبيتين التاليين :

اذا نلت العلا راع الرعايا
فان القوم أعداء المعالى

يرون على الفتى ذنبا عظيما
وان امتنوه فى نفس ومال

(٢) ضمن هنا بمعنى احتكر .

وفيها بسطت يد الشريف يمين الدين الهاشمى مشرف الديوان العزيز فى الدولة ، ووقعت المشاحنة بينه وبين ظهير الدين بن العطار .

وفيها مرض المستضىء[1] بأمر الله واشتد به المرض وكثرت الأراجيف بموته ولم يتحقق الناس ذلك ، وكانت الأسواق تغلق فى أكثر الأوقات لايجسر أحد أن يبيع ويشترى ، فكانت وفاته أول ليلة من ذى القعدة من السنة ، وكانت خلافته تسع سنين وستة أشهر وأحداً وعشرين يوماً .

أولاده : أبو العباس أحمد الناصر لدين الله ، وأبو منصور .

وزيره : رئيس[2] الرؤساء .

* * *

(١٢) خلافة الناصر لدين الله

أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وذكر مختصر من إيالته ومحاسن سيرته وذكر ماتجدّد فى أيامه للبيت الأيوبى من الفتوحات والغزوات وغير ذلك والشام ومصر واليمن ، ذكرتُه مفصلا ، أختم به كتابى هذا الموسوم بكتاب « المضمار » وبالله المستعان وهو حسبى ونعم الوكيل .

هو أبو العباس أحمد الناصر[3] لدين الله أمير المؤمنين — ثبّت الله

---

(١) هو الذى عادت الخطبة باسمه فى الديار المصرية والشامية والثغور ، على أن الوارد فى أبى المحاسن : النجوم الزاهرة ٨٥/٦ أنه مات فى ثالث ذى القعدة ، أما ابن كثير فيشير فى البداية والنهاية ٣٠٤/١٢ الى أن وفاته كانت فى سلخ شوال ، وذكر ابن الوردى تتمة المختصر ٨٩/٢ أنها كانت ثانى ذى القعدة، واكتفى ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ٢٥١/٤ بقوله « ذى القعدة » فقط .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر المتوفى سنة ٥٧٣ هـ .

(٣) كانت وفاته فى رمضان ٦٢٣ هـ .

دعوته — بن الإمام أبي محمد الحسن المستضيء بأمر الله ، بن الإمام أبي المظفر يوسف المستنجد بالله ، بن الإمام أبي عبد الله محمد المقتفي لأمر الله ، بن الإمام أبي العبّاس أحمد المستظهر بالله ، بن الإمام أبي القاسم عبد الله المقتدي بالله ، بن محمد ذخيرة الدين — وليس بإمام — بن الإمام أبي جعفر عبد الله القائم ، بن الإمام أبي العباس أحمد القادر بالله ، بن الإمام جعفر المقتدر ، ابن الإمام أبي العباس المعتضد ، بن محمد الموفق — وليس بإمام ، بن الإمام أبي الفضل جعفر المتوكل ، بن الإمام أبي أسحق محمد المعتصم ، بن هارون الرشيد ، بن محمد المهدى ، بن أبي جعفر المنصور ، بن محمد ، بن على ، بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، بويع له يوم الأحد مستهل ذى القعدة من السنة المذكورة صبيحة اليوم المذكور ، وتولى عقد البيعة ذو الرياستين مجد الدين أبو الفضل [هبة الله بن على بن هبة الله] بن الصاحب أستاذ(١) الدار وظهير الدين أبو بكر منصور بن العطار صاحب المخزن ، وحضر فى البيعة العلية (٢ ب) ضياء الدين الشهرزورى(٢)، أتفق ذلك أوان وصوله برسالة الملك الناصر صلاح الدين ، وخُطب(٣) له بمدينة السلام ببغداد ، ونثرت الدنانير على المنابر بجوامعها ، وسُيِّرت الكتب مع الرسل إلى البلاد الإسلامية ، فأرسل صدر(٤) الدين عبد الرحيم بن اسمعيل [ابن اسمعيل

---

(١) كانت توليته الاستادرية للمستضيء بالله سنة ٥٧١ هـ ووفاته عام ٥٨٣ ، راجع ابن الاثير الكامل ١١/١٧٧ ، ٢٣٠ ، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٦/٧٦ .

(٢) هو أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله ، وكان صلاح الدين الايوبى قد رتبه لرسالة بينه وبين الخليفة لقربه من قلب الخليفة ، وقد مات سنة ٥٩٩ هـ ، انظر ذيل الروضتين ص ٣٥ — ٣٦ ، أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ٦/١٨٣ .

(٣) يعنى للخليفة الجديد .

(٤) كان هو الذى تولى تدبير أمر طغرل شاه بن ارسلان شاه ، وتسميه المراجع العربية أحياناً بصاحب بلاد الجبل والرى أصفهان وأذربيجان ، راجع النجوم الزاهرة ٦/١٠٠ .

ابن أبي سعد [شيخ الشيوخ [النيسابورى] إلى أتابك بهلوان [محمد [ابن أيلدكز[1] بهمذان ، فبثّ الدعوة الهادية فى تلك البلاد من أصفهان وجميع بلاد خراسان وأذربيجان ، وسُيّرت رسُل الخلافة أيضاً إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فأقام الدعوة الهادية الإمامية فى جميع البلاد والثغور والشام والديار المصرية ، وحضر شعراء الديوان العزيز على جارى العادة لتهنئة مولانا الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين عند جلوسه فى الخلافة فى ذى القعدة ، فأنشد كل منهم كلمته ، فمن ذلك الأجل أمين الدولة محمد بن عبد الله سبط[2] التعاويذى ، وكان من أفاضل الشعراء المقدّمين ، ذكرتها بتمامها لاستحسانها وهى :

طاف يسعى بهـــا علىَ الجُلاّس
كقضيب الأراكة الميّـــاسِ
بدْرُ تم غازلت من لحظه لِـ
ـلة نادَمتهُ غَـــزالَ الكِناسِ
ذلّلته لى المــــدام فأمسى
لينّ العطف بعد طـــول شماسِ
بات يجلو علىّ روضة حُسْنٍ
بتّ منها مابين وردٍ وآسِ
أمْـزجُ الكأس من جناهُ ، وكم ليْـ
ـلةٍ صدٍ مزجتُ بالدمع كاسى
لايَبت ذلك الحبيب بمــا بتُّ (م)
أعانى من لوْعـــة وأقاسى

---

(1) الدكز » فى الأصل .

(2) الوارد فى النجوم الزاهرة ١٠٥/٦ محمد بن عبيد الله هذا وقد كانت وفاته سنة ٥٨٣ هـ .

[١٣] قلق من وشاحه وبقلبي
ما بخلخـــاله من الوسواسِ

أيّ برح لوكان لي مسعد فيـ
ـه وجرح لو كان لي منه آسي

مَنْ تناسى عهـــد الشباب فإنّي
لحميدٍ من عهـــده غير ناسي

أخْلَق الدهر جِدّتي وغدت مِنـ
ـكوبّة بعـــد مِرَّة أمْراسي

يانهـــار المشيب من لي — وهيْـ
ـهات — بليلِ الشبيبة الديماسي

حال بيني وبين لهـــوى وإطرا
بِيَ دهـــرٌ أحال صبغة راسي

ورأى الغانيـــاتُ شيبي فأعرضْـ
ـنَ وقلن : الشبابُ خير لباسي

كيف لايفضل السواد وقـــد أضـ
ـحى شعـــاراً على بني العبّاس

أمناءِ الله الكرام وأهـــل الـ
ـجود والحـــلم والتقى والباس

علماء الدين الحنيف وأعـــلا
مِ الهدى والضراغم الأشواس

أيّد الله دينـــه بجبـــالٍ
منهمو شُمَّخٌ الجبال رواسي

واصطفاهم من كل أغلب مشبو
بِ الذراعين ، للعِدى فرّاس

فهمو الآمرون بالعـــدل ، والـ
حاكمون [الناس[1]] بالقسطاس
ولقد زينّت الخــلافةُ منهم
بإمام الهــدى أبى العباس
مليك جلّ قــدسه عن مثال
وتــعالت آلاؤه عن قياس
هاشمىٌ له زئـــير ينسى :
الأسود الزئـــير فى الأخياس
وسماح يُغنِى البلاد إذا الأنـ
ـواء ضنّتْ بصوبة الرّجاس
[٣ب] جمع الأمنُ فى إيالته ما
بين ذئب الغضا وظْبِى الكناس
وعنى خاضعا لعــزّته كلُّ (م)
أبىّ القيـاد صعب المــراس
بثّ فى الأرض رأفةً بدّلت وحْـ
ـشةً سارى الظلام بالإيناس
غادَرَتْ جفوةَ الليـالى صفوا
وألانَتْ قلبَ الزمان القاسى
بيَدِ الناصر الإمام استجابَتْ
بعْد مطلٍ منها وطول شماس[2]
ردّ تدبيرها إليـــه فأضحى
ملكها وهو ثابت الأساس

---

(١) ساقطة فى الأصل وقد أضيف ما بين الحاصرتين ليستقيم المعنى والوزن .
(٢) أمامها فى الهامش « مكاس » .

يا لها بيعةً أجدَّت من الإسـ
ـلام بالى رسومه الأدراسِ
ولِىَ اللهُ أمرَها فـله المنَّـ
ـة فيها عليـه لا للناس
جمعتنا على خليفـة حقّ
نبوىّ الأعراق والأغراس
فى مقـــامٍ ذُلَّتْ لهيبته الأعـ
ناق ذلّ النقـاد للهرماس
زال فيه الحجاب عن مالكٍ عا
رٍ من العار ، للتُّقى لبّاس
ورأينا بُرْدَ النبىّ على منـ
كب طودٍ من الأئمة راسى
ماليا هديه مواقف من نو
ر جلالٍ يضىء كالنبراس
فله فى الرقاب عهـد ولاءٍ
محكم العقد محصد الأمراس
يا مبيد العدى ويا طاردَ المحْـ
ـلِ نداهُ ، وقاتل الإفلاس
حجة الله أنت والسبب المم
ـدود ما بينه وبين الناس
أنت أحيَيْتَ رمة العدل والجـ
ـود وأنشرْتها من الأرماس
(١٤) جُدتَ قبل السؤال عفوا وكأىّ
من يد لا تـــدرّ بالأبساس

وأرحت الزوراء من جَوْرِ مزوّ
(م) عن الخير فاجر مكّاس
أنَفاً للإسلام منه ومن أشيا
ياعه ، عصبةِ الخنا الأرجاس
ردّ فى نحره انتقامك ما فوّ
قَهُ من سهامه الأنكاس
دُنسَتْ برهة بأفعاله الدنـ
يا فطهّرْتها من الأدْناس
بك عاذتْ من شرّ شيطانه الوسـ
ـواس فيها بمكرة الخنّاس
واشتكت داءها العضال فألفتْـ
ـكَ لأدوائها الطبيب الآسى
فابق للدّين ناصراً ، وارْم بالإرْ
غام جدّ الأعداءِ والأتعاس
واستمعها عذراء شرط التهانى
واقتراح النـدمان والجلاس
حملَتْ من أريج مدْحك نشراً
هى منه مسكية الأنفاس
مِدَحاً فيك لى ستبقى على الد
هْر بقاء التنزيل فى الأطراسِ
ما أميطتْ راحه يراع وما خطّ
تْ يمينٌ رقشا على قرطاس

* * *

وبعد البيعة الشريفة بأيام برز الأمر الشريف ببسط يد مجد الدين ابن الصاحب وحُكّم فى الدولة ، ونفذت أوامره فى جميع أرباب الدولة،

وتقدم إليه ببيع الغلاّت والحبوب على الناس ، ففتح الخزائن وأطلق البيع فيها ، وأمر أن يُعْطَى الأجناد أرزاقهم من الحنطة والشعير والحبوب ، ففعل ذلك ، فرخصت الأسعار وكثرت الخيرات وفرّج الله سبحانه وتعالى عن الناس ما كانوا فيه من القحط والمحل (٤ ب) وشدة الجوع ببركة قدومه[١] وإيالته الميمونة ، وأنفذ إلى البلاد الواسطية السفن الكبار مملوءة طعاماً من سائر الحبوب ، وتلا ذلك تواتر الأمطار والمدود وكثرة الخصب ، وانقضت سنو[٢] الجدب عند ولايته ، وكان الناس يسمّون أيامه « العيسوية » لذهاب ما كانوا فيه من شدّة القحط بعدا أيامه الزاهرة ، زيدت شرفا .

* * *

ذكر (٣) وقعة ظهير الدين بن العطار وقتله

وكان هلاكه يوم الخامس من ذى القعدة .

ذكر السبب فى ذلك :

كان خالص[٤] الخادم من خواص الحضرة الشريفة ، فبرز الأمر العالى أن يوقع له بلحف الجبل والبَنْدنجين[٥] وما يجرى معها فنفّذ أستاذ الدار أبو الفضل بن الصاحب إليه يأمره بالتوقيع لخالص [الخادم] كما أمر أمير

---

(١) فى الاصل « قدمه » .

(٢) فى الاصل « سنى » .

(٣) أمامها فى الهامش « محنة ظهير الدين بن العطار » وهذه العبارة بخط كاتب الصفحة الاولى من المخطوطة .

(٤) هو مجاهد الدين خالص بن عبد الله الناصر خادم الخليفة الناصر لدين الله ، وقد سلم اليه الخليفة مماليكه الخواص ؛ وكانت وفاته سنة ٥٨٤ هـ . هذا وقد اكتفى ابن الأثير : الكامل ١١/١٢ فى ترجمته بقوله « خادم الخليفة وكان أكبر أمير ببغداد » .

(٥) بلدة فى طرف النهر وان كثيرة المحال ، راجع ابن عبد الحق البغدادى : مراصد الاطلاع ٢٢٥/١ . أما لحف الجبل (بكسر اللام وسكون الحاء) فصقع من نواحى بغداد وذكر مراصد الاطلاع ١٢٠١/٣ أنه سمى بذلك لانه فى لحف جبل همذان ونهاوند ، وقال أيضا انه يعرف بجبل حمرين ، وجاء فى محيط المحيط أن لحف الجبل أسفله .

المؤمنين ، فاستعظم ذلك ولم يمتثل المراسم النبوية ، فكان فى جواب ذلك التقدم بالقبض على ابن العطار ونقله إلى التاج العتيق ، فعُذّب بأنواع العذاب ومات بعد أيام ، فحمل ليلاً إلى دار أخته ، فجعلته فى تابوت وأرادت إخراجه خفية لئلا يعلم به أحد ، فجعل أستاذُ الدار على إخراجه عينا من حيث لا يُعلم به ، ونبّـه الأعوام(١) على إخراجه ، وأوقف جماعته على باب النوبى(٢) ينتظرون خروجه ، وكان الناس يبغضونه لما كان يبدو منه فى سنى المحل من منع البيع العام على الناس والضمانات الجارية فى أيامه ، [و] ما كان يجرى منه فى حق الأجناد والمماليك ، فلما خرج تابوت ابن العطار وليس وراءه أحد يؤبه له ووصل خارج باب النوبى من دار الخليفة أشار بعض من كان العينَ على خروجه إلى العوام [ه ١] والمماليك : « هذا تابوت ابن العطار » ، فتكاثرت العوام على أخذه ، وأُلقـى من رءوس الحمّالين وكسر ، وأُخرج من التابوت ومزّقت أكفانه ، وربطوا فى إحدى رجليه حبلاً من ليف ، وجعلوا يسحبونه فى الأسواق والدروب بمدينة السلام ، وكانوا ينادون عليه ، وفُـعل به كما فعل بابن القرايا المشد ، حتى إن من الناس من قطع خنصره وأذنه ، وكان ذلك فى الخامس عشر من ذى القعدة(٣) كما ذكرنا .

* * *

استدعاء فخر الدولة بن المطلب بين يدى الناصر لدين الله ليستوزر ، وذلك فى الشهر المذكور من السنة :

كان فخر الدولة بن المطلب رجلاً عالما زاهداً ورعاً كثير المعروف مشهوراً بالصلاح والتقى ، فلما كانت الأيام المستنجدية — سقى الله عهودها

---

(١) يقصد بذلك العامة .

(٢) هو أحد ابواب بغداد ، ويستفاد مماسيرد بعد فى هذه المخطوطة أن قصاد الملوك هم الذين كانوا يدخلون منه ويقبلون الارض عنده قبل دخولهم على الخليفة ، راجع أيضا Blochet: Histoire d'Egypte de Maqrizi, p. 192.

(٣) فى الاصل « ذى الحجة » والصواب ما أثبتناه بالمتن .

الرضوان — دعاه ليستوزره فامتنع ، وطلب الإقالة فلم يفعل ماأمر ، وقصته مشهورة بذلك ، فلما كانت الأيام المستضيّة طولب بما طولب به من قبل ، فسأل أن لا يكلف ذلك ، فلما أنعم الله تعالى على عباده بالأيام الناصرة لدين الله أمر بإحضار فخر الدولة بن المطلب ، فحضر بين يدى السّدة الشريفة النبوية وخدم ، فلما استقلّ به المكان تقدّم إليه أمير المؤمنين بأن يكون له وزيراً ومشيراً لمكانته من الدين والعلم والبيت[1] ، فلما سمع كلامه قبّل الأرض وخدم وقال : « يا أمير المؤمنين : المملوك[2] رجل شيخ وما يجوز أن يفتح له كُتّابا بعد العصر » ، فقال له بهاء الدين صندل الخادم : « أجب أمير المؤمنين » ، فقال[3] : « ليس لك فى إجابتى مصلحة ، [٥ب] لأننى لو قبلت هذه الولاية ما كنت أقرّك على ما بيدك من الإقطاع والولايات بل كنت أجريك على قاعدة بلال وأزيل عنك هذه الثياب وأمنعك من الركوب وبين يديك سيوف مشهورة » ، فضحك أمير المؤمنين من قوله وقال له : « تشير علىّ بمن يصلح ؟ » ، فقال : « هذا أصلح من عندك » ؛ وأشار إلى مجد الدين بن الصاحب وهو إذ ذاك أستاذ الدار العزيزة ، فضاق صدر أستاذ الدار من قول فخر الدولة ولم يعجبه ذلك ، فقال له[4] أمير المؤمنين : « لمَ لا يرضيك قوله وهى[5] أرفع درجة ؟ » ، فقال « يا أمير المؤمنين ، لا أبيع حضورى فى هذه الخدمة بالدنيا وما فيها » ، وسأل أن يقرّ على خدمته — وهى أستاذية الدار — فأقره على ذلك ، وكان أعظم الناس مكانةً عنده إلى أن قتل[6] .

---

(١) اى بيت بنى العباس .

(٢) يعنى بذلك نفسه .

(٣) الكلام هنا موجه الى صندل الخادم .

(٤) الضمير هنا عائد على مجد الدين بن الصاحب أستاذ الدار .

(٥) يعنى بذلك وظيفة الوزارة .

(٦) كان مقتله فى ربيع الاول سنة ٥٨٣هـ بوشاية سعى بها أحد صنائعه لدى الخليفة مقبحا لديه أفعاله ، وقد وجدت هذه الوشاية قلبا مفتوحا لأنه كان يراه صاحب الامر دونه) راجع ابن الاثير : الكامل ١١/٢٣٠ .

ثم قال له : « شر علينا بمن نوليه » فقال فخر الدولة: «إن أمير المؤمنين إن يُخوّل سليمان بن جاووش نائب وزارة فرأيه أعلا » ، فأحضر سليمان بن جاووش — وكان يلقب بحسام الدين — إلى التاج الشريف ومن كان يختص بالديوان العزيز من أرباب الدولة والأجناد ليقضوا شهر[1] المستضيء بالله ، رحمة الله عليه ورضوانه .

* * *

وكان علىَ حسام الدين بن جاووش قلنسوة فخلع عليه جبة وعمامة بيضاء، وخلع على أرباب الدولة كافة فى ذلك اليوم ، وركب ورُتب نائبَ وزارة ، فبقى ينوب فى الديوان العزيز شهراً ، فوجد عليه أستاذ الدار ابن الصاحب لكونه كان يقف فى تقدّمانه ، فعزله ورتّب عوضه ابن البخارى وذلك فى محرم سنة ست وسبعين ، وسنذكره إن شاء الله تعالى .

* * *

وفيها أقطع آل تنبه الشطرنجى واسطا ، واعطى قيطومش شحنكية بغداد أجمع .

وفيها صرف ابن طلحة من حجبة الباب الشريف ، ورتب عوضه قوام الدين بن زيادة .

وفيها رتب ابن شبيب صاحب مخزن ، ورتب زين الدين مشرف مخزن أيضا ، ورتب ابن جعفر صاحب باب[2] المراتب ، واقر أبو على بن الوكيل

---

(١) المقصود بذلك تكريم المستضيء بعد وفاته بزيارة قبره ، وهذه عادة متبعة فى كثير من البلاد الاسلامية .

(٢) راجع رسوم دار الخلافة لابن المحسن الصابىء (تحقيق الأستاذ ميخائيل عواد) ص ٢٠ — ٢١ .

على عمله صاحب ديوان ، وأقر أمين الدين مهيمنا على إشراف الديوان العزيز.

وفيها خلع التشريفات الجيلة على آل تنبه الشطرنجى، وقيطرمش شحنة[1] بغداد ، وسيف الدين طغلو شحنة الخواص ، ومُيزّوا على جماعة المماليك والأمراء .

ذكر ما تجدد للسلطان[2]
بالشام ومصر فى هذه السنة من الأحوال والغزوات

ودخلت هذه السنة والسلطان نازل[3] على تل القاضى ببانياس[4] وعسكره المنصور فى كل يوم يصبحون بلد العدو ويشنّون الغارات وينقلون مايجدونه من الغلات ، وكان العام كثير الجدْب حتى لم يبق بتلك البلاد لهم إلاّ اليسير .

وكان المقدم على العسكر عز الدين[5] فرخشاه [بن شاهناه بن أيوب] ابن أخى السلطان ، وكان مخيمه على بعد من السرادق السلطانى قدّامه ، فجاء إلى السلطان ومعه جماعة من الأمراء وقد أجمعوا رأيهم على أن يغيروا على

---

(١) هو القائم بملاحظة الامن فى البلدوعمله عمل الشرطة اليوم راجع فى ذلك :
Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٢) السلطان هنا هو صلاح الدين الايوبى .

(٣) كان السبب فى ذلك أن بلدوين ملك بيت المقدس خرج لتصيد الماشية التى كانت فى طريقها من دمشق الى بانياس للرعى ، انظر فى ذلك :
Runciman: History of the Crusades, vol. II, p. 419
على حين أن المقريزى : السلوك ٦٦/١ يشير الى أن الصليبيين استغلوا فرصة انشغال صلاح الدين ببعلبك وبنوا حصنا فى مخاضة بيت الاحزان ، أما لين بول : S. Lane-Poole : Saladin, p. 157 فيهمل الرأيين ويرجع السبب فى ذلك الى فشل صلاح الدين فى حمل ملك الفرنجة بالطرق السلمية على التراجع عن مشروع عدوانى أعد ضد المسلمين .

(٤) قرية قرب دمشق تحت الجبل الذى فى غربها ، هكذا عرفها صاحب مراصد الاطلاع ، ١٥٨/١ ، انظر Dussaud: Topographie Historique de la Syrie, pp. 390-391.

(٥) كان ينوب عن عمه صلاح الدين بدمشق وكان موضع ثقته ، وقد مات فى أول جمادى الآخرة سنة ٥٧٨ هـ ، وسيرد كثيرا فى صفحات هذا الكتاب ، انظر أيضا ابن الاثير : الكامل ٢٠٠/١١ ، والمقريزى : السلوك ٧٩/١ .

بلد العدوّ فى ليلتهم بكرة غدهم ويرحلون عن ذلك المكان ، فصوّب لهم السلطان رأيهم وقال : « نعم الرأى الذى رأيتموه ، والرأى أن تنهضوا فى هذه الليلة وتزمعوا على دخول بلد الفرنج ، فتجمعون ماتخلّف فى مواضعها المتفرقة ، وإذا عدتم سالمين إن شاء الله تعالى رحلنا [٦ ب] صوب البقاع [١] » .

* * *

ذكر وقعة مرج عيون [٢]

وكانت يوم الأحد ثامن [٣] محرّم ، ولما نهض المسلمون ليلة اليوم المذكور أصبح السلطان بكرة يومه راكبا ومعه صمصام الدين أجُكْ والى بانياس فى موكب خفيف وجمع كثير ، ووقف على الطريق فوجد فى تلك الغياض سروحا من الأبقار والأغنام جافلة [٤] ، وقَصَدَه فى تلك الحال راع فأخبره أنه شاهد عسكر الكافر قد عبروا بالقرب على قصد العلافة ، فاستبعد السلطان ذلك وقال : « لو كان ذلك صحيحا لجانا الجاسوس » ، فبينا هو كذلك إذْ جاءه من أوائل العسكر من أخبره بصحة الخبر ، فرجع إلى المخيمْ وقت الظهر ، وكان فى اسطبله خيول شتى عتاق وغير عتاق ، فبذلها لخواصه وقال : « اركبوا وأدركو العدوّ » . وصاح بعسكره وحلقته فسار فيهما موفقا بالنصر ، فأشرف على القوم وهم [٥] فى ألف رمح وعشرة آلاف

---

(١) تقع فيما بين حمص ودمشق وهى كثيرة القرى غزيرة المياه ، راجع مراصد الاطلاع ، ٢١١/١ و Dussaud : op. cit. p. 396 et seq.

(٢) فى الاصل «العيون» ، راجع ياقوت: : معجم البلدان ٤٨٨/٤ . انظر فى هذه الوقعة Grousset : Histoire des Croisades, t. II, pp. 675-678.

(٣) هكذا أيضا فى المقريزى السلوك ٦٨/١ ، ولكنه « الثانى » فى الروضتين ١٠/٢ ، ويلاحظ أن التوفيقــات الالهامية ص ٢٨٨ جعلت أول المحرم من هذه السنة هو الجمعة ويوافق الثامن من يونيو ١١٧٩ م ، راجع Grousset : Histoire des Croisades, II, p. 675.

(٤) Runciman, op. cit. II, p. 420.

(٥) العبارة « الف رمح ... وراجل » فى السطر التالى واردة بالنص فى المقريزى : السلوك ، ٦٨/١ ، س ٢ — ٣ .

مقاتل ما بين فارس وراجل ، وكان فى جملتهم [بادين[١]] بن بارزان ، فبرز فى مقدّمتهم وحملوا حملة واحدة كالجبل العظيم وكادوا أن يظفروا ، وطعن فيها صمصام الدين أجك ، فثبت السلطان أمامهم وردّهم إلى ورائهم فولوا الأدبار منهزمين فركبهم السيف ، فأسروا من كان له أجل حصين ، ودخل الليل ونجا ملكهم هاربا ، فذُكر أنه حمله أحدهم على ظهره وسرى به تحت الليل ، ورجع[٢] السلطان إلى مخّيمه وقد مضى من الليل أكثره ، ثم أذن بتقديم الأسارى ، فأوّل من قدم منهم « بادين بن بارزان » ، ثم قُدِم « أود[٣] » مقدم [١٧] الداوية الكبير وكان مشهوراً شجاعا شديد البأس ، وأحضر « ابن القومصية[٤] » وأخو صاحب جبيل[٥] وكان كثير النهوض إلى ثغور الإسلام ، وأحضر جماعة من مقدميهم الأكابر وقيدوا بالقيود الثقال ، ثم عرض المأسورين فكانوا مائتين ونيفا وسبعين من الفرسان المقدمين سوى من أسره آسرُه وكان فى خيمته ولم يسمع به ، وسوى من لم يذكر من الأتباع ؛ ثم نقل الأسارى إلى دمشق فاعتقلوا .

فأما ابن بارزان[٦] فإنه[٧] — بعدسنة — بذل فى نفسه مائةً وخمسين

---

(١) هو بلدوين الابلينى Baldwin of Ibelin. صاحب الرملة ، راجع Lane-Poole : op. cit. p. 157.

(٢) عبارة السلوك ١/٦٨٨ س٤ — ٥ وردت على النحو التالى « وعاد السلطان الى مخيمه وقد مضى أكثر الليل وعرض الاسرى فقدم أولهم » .

(٣) هو المعروف باسم Odo of Saint Amand كبير مقـدمى الداوية اذ ذاك ، ويرى البعض أن اندفاعه وطيشه كانا السبب الاكبر فى تلك الهزيمة النكراء ، هذا ويستفاد من مقال كتبه Albon : La mort d'Odon de St. Amand (Rev. de l'Orient Latin, t. XII, pp. 278-288). ان أود هذا لم يمت فى الحبس .

(٤) المقصود بذلك Hugh of Galilee وكانت امه كونتة طرابلس وقد افتدته فيمابعد بخمسة وخمسين الف دينار صورية كماسيردفى النص أعلاه بعد قليل ، انظر ابن واصل : مفرج الكروب ٢/٧٦ .

(٥) بلد فى شرقى بيروت ، مراصد الاطلاع ١/٣١٤ ، Dussaud : op. cit. p. 383 وياقوت : معجم البلدان .

(٦) امام هذا الخبر فى هامش المخطوطة « مبلغ فداء هذا الكلب » .

(٧) من هنا حتى آخر الخبر يتشـابه تشابها كبير — مع اختلاف طفيف — مع عبارة العماد الواردة فى أبى شامة : الروضتين ٢/٨

ألف دينار وإطلاق ألف أسير من المسلمين ، فكان الفقيه [ضياء الدين] عيسى[١] مأسوراً عندهم من نوبة[٢] الرملة فالتزم أن يؤدى من قطيعته المذكورة القطيعة التى عرف بها فكاكه ، وأما « هو »[٣] — ابن القومصية — فإنه افتكّه أمه بخمسةٍ وخمسين ألف دينار صورية[٤] ، وأما « أود » — مقدم الداوية — فإنه مات[٥] فى سجنه فطلبت جيفته فأخذوها بإطلاق أسير ، وطال أسرُ الباقين ، فمنهم من هلك فى الأسر ، ومنهم من خرج بقطيعة وأمان ؛ وكانت لعز الدين فرخشاه فى هذه النوبة اليد البيضاء والبلاء المذكور.

ذكر سبب غيبة (٦) والدى الملك المظفر — سقى(٧) الله عهوده الرضوان — عن هذه النوبة

وذلك أن سلطان الروم [السلاجقة] قلج أرسلان أرسل فى طلب حصن رعبان[٨] يدّعى أنه من بلاده وإنما أخذه منه نور الدين بغير أمر ،

---

(١) راجع ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ٥٨٥/٣ .

(٢) راجع سيرة صلاح الدين ، ص ٤٢ — ٤٣ ، ونزهة الانظار ، ص١٥٥ ، والروضتين (نشرة د. حلمى أحمد) ج ١ ق ، ص ٦٦٩ — ٧٠٤ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ٥٨/٢ — ٦٣ .

(٣) المقصود بذلك Hugh of Galilee راجع الحاشية رقم ٤ ص ١٧ .

(٤) وتسمى أيضا بالدنانير المشخصة وقد ذكر القلقشندى ، صبح الاعشى ٤٣٧/٣ أنها دنانير يؤتى بها من البلاد الافرنجية والروم وهى معلومة الوزن ، على أحد وجيهها صورة الملك الذى تضرب فى زمنه وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبوليس الحواريين ، وقد يعبر عنها أحيانا بالافرنتية وأصلها افرنسى .

(٥) كان المتفق عليه أن يطلق سراح «أودو» نظير اطلاق أحد المسلمين ممن أسره ، الا أن «أودو» رأى نفسه اعظم من ان يتساوى به أى شخص من المسلمين مهما علت مكانته، ومن ثم بقى رهين محبسه مما عابه عليه وليم الصورى انظر :
Guillaume de Tyre, Histoire d'Eracles, 29.

(٦) فى شأن هذه الغيبة وحملة المظفر تقى الدين عمر على رعبان يقول ابن كثير «وكان الملك المظفر تقى الدين عمر غائبا عن هـذه الوقعة (أى وقعة مرج عيون) بما هو أعظم منها» .

(٧) يستدل من هذا الدعاء على أن المؤلف وضع كتابه بعد سنة ٥٨٧ هـ وهى السنة التى مات فيها أبوه .

(٨) رعبان قلعة بين حلب وسميساط غربى الفرات ، انظر ياقوت : معجم البلدان ٧٩١/٢ مراصد الاطلاع ٦٢١/٢ ، وراجع ايضا دائرة المعارف الاسلامية مادة Klidji Arslan

وأن ولده الملك الصالح قد أنعم به عليه ، فأبى ذلك الملك الناصر صلاح الدين ، فجهز قلج أرسلان عسكراً ونزل على حصاره (٧ب) فندب السلطان الملك المظفر إلى لقائهم بجماعة[١] يسيرة ، وكان جملتهم ثمانى مائة فارس، وكان عسكر قلج أرسلان نيفا وعشرين ألف فارس مجتمعة على النهب والغارة، فسار بمن معه من العدة اليسيرة المذكورة حتى أشرف على عسكر قلج أرسلان ليلا ، وقد تلاحق به من أصحابه نحو من مائتين والباقون فى إثرهم لم يتفق اجتماعهم جملة واحدة ، لأن طريقهم كانت وعرة لم يسيروا معظمها إلا رجالة ، فلما أشرف عليهم ضربت كوساته[٢] وبوقاته ، فركض بمن معه وخالط القوم ، وذلك فى سوق الربض ، وكان لعسكر قلج أرسلان من فرسانهم ثلاثة آلاف فى حصار الحصن ، فحين وقع الصالح تحادروا عليه وضايقوه ومن معه ، فأشار إلى غلامه بأن يعطيه قنطاريته ، فناوله إياها فحمل عليهم وقال : « أنا الملك المظفر » ثم طعن فارساً فأرداه ، وحمل أصحابه فى إثره فكسروا فرساناً ، فلما نظر القوم إلى ذلك انهزموا من بين يديه عن آخرهم ، ووقع الصالح بهم فجعل يتبع بعضهم بعضاً وتركوا خيامهم بما فيها من أثقالهم . ومنهم من أصابه بذلك ، وأسر من مقدميهم بذلك جماعة ، فلما أصبح خلع عليهم وأعطى كل واحد منهم فرساً يحمله ، وسير النجب من هناك إلى السلطان والكتب تخبره بما رزقه الله من النصر والظفر بعسكر قلج أرسلان ، ووافق ذلك ما من الله تعالى به على السلطان من ظفره.

---

(١) قدرها ابن الاثير : الكامل ١٨٧/١١، وابن الوردى : تتمة المختصر ٨٩/٢ ، وابو الفدا ، المختصر ٦٥/٣ بألف فارس ، على حين أن أبا شامة : الروضتين ٩/٢ ، وابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٣/١٢ قدراها بثمانمائة مقاتل فقط . والمأثور عن تقى الدين عمر انه كان يفتخر بذلك ويقول « هزمت بألف مقاتل عشرين ألفا » .

(٢) عرف القلقشندى : صبح الأعشى ٩/٤ الكوسات بأنها صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ومعها طبول وشبابة يدق بها مرتين فى القلعة كل ليلة ، واذا كان السلطان فى السفر تدور حول خيامه ، وذكر ايضا : شرحه ١٣/٤ أن الواحد الذى يستعمل فى ضرب هذه الكوسات يعرف بالكوسى ، انظر ايضا Gaudefroy-Demombynes: La Syrie, Introd., p. LIV, note 3.

بالإفرنج فى « مرج عيون » ، وسارت بذلك البشائر إلى بلاد الإسلام ، وسيرت كلمات الشعراء إليه من أقاصى البلاد وأدانيها . فمن ذلك كلمة أمين الدولة أبى الفتح محمد بن عبد الله التعاويذى البغدادى (١٨) وهو من شعراء الديوان العزيز بمدينة السلام ، سيرها إليه فى السنة المذكورة إلى دمشق ، وهى :

إن كان دينُك فى الصبابة دينى
فقفِ المطىَّ برملتى يبرين
والثم ثرى لوشارَفت فى هُضْبِه
أيدى الركاب لَثْمتُه بجفونى
وانشد فؤادى فى الظباء معرضا
فبغير غزلان الصريم جنونى
ونشيدتى بين الخيـــام وإنما
غالطت عنها بالظباء العـــين
لولا العدى لم أكْنِ عن ألحاظها
وقـــدودها بجوازن وغصـــون
لله ما اشتملت عليه قبابهم
يوم النوى من لؤلؤ مكنون
من كل تائهة على أترابها
بالحسن ، غانية عن التحسين
خودٌ ترى قمر السماء إذا بدَتْ
مابين سالفة لها وجبين
غادين مالمعت بروق ثغورهم
إلا استهلّت بالدموع شئونى
إن ينكروا نفَس الصَّبا فلأنها
مرّت بزفرة قلبى المحزون

وإذا الركائب فى الجبال تلفّتت
فحنينها لتلفّتى وحنينى
يا سلْم إن ضاعت عهودى عندكم
فأنا الذى استودعتُ غير أمين
أو عدتُ مغبوناً فما أنا فى الهوى
لكمو بأوّل عاشق مغبون
رفقا فقد عسف الفراق بمطلق
العبرات فى أسر الغرام رهين
مالى ووصل الغانيات أرومه
ولقد بَخِلْن علىّ بالماعون
وعلام أشكو والدماء مطاحة
بلحاظهنّ إذ الجمال ديونى
(٨ب) هيهات ماللبيض فى ودّ امرىء
أربٌ ، وقد أرْبى على الخمسين
ومن البليّة أن تكون مطالبى
جدوى بخيل أو وفاء خؤون
ليت الضنين على المحبّ بوصله
لقن السماحة من صلاح الدين
ملك إذا علقت يد بزمامه
علقت بحبل فى الحفاظ متين
قاد الجياد معاقلاً ، وإن اكتفى
بمعاقلٍ من رأيه وحصون
وأعدّ للأعداء كلّ مهندٍ
ومثقف ومضاعف موصون

سهرت جفون عداه خيفة ماجدٍ
خلقت صوارمه بغير جفون
لو أنّ لليث الهزبر سطاه لم
يلجأ إلى غاب له وعرين
والبحر لو مزجت به أخلاقه
لغدتْ مياه البحر غير أجونِ
والأرض لوشيبت بطيب ثناه لم
تنبت سوى الخيرىّ والنسرين
والدهر لو أعداه حسن طباعه
ما شين من أبنائه بضنين
قسما لقد فضل ابن أيوب الحيا
بسماح كف بالنضار هتونِ
مخلوقة من سؤدد وندًى . وقد
خُلقَ الأنام سلالة من طين
يامن إذا نزل الوفود ببابه
نزلوا بجمّ من نداه معين
أضحت دمشق وقد حللت بجوّها
مأوى الطريد وموئل المسكين
وغدت بعدلك وهى أكرم منزل
تُلـْقَى الرحالُ به وخير قطين
يُثنى عليك المعدمون بها كما
تثنى الرياض على السحاب الجون
(١٩) لك عفة فى قدرة ، وتواضع
فى عزة ، وشراسة فى لين

قسمت يمينك فى الورى الأرزاق والآ
جال بين منىً وبين منون
وأريتنا بجميل صنعك ماروى الرا
وون عن أمم خلت وقرون
وضمنت أن تحيى لنا أيامهم
بالمكرمات ، فكنت خير ضمين
كاد الأعادى أن يصيبك كيدها
لو لم تكدك برأيها المأفون
تخفى عـــداوتها وراء بشاشة
فتشف عن نظر لها مشفون
دفنت حبائل مكرها فردَدْتها
تذوى[1] بغيظ صدورها المدفون
وعلمتَ ما أخفوا كأن قلوبهم
أفضت إليك بسرّها المخزون
كمنوا وكم لك من كمين سعادة
فى الغيب يظهر من وراء كمين
فهوت نجوم سعودهم ، وقضى لهم
بالنّحس طائرُ جدّك الميمون[2]
فتملَّ دولتك التى حكمت لها
الأقدارُ بالتأييـــد والتمكين

* * *

(١) « تذرى » فى الروضتين ١٠/٢ .
(٢) ورد هذا البيت فى الروضتين ١١٠/٢ على الصورة التالية :
فهوت نجوم سعودهم وقضى لهم بالنحس طائرهم بمـــرج عيـون
وعلق أبو شامة على هذا بقوله « قلت : هكذا أنشده وهو حسن ، وقد كشفته فى نسخة
ديوان ابن التعاويذى : طائر جدك الميمون »

ومنها بعد أبيات يذكر فيها حاله ويصف من كلمته :

واقصد حمى ملك عزيزٌ جارُه
سامى الذوّابة شامخ العرنين
واهد الثناء إلى أغر فسيح أفـ
ـطار المحامد بالثناء قمـين

• • •

ذكر النزول على بيت[1] الأحزان

وذلك فى شهر ربيع الآخر من السنة :

ولما أحكم الفرنج — خذلهم الله — بناء بيت الأحزان فكر[2] السلطان فى نفسه وندم[3] (٩ب) على ما فرّط فى تركهم فى مبدأ الأمر ، فراسل الفرنج على أن يهدموا الحصن فإن ضرره يكون على الإسلام فقالوا[4]: « لا سبيل إلى هدمه » ، فراجعهم على أن يشرعوا فى هدمه « وإلا سرْتُ إليكم بعساكر الإسلام » . فلما تحققوا عزمه وعلموا أن لا بدّ له من ذلك قالوا : « إن كان لابد من ذلك فأعطنا ما غرمنا عليه من الأموال ، فإنا قد غَرمنا عليه مالا كبيراً » ، فبذل لهم أولا ستين ألفا فلم يقبلوا ، فبلغ معهم إلى أن بذل لهم

---

(١) عرف مراصد الاطلاع ٢٣٦/١ بيت الاحزان بأنه بلد بين دمشق والساحل ،وقال زعموا انه كان مسكن يعقوب — عليه السلام— أيام حزنه على يوسف .

(٢) « افكر » فى الاصل .

(٣) ذكر البعض أنه لما بنى الفرنج مخاضة بيت الاحزان هذه قيل لصلاح الدين انه متى احكم هذا الحصن تحكم الوهن من بلاد الاسلام ،فقال : « اذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه الى الاساس » راجع ابن واصل : مفرج الكروب ٧٢/٢ .

(٤) فى الاصل « فقالوا وان » .

مائة ألف دينار ، ، فلما سمعوا ذلك داخلهم[1] الطمع .

وكان سبب ذلك الداوية ، فإنهم كانوا يمدّون مَنْ بالحصن بالأموال والنفقات وجميع مايحتاجون إليه ، فلما رأى السلطان [ذلك] جمع الأمراء من أصحابه وأولى الرأى والمشورة وعرفهم ماذكره الفرنج من امتناعهم وطمعهم وهل يزيدهم مالا ، فقالوا : « الصواب أن تعطيهم رضاهم من المال ويهدم الحصن » ، فقال لهم . « ما أفعل شيئاً ولا أبرم أمراً إلا بمشاورة ابن أخى الملك المظفر عمر » ، وكان [المظفر] فى حماة قد شرع فى إصلاح قلعتها وتحصينها ؛ فأرسل [السلطان] إليه جماعةً من الأمراء إلى حماة ليحضروا عنده ويستنيروا به ويأخذوا رأيه ويعرّفوه مايكون عليه العمل » فلما وصل المنفذون إلى حماة حضروا بين يديه وسلموا إليه كتاب السلطان وشاوروه فيما أُرْسِلوا به فقال : « ما أرى هذا رأياً صالحاً » . ثم كتب إلى السلطان كتاباً يذكر فيه : « إن هذا الرأى الذى قد أزمَعْتَ عليه ليس بشيء ، وإن الله تعالى يسألك عن إعطائهم هذا المال » ، وأنه قادر على المسير (١٠ ا) إليهم ، « والرأى أن نصرف هذا المال إلى الأجناد ونرغبهم فى الجهاد ، وتسير بعساكرك وتنزل عليه والله تعالى فى معونتك و نصرتك» ، ثم خلع على الجماعة الذين جاءوا إليه وأمرهم بالسير إلى السلطان ، فلما وصلوا إليه سلّموا إليه الكتاب وعرّفوه ماقال لهم شفاهاً فقال : « هذا هو الرأى السديد » ، ثم أحضر الأموال وأرسلها إلى سائر التركمان والأجناد فى البلاد ،

(١) يبدو من المخطط العام للصيلبيين فى الشام فى ذلك الوقت أنهم كانوا قد اتفقوا فيما بينهم على فتح عدة جيوب حربية فى الجبهة الاسلامية ، فتوجهت أكثر كتائبهم الى دمشق فى ذى القعدة سنة ٥٧٤ هـ فكانت النصرة لجند صلاح الدين بقيادة ابن أخيه فرخشاه ، ثم اه فى تلك السنة أيضا اغار صاحب أنطاكية على شيزر وصاحب طرابلس على كثير من التركمان ، لذلك سير صلاح الدين ابن أخيه تقى الدين عمر الى حماة وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه الى حمص لحفظ البلاد ، راجع ابن الاثير : الكامل ١٢/١٨٥ .

وأنفذ التخوت والخلع والتشريفات والخيل إليهم حتى جاءوا إلى سائر التركمان الذين هم غربى الفرات وشرقيها ، وسلّموا الأموال إليهم والخلع وماعدا ذلك ورغبوهم فى الجهاد ، فسارعوا إلى أمر السلطان وجاء منهم خلق كثير ، وكتب إلى سائر الأطراف والأمكنة ، فاجتمع عنده من الأمراء والأجناد والتركمان ألوف كثيرة ، وسار والدى الملك المظفر من حماة بجماعته متوجها إلى دمشق فكان وصوله إليها فى أول يوم من شهر ربيع الآخر ، فسُرّ السلطان بقدومه وخرج لتلّقيه ، وأعـدّ التركمان ما احتاجوا إليه من الدقيق وغيره وجميع ما احتاجوا إليه ، ثم أمر الناس بالرحيل فخرج فى جيش كالبحر الزاخر ، وكان خروجه من دمشق يوم الخميس[1] خامس شهر ربيع الآخر، ونزوله على الحصن يوم الثلاثاء حادى عشره قريبا منه[2] ، وكان جميع مَن حوله قد احتمى فيه وغلقوا بابه .

ثم[3] إن السلطان ركب بكرةً إلى ضِياع صفد ، وكانت قلعة صفد يومئذ للداوية فأمر بقطع كرومها وحمل ماهناك من الأخشاب لعمل المنجنيقات ، وعاد إلى المخيّم بعد الظهر (١٠ب) وخرج بعد العصر وجمع الأمراء وعارض برأيهم رأيه ، فقال له عز الدين جاولى الأسدى : « تأذن لنا فى الزحف قبل الاشتغال بنصب المجانيق حتى نذوق قتالهم ونستعرض أحوالهم ، فربما تلوح لنا منهم فرصة » ، فقال السلطان : « استخيروا الله عزّ وجلّ وافعلوا مابدا لكم » ، فمشى الناس إلى الزحف ودنوا من الباسورة[4]،

---

(١) الوارد فى التوفقيات الالهامية ، ص٢٨٨ أن أول ربيع الآخـر عام ٥٧٥ (وهى السنة التى تتناولها هذه الصفحات) كان يوم الاربعاء .

(٢) فى الاصل « من منه » .

(٣) على الرغم من ان خبر هذه الحملة وارد بصورة مشابهة لهذه فى أبى شامة : الروضتين ٢/١١ ، الا ان المضمار يمتاز فى هذه الناحية بايراده جزءا من الحديث الذى دار فى المجلس ، مع أن ما ورد فى الروضتين كان على لسان العماد .

(٤) Dussaud : Topographie Historique de la Syrie, p. 248, et note 6.

فتخاذل من كان بها من الفرنج وانهزموا ودخلوا الحصن وأغلقوا الأبواب ، وأحاط الناس بالحائط ، وملك[١] والدى الملك المظفر الباسورة برجاله وباتوا طوال الليل يحرسون ، والفرنج على شرافات الحصن يرمون بسهامهم ويتبعونها بشهب النيران ، وأصحابنا على الحفاظ ، نخرج جماعة والسلطان يمدهم وينجدهم ، وكان بعض المماليك[٢] قد سمع من وراء الباب صوت الحجارة ، فعلم أن الفرنج يبيتون خلف الباب وأنهم قد أوقدوا خلف كل باب ناراً ليحموا[٣] بها أنفسهم ، فعلم حينئذ ضعفهم ، فجاء [المملوك] وأعلم والدى ، فتيقن [والدى] أخذ الموضع وأعلم السلطان بذلك ، فبات الناس تلك الليلة فى أشدّ جهاد .

ثم إن السلطان فرق البناء[٤] على الأمراء ، فأخذ عمى عز الدين فرخشاه الجانب القبلى وجمع عليه النقابين والحجارين ، وجاء الجاندارية[٥] وراء ذلك

---

(١) يشير المؤلف لاول مرة فى هذا الخبر الى وجود أبيه الملك المظفر تقى الدين عمر فى الحصار وقد تثير هذه الاشارة الشك فى ان اكباره لابيه هو الذى جعله يذكره هنا ، وقد يؤكد هذا الشك خلو ابن الاثير : الكامل ١١/١٨٩ من الاشارة اليه ، على أن ابن واصل: مفرج الكروب ٢/٨١ قد نص على وجوده .

(٢) فى الأصل « الممالك » .

(٣) فى الأصل « ليحمون » .

(٤) المقصود هنا بالبناء هذا الحصن .

(٥) عرف Gaudefroy-Demonbynes, op. cit. Intr. P.C. « الجندار » ، وفرق بينه وبين « الجمدار » بأن الاخير هو خادم حجرة السلطان ويساعده فى عمله البشمقدار ، ويشير ابن خليل الظاهرى فى زبدة كشف الممالك (ص ١١٤) الى أن وظيفته تدخل فى عداد أمراء الطبلخاناة ، هذا وقد أورد المقريزى عبارة نقلها عن القصد يستدل منها على أن وظيفة الجندار هى أمير طبلخاناة ، انظر فى ذلك Quatremere, Hist. de Mam. t. I., p. 114 ,note 15

الجفاتى[1]، وأخذ السلطان النقب فى الجانب الشمالى وأنهض إليه الحجارين. وأخذ ناصر الدين محمد بن شيركوه بقربه نقبا، ورتب السلطان الرماة على الخندق يمنعون الفرنج من إخراج رءوسهم من وراء ستائر السور، فكم من جريح وطريح حتى استقر النقابون فى مواضعهم، فمازالت المعاول تعمل والصخور تتخلخل حتى استقامت (١١) النقوب، فما انقضى يوم الأحد حتى تم النقب السلطانى، وعُلّق وحشى الحطب ليلة الاثنين وأحرق فظُنّ أنه يتضعضع؛ وكان النقب فى طول ثلاثين ذراعا وفى عرض ثلاثة أذرع، وكان عرض السور تسعة أذرع. فأصبح الناس يوم الاثنين والسور على حاله لم يتضعضع، فأشفقوا لذلك وضعف يقينهم إذ لا سبيل لهم إلاّ تعميق النقب وتوسيعه للنيران الملتهبة فيه، فأخرج السلطان صرّة فيها ثلاثمائة دينار مصرية وتركها على يد عز الدين جاوْلى وقال: «من أتانا بقربة من الماء أعطى ديناراً»، وكان الماء بقربه؛ فرأيْتُ الناس يتسابقون بالقِرَب والأوعية حتى أطفؤوها وبرد ما كان فى النقب منها، فعاد النقابون وعمقوه وعلقوه وحشوه واستظهروا فيه يومى الثلاثاء والأربعاء، ثم أحرقوه.

ووصل فى ذلك اليوم أن الفرنج قد اجتمعوا بطبرية[2] بجمع كثيف

---

(١) اذا صحت قراءة هذا اللفظ على هذه الصورة فلعل المؤلف يقصد بها «الجفتة» التى عرفها القلقشندى، صبح الاعشى ٦/٤ فى ذكر رسوم الملك وآلاته بأنها «اثنان من اوشاقية اسطبل السلطان قريبان فى السن، عليهما قباءان أصفران من حرير بطراز من زركش، وعلى رأسيهما قبعتان من زركش وتحتهما فرسان أشهبان برقبتين وعدة، يركبان أمامه فى أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكرة».

(٢) عرف مراصد الاطلاع ٢/٨٧٨ — ٨٧٩ طبرية بأنها بليدة مطلة على البحيرة المعروفة بها وهى من اعمال الاردن فى طرف الغور بينها وبين دمشق ما بينها وبين بيت المقدس، انظر Dussaud: op. cit. p. 3, note 5. ويستفاد مما ذكره المؤرخ الصليبى Guillaume de Tyre, Nos. 27-30 انه قد ترامى الى سمع =

وعالم كثير ، فماج الناس وأسرعوا من الضياع ، فلما أصبحنا يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر المذكور وقد تعالى النهار وإذا بالجدار قد انقض فتباشر الناس وضجّوا بالتكبير والتهليل ، وتسابق الناس إلى الثلمة يركب بعضهم بعضا ، وكان الفرنج قد جمعوا من وراء ذلك الجدار الواقع حطبا ، فلما سقط رموا[1] به ناراً ليحموا بها أنفسهم فلما أن سقط الجدار دخلت الريح من تلك الثلمة عادت النار عليهم وأحرقت البيوت الدانية منها ، فاجتمعوا إلى الجانب البعيد منها وصاحوا : « الأمان » ، وتسلّق الناس الجدار وأطلقوا أيديهم بمن فى الحصن فقتلوا وأسروا وقيّدوا ، وجلس السلطان وأحضر (١١ب) عنده الأسارى ، فمن كان منهم مرتداً أو راميا أمر بضرب عنقه ، وكان فى الحصن من المسلمين فى الأسر نحو من مائة أسير قد جعلوهم للعمارة وقطع الحجارة ، واستبشر السلطان بما منّ الله تعالى عليه من النصر . وفرح الناس .

واتفق لسعادته أن رسول القومص كان عنده فى تلك الساعة وهو يعاين ما يجرى على أهل ملّته من البلاء والهلاك ، وكان الحر شديداً فأنتنت أشلاء القتلى ، فأمر السلطان بتسيير الباقين من الأسرى إلى دمشق ومبشراً للناس بما أتاح الله تعالى للمسلمين من الفتح والظفر ، وأقام فى مخيّمه والأموات قد جافت وقال : « لا أبرح من مكانى حتى أهدم الموضع » فقسّمه أذرعاً على الأمراء ، ولم يزل مكانه حتى كمل خرابه ، وكان قد حفر الفرنج فى أعلى التل جُبًّا واسعا وبنوه بالحجارة وأحكموه حتى نبع معينه ، فأمر [السلطان] بهدمه وطمّه ، ورجع إلى دمشق مؤيداً منصوراً .

= صلاح الدين أن جماعة من الفرسان الفرنسيين بقيادة هنرى الثانى دوق شمبانيا قد وصلوا نجدة لصليبى الشام مما حمل صلاح الدين على المبادرة للاستيلاء على الحصن
انظر أيضا Runciman, op. cit. II, p. 421. Grousset : Histoire des Croisades.

(١) فى الأصل « ارموا » .

وكان المقام على الحصن — فى أيام فتحه وبعدها — أربعة عشر يوما، وحين دخل الناس إلى دمشق مرض أكثر الناس مما أصابهم من نتن ذلك الموضع ، ومات جماعة من الأمراء .

ولما استقر السلطان بدمشق أتته التهنئة من الناس من كل مكان بفتح الحصن المذكور وما رزقه الله تعالى من النصر والظفر بالعدوّ ، وامتدحه جماعة من الشعراء ، فكان من جملتهم أبو الحسن على بن محمد الساعاتى[1] الخراسانى من أهل دمشق ، امتدحه بهذه القصيدة :

بحدّك[2] أعطاف القنا تتعطف
وطرف الأعادى دون مجدك يطرف

شهاب هدًى فى ظلمة الشك[3] ثاقب
وسيفٌ ، إذا ما هزّك الله مرهف

(١٢ ا) وقفت على حصن المخاض وإنّه
لموقف حق لا[4] يوازيه موقف

فلم يبد وجه الأرض بل حال دونه
رجال كآساد الشرى وهى تزحف[5]

---

(١) كانت وفاته فى رمضان سنة ٦٠٤ هـ بالقاهرة ، راجع ترجمته فى ابن خلكان : وفيات الاعيان ٣/٧٣ — ٧٤ ، : شذرات الذهب ابن العماد الحنبلى

(٢) ورد هذا الشطر فى ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٣/١٢ « بجدك أعطاف القنا قد تعطفت » ويلاحظ أن القصيدة اختلفت باختلاف النسخ التى ذكرتها ،انظر أباشامة : الروضتين ١١/٢ ، وابن واصل : مفرج الكروب ٨١/٢ ، انظر الحواشى التالية

(٣) «الليل » فى ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٣/١٢ ، و « الشرك » فى مفرج الكروب ٨٤/٢ ، والشطر الثانى « وسيف هدى فى طاعة الله مرهف » وارد فى الروضتين ١١/٢ ، وما ورد أعلاه بالمتن كان قد ورد فى النسخة الأصلية من مفرج الكروب ولكن الدكتور جمال الدين الشيال آثر عليه رواية الروضتين .

(٤) فى مفرج الكروب ٨٤/٢ « ما » .

(٥) فى البداية والنهاية ٢٠٣/١٢ « ترجف » .

وجرداء[1] سلهوب وردع مضاعف
وأبيض هنـــدى ولدن مثقف
وما رجعت[2] أعلامك الصفر[3] ساعة
إلى أن غدت أكبادها السود ترجف
كبا[4] من أعاليه صليب وبيعة
وشاد به دين حنيف ومصحف

ومنها :

أيسكن أوطان النبيّين عصبة
تمين لدى أيمانها وهى تحلف ؟
نصحتكموا ، والنصح فى الدين واجب .
ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف .

* * *

ذكر غارة عز الدين فرخشاه على صفد

وذلك فى ذى القعدة من السنة المذكورة :

كان عمّى عز الدين فرخشاه ذا رأى سديد وفعال حميدة، ولما أراد الله تعالى أن يذل أهل صفد بغارته تلك جمع من رجال بانياس وما حولها من الأعمال من جرت عادته بالحرب ، فصبح صفد صباح الأربعاء ثامن عشر الشهر فسبى وسلب وغنم غنيمة كبيرة ، وتوغّل عليهم فى الربض فأحرق منه مواضع شتى ، وكان قد أعجلهم عن الالتجاء إلى القلعة ، فأسر منهم جماعة وأثخن فيهم الجراح وعاد منصوراً إلى المخيمّ السلطانى .

* * *

(١) فى البداية والنهاية ، شرحه « وجود سلهوب ولدن مهفهف » .
(٢) « رفعت » فى مفرج الكروب ٨٤/٢ .
(٣) فى ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٣/١٢ « البيض ساعة الا غدت .... » م
(٤) « كنائس أغياد صليب » فى ابن كثير، شرحه .

فصل من كتاب عن السلطان إلى الرسول ببغداد فى المعنى : ورأينا أن البدار إلى الحلول بدارهم، وإحلال الخزى بهم فى تعجّل دمارهم، فرصة لفريضة الجهاد منتهزة ، وعدة من الله تعالى فى قهر (١٢ب) عداته متنجزة، وغنيمة للإسلام محرزة ، ونصرة فى أقرب أمد بأنجح أمل بعون الله موجزة، لاسيما والصوارم قد قلقت فى أغمادها ، واللهاذم قد علقت عرى اجتهادها فى جهادها ، والعزائم قد رمضت مضارب مظانها ، والسوابق قد ضمرت فى مضمارها ، شوقا إلى إخرابها ، والبيض والسمر قد اهتزت أعطافها إلى الانتشاء من طلاء الطلى ، والارتعاء فى اكلاء الكلا ، والاكتساء من النجيع القانى محمرّ الحلل والحلى ، والأسنة الأسنة قد خطبت عقائل المعاقل ، وخطبت على أعواد العوامل الذوابل، وطيور السهام المبرّية المريشة إلى أوكارها من المقل نازعة نازية، والأقدار بما تجرى به من نصرة الإسلام زاهية ، والمنايا بأمانى المغرورين من أهل الشرك هازية ، وهممنا العالية بدّين الدين متقاضية ، وإلى حاكم القضاء فى اقتضائه مقاضية، وهذه سنّة قد هبت فيها النصرة من سنتها، ومحت سيئة الليالى بحسناتها ، وبلغت نعم الله تعالى فيها منتهى منّتها ، وأظهرت فرصة الانتهاز لها آية مكنتها ، ومما يبرهن على هذا القول ، ويبهر الأنام بشكر هذا الطول ، مقدّمة فى النصر يدل على أن نتائجها الفتوح الأبكار، وباكورة فى الظفر سمح بها القدر تبشّر بأن جرت بمساعفتنا الأقدار ، وذلك أن والدنا[1] عز الدين فرخشاه — أحياه الله تعالى وأبقاه — نهض من العسكر برأس الماء فى الحاضرين بعسكرنا عنده ، واستصحب رَجّالته بانياس معه (١٣ا) وأغار على صفد بكرة الأربعاء ثامن عشر ذى القعدة عند سلخ الصباح ، « فساء[2] صباح المنذرين ، وكانوا فى مساكنهم غارّين، وبحصانتها مغترّين ، فأذن إقدامه بشت شملها ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، وسقى عطاش البيض وظماء الظبى من وِرْدِ وريدهم وروّاها ،

(١) فى الاصل « ولدنا » والارجح هو الصورة التى اثبتناها عليها فى المتن وذلك اكبارا من المؤلف لعمه وتعظيما لمكانته وانزاله اياه منزلة أبيه .

(٢) اشارة الى قوله تعالى « فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين » ، سورة الصافات ٣٧ : ١٧٧ .

وأحرق أرباضها فدمدم[1] عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها ، وأعجلهم عن الالتجاء إلى القلعة ، والاحتماء بالتلعة ، فسفح ذلك السفح دماءهم ، وسبى ذراريهم ونساءهم ، وساق أغنامهم وأبقارهم ، وخرب عليهم بل أحرق ديارهم ، وأشعل تلك الأماكن ناراً ، وأدركتها دعوة نوح « رَبِّ[2] لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّارا »، فأعاد عليهم ليلا ثانيا بمثارين : من نقع ودخان ، وأقام فيها المآتم بنكايتين: من أسر وإثخان، وعاد إلى المخيم مشكور الخيم ، موفور النعم ، ظاهر الراية ، باهر الآية ، غانم الجند ، غالب الجدّ ، كريم الظفر ، حميد الأثر ، وقد كفّ كفّ الكفر . وهد ركن النكر ، وسفرت وجوه الإسلام بهذه البشرى بشراً ، وطابت قلوب المؤمنين وطابت أرجاء الرجاء بأرج نجاحهم نشرا ، فهذه صفة صفد عند النهضة إليها ، والإشراف عليها ، فكيف والسيوف قد طاب ريّها من طبرية ، وعاينت هي وأخواتها منا البلية ، والقدس ينتظر إقدامنا ، ويستشرف اعتزامنا ، ونأمل من الله أن ينجز ميعاد نصره ، ويفتح لنا البلد الموعود بحصره ، فحينئذ نهيّء سلك الساحل وتتبدد عقوده ، ونستلخص من أيدى المشركين بعون الله تعالى حقوقه وحدوده »

* * *

وفيها (١٣ ب) توجّه أبو يعقوب يوسف[3] بن عبد المؤمن بنفسه إلى بلاد إفريقية ، ففتح قَفصَة[4] وحمل واليها[5] على بن [المعز بن] المعتز ومسعود بن زمام [أمير العرب] ورجع إلى المهدية .

* * *

---

(١) اشارة الى قوله تعالى « فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » سورة الشمس ٩١ : ١٣٥ .

(٢) قرآن كريم ، سورة نوح ٧١ : ٢٦ .

(٣) انظر وفيات الاعيان لابن خلكان ، ٦/ ١٣٠ — ١٣١ وقد جعل وفاته فى سنة ٥٨٠هـ على حين أدرجه ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ٤/٢٦٤ ممن ماتوا سنة ٥٧٨ هـ ، أما أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ٣/٦٧ فقد جعل ٥٨٦ هـ هى سنة الوفاة .

(٤) الضبط من البغدادى : مراصد الاطلاع ٣/١١١٣ وقد عرفها بأنها بلدة « صغيرة فى طرف افريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير » .

(٥) اكتفى ابن خلكان ، شرحه ، بالاشارة الى فتحه مدينة قفصة دون أن يذكر واليها ، لكن راجع هذه القصة بتفصيل أكبر فى ابن الاثير : الكامل ١١/١٩٠ — ١٩١ ، والاضافة منه .

واقعة شرف الدين قراقوش المظفرى

وفى هذه السنة[١] كان خروج شرف الدين قراقوش إلى ناحية طرابلس وحدّ نفوسة ، ووصل إلى السويقة فى اليوم الرابع من صفر من السنة المذكورة وتلقّاه أمراء ذباب[٢] حميد بن جارية وكان عظيمهم ورئيسهم المطاع ، وشكر بن ثاقب ، وبدر بن هدية ، وفرج بن منبه ، وعلى بن طلحاب ، وثائر بن روق ، وحبّوس بن جماز ، وجميع بن موسى ، ومناس بن عمرو ، وعريف بن سنان وجماعة من مقدّميهم يطول بذكرهم الكتاب ، وأقاموا وإيّاه بالسويقة عشرة أيام يستحضرون القبائل من ذباب ويستحلفونهم على الخدمة والنصح ، وسار وإياهم [حتى][٣] نزل برّ ليطن ، وهى قصور حسنة على مرحلة من السويقة فى وطأة كثيرة الزيتون وعيون الماء ، ورحل منها فنزل الطابية وأقام بها يومين ، ورحل عنها فنزل « لَبْدة »[٤] وأقام بها ثلاثة أيام ورحل عنها فنزل مسلاتة — وهى جبل إلى ناحية نفوسة — فأقام بها يوما واحداً ، ونزل منها إلى الوطا الذى لبلاط طرابلس ، وانهالت عليه دباب من كل مكان حتى صار فى خمسة ألف منهم ، ومعه من أصحابه أربعمائة فارس أتراك وأكراد وأكادش ،

---

(١) جعل ابن الاثير بداية خروج قراقوش فى سنة ٥٦٨ هـ تحت عنوان « ذكر وصول الترك الى افريقية وملكهم طرابلس وغيرها » على أنه يلاحظ أن ابن الاثير أغفل هذا الخبر الذى ذكره صاحب المضمار .

(٢) أمامها فى هامش المخطوطة العبارة التالية « بفتح الدال المهملة وتشديد البـاء الموحدة » .

(٣) غير واودة فى المخطوطة وانما أضيفت ليستقيم المعنى .

(٤) الضبط من البغدادى : مراصد الاطلاع ١١٩٦/٣ حيث عرفها بأنها مدينة بين برقة وافريقية ، وقيل بين طرابلس وجبل نفوسة : أو حصن من بنيان بالاجر والحجر ، راجع أيضا ياقوت : معجم البلدان .

وكان ناصر الدين قد جمع زغب وانحاز إلى جبل نفُوسة[1] إلى ناحية ماعرمس، وترك شرق جبـــل نفوسة خوفاً من شرف الدين ، ولم يزل شرف (١٤ ا) الدين مقيما بتلك النواحي أربعة عشر يوما ، وتقـدّم إلى وادٍ يقال له محسن فنزل فيه وقلعة أم العز مطلة عليه ، فأقام به يومين ثم ارتحل بعجلة حميد بن جارية ولزّه كثيراً فى المصاف .

وبعد أن جرى بينه وبين حميد كلام كثير من جملته أن قال له شرف الدين: « يا أمير ، إنما قصدى أن أستفسد جماعة من الأتراك الذين عند إبراهيم ويقلّ أصحابه ونقوى عليه » ، فقـال له : « يا شرف الدين ، أنا سلطان ، إن أنت أقمت ولم تتقدم علمت أنك وصاحبك متعاملان علينـا وتريد أن تصالحه وتصالح زغب ، وتـكونون كلـكم علينا يداً واحـدة » . فقال له شرف الدين : « أرحل لأجل هـذا الـكلام ، غير أنك سترى أصحابك وقد تفللوا عنك وعادوا عليك وعلينا إن جرى لنا أيسر سبب » .

وكان شرف الدين خائفا من أصحاب المبارز لئلا يخامروا ، فأراد أن يتوقف حتى يستفسد من أصحاب إبراهيم جماعة تـكون خيراً له منهم وما يبقى عليه باس ، والذى خافه وقع فيـه لأجل استعجال حميد له ، فسار بدباب ليلته ، ونزل إبراهيم وادياً يقال له أرقطين وأصبح شرف الدين بجمعه مقابلا له ، فركب العسكران ووقع المصاف ، وحملت دباب على زغب فتأخرت قليلا ، ووقف إبراهيم — وكان فى القلب — وقوفاً جيداً ، وكان عالماً بإقدام شرف الدين ، وأنه إذا حمل لا يرد رأس فرسه ، فألبس تشاهيره[2] لغلام له وأركبه فرساً كان له أشهب وتركه واقفا فى موضعه ،

---

(١) انظر عنه ياقوت : معجم البلدان ٨٠٠/٤ ، مراصد الاطلاع ١٣٨٢/٣ .

(٢) التشاهير اشرطة قد تصفر أو تكبر يزين بها صدر الحصان ، راجع
Dozy: Supp. Dict. Ar.

وحاد عن وسط الطلب[1] الذى له .

قال شرف الدين عندما وقف طلب إبراهيم وسأل عن حليته وإيش ملبوسه وعن (١٤ ب) فرسه الذى هو راكبه فعرفوه بذلك فقال لمن يثق به : « لا بد لى من إبراهيم » ، فحمل وتبعه من أصحابه أربعون فارساً إلى أن أخرق طلب إبراهيم وزعزعه عن مكانه الذى كان فيه ، ولحق صاحبَ الحصان الأشهب الذى عليه تشاهير إبراهيم ، فطعنه فأرداه عن فرسه وهو يظن أنه إبراهيم ، فلما وقع قال له : « زنهار يا خوند » ، فقال له : « ما أنت إبراهيم ؟ » ، فقال : « لا » ؛ فبصق عليه وقال : « شُهْ عليك » ، وانحرف .

وكان أصحاب المبارز سبعة نفر قد طلبوا التقفيز ، ومنعهم حضور شرف الدين معهم فى الطلب ، فلما حمل وخلا لهم الموضع قفّزوا الجمع ومن معهم مرة واحـــدة وكانوا يزيدون على مائة فارس وصاحوا : « ناصر الدين يا منصور » ، وصاروا قريباً من طلبه ، فردوا رؤوس خيولهم إلى ناحية القتال ، فتراجع أصحاب إبراهيم وهم دباب وقد قفزوا، فظنوا أن الجميع يفعلون[2] كما فعل أولئك ، فانتشرت دباب وهم فى خمسة ألف فارس وطلبتها زُعب ، فقلعت منهم جماعة ووصلوا إلى أثقال شرف الدين فانتهبوها وانتهبت معهم أيضا دباب ما قدرت عليه .

ولما رأت الأتراك ما فعلته دباب خافوا القتل : فقوم قفزوا ، وقوم أخذوا ، وصارت الكسرة على شرف الدين وعاد فلم يجد ثقلا ولا شيئا ،

---

(١) قصد بهذا اللفظ فى بداية اطلاقه الامير الذى يتولى قيادة مائتى فارس فى الحرب، ثم تطور مدلوله فأصبح يطلق على الفرقة من الجيش ، انظر Dozy: op. cit.

(٢) فى الاصل « يفعلوا كما فعلوا أولئك » .

وكان له من الأثقال شيء عظيم ، ولقد حدّثني من أثق به أن شرف الدين حلف له بالله تعالى أن الذى كان تحت ثقله لنفسه ألفا وثلاثمائة جمل ، وأما الأتراك فللواحد أربعون جملا ، وثلاثون جملا ، وأقل وأكثر .

وأما شرف الدين فإنه رجع إلى ناحية محسن ومعه (١٥ ا) مائة وأربعون فارسا من أصحابه فحسب ، كل منهم عليه درعه ولامة حربه وفرسه ، ولم يبق لواحد منهم شيء يلبسه ولا يأكله ، وبقى حميد معه ما زال ، فقال له : « يا أبا عسكر ، كيف رأيت حديثى وما فعله أصحابك وقبيلتك ؟ غدروا بنا ، وأخذوا مالنا ودوابنا ، وقد حضرت لنصرتهم » ، ولم يقدر أن يقول له أكثر من هذا ، فقال له حميد : « لقد غدر الملاعين ، والله تعالى ينتقم منهم ولا بد من دائرة تدور عليهم » . وكان حميد شجاعا بطلا فارسا متكلما موّلا ، وبات بمحسن ، فأحضر له حميد ومن كان فيه[1] من العرب من دباب ما أكلوا ، وردّ عليه إنسان خيمةً كانت لبعض أصحابه أخذها فى جملة ما أخذه فضربوها له ، وأصبح راحلاً طالبا طرابلس المدينة نفسها ، وقد ثاب إليه فى الليل من أصحابه قريب من أربعين فارسا ، وصار أصحابه يتواصلون إليه ، منهم مَن أطلقه إبراهيم ، ومنهم من كان منحازاً فوصل إليه ، ونزل على تَاجَرَةَ[2] — بلد قريب من مدينة طرابلس — فتحها وأخذها ، فنهب منها أموالاً عظيمة .

فلما رأت زعب أن أصحاب إبراهيم لا يبقى منهم أحد أشاروا عليه بأن ينفذ إلى شرف الدين ويصالحه ويعطيه شرقى نفوسة ويأخذ غربيّه ، فعلم

---

(١) أى فى جبل محسن .

(٢) فى الأصل « ماجورة » ، ويوجد أقرب لهذا الاسم كلمتان احداهما الواردة أعلاه فى المتن والتى عرفها مراصد الاطلاع ٢٤٨/١ بأنها بلدة صغيرة بالقرب من سواحل تلمسان ، أما الكلمة الاخرى فهى تاجونس وهى اسم قصر على البحر بين طرابلس وبرقة . ويوجد بلدة اسمها « تاجوزة » ولكننا لم نعثر عليها فى معاجم البلدان العربية .

أن فى ذلك المصلحة ، فنفذ إليه وراسله فى المصالحة ، ولم تزل المراسلة بينهما إلى أن استقر أن يأخذ شرف الدين مَقْرَة[1] وعربان وقلعة أم العز ويفرن وسماح ، ويكون من سماح إلى غربى نفوسة لإبراهيم ، ومهما فتح كان بينهما ، فاختلفا على ذلك ، وأطلع شرف الدين نساءه إلى قلعة (١٥ب) أم العز ، وبقيت قلعة تيركب لابراهيم ، وصار شرف الدين فى الوطا يأخذ البلاد : أخذ دوّاره وزواغة[2] ولمايه وسيرة ، فى كل واحدة منهن بلاد كبيرة ، وأقام باقى سنته فى بلاد طرابلس ، وأمنت دباب من غارة ابراهيم فصارت فى كل وقت تسرق أصحابَ شرف الدين ، ومن لقوه من الأتراك منفرداً قتلوه ، وعلم شرف الدين غدرهم ونحسهم .

وكانت زغب قد غرّبت بعد أن قالت لابراهيم : « من الرأى أن تغرّب معنا ، فإن شرف الدين فى قوّة وهو قليل الغدر ما يأخذ لك شيئا من بلادك ، وتملك فى الغرب مواضع وتأخذ أموالا ، إلى أن يتبيّن شرف الدين نحس دباب وغدرهم فيعود إلى مصالحتك والاتفاق أنت وهو ونحن ، ونخرج دباب من البلاد فأبى عليهم» ؛ فمضوا بعد أن ودّعوه وداع من لا يعود يلتقى .

فلما أحسّ شرف الدين — كما ذكروا — بغدر دباب ونحسهم وأنهم قد أمنوا من زغب وإبراهيم عزم على التغريب إلى دمّر وقطاطة وزريقا وقابس وما إلى تلك البلاد وتوجه إلى دمّر ، وذلك فى مستقبل سنة ست وسبعين . وسنذكر قصته فى مكانها إن شاء الله تعالى .

* * *

---

(١) الضبط من مراصد الاطلاع ١٢٩٩/٣، حيث عرفها بأنها مدينة بالمغرب فى برافريقية قريبة من قلعة بنى حماد بينها وبين طبنة ثمانية فراسخ .

(٢) لعلها « زغادة » التى قال ابن عبدالحق البغدادى : مراصد الاطلاع ٦٦٧/٢ فى تعريفها انها بلد فى جنوبى أفريقية والمغرب.

[و] فيها[1] عزل سليمان بن جاووش عن نيابة الوزارة ، وسبب ذلك أن أستاذ الدار أبا الفضل كان يكرهه فحسَّن للخليفة عزله وقال : « إن هذا رجل قد كبر وعجز عن التدبير للدولة ، فتقدم إليه يُستبدلَ به من شاء » ، فتقدم أستاذ الدار إلى مقرب الدين بن بختيار بإحضار أبي المظفر هبة الله بن محمد بن البخاري ، فأحضره ليلاً إلى دار الخليفة ، فبقي في الدار ثلاثة أيام (١٦ ا) ولا يعلم أحد ؛ ثم أنفذ في اليوم الثالث فأمر بعزل سليمان بن جاووش فعزل من الديوان العزيز ، وركب ابن البخاري فجلس في الديوان نائب وزارة ، وأفردت له الدار التي كانت لابن هبيرة في المطبق[2] ، فكان لا يخرج عن أوامر أستاذ الدار ولا ينفرد بأمر دونه .

* * *

وفيها تراخت الأسعار جداً ، وكثرت الأمطار ، وأخصبت البلاد ، ونمت الزروع . .

وفيها أمر الخليفة بالخلع والتشريفات على الأمراء وأرباب الدولة ، وضاعف أرزاق المماليك وغيرهم .

وفيها أمر بإخراج السرادق الشريف ، وكان سرادقا عظيما لم يعمل مثله ، وكان من الأطلس المختلف الألوان ، وأمر أن يُضرَب [السرادق] عند الكشك الجديد قريبا من الميدان ، وأن تُخْرِج الأمراء والمماليك وأرباب الدولة خيامهم فتضرب هناك ، وتقدم إلى أرباب الدولة أن يتأهبوا للركوب في الخدمة الشريفة وأن يحضروا إلى باب النصر ؛ وركب الناس لامتثال الأمر وذلك في أول شهر ربيع الأول من السنة ، وحضروا إلى باب النصر ففُتح لهم ، وخرج الخدم وتقدموا إلى الأمراء وأرباب الدولة بالدخول إلى الحرم ، وأن يكون مقامهم في « بستان الأربعين » فدخلوا وكان في جملتهم

---

(١) أي في سنة ٥٧٦ هـ .

(٢) المطبق هو السجن .

الأمير قاسم بن مهنا العلوى الحسينى : أمير مدينة الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، فخرج الخليفة وعليه جبّة بيضاء وطيلسان أبيض ، وبين يديه أستاذ الدار أبو الفضل بن الصاحب والخدم ، وبين يديه : عن يمينه وعن شماله ، فقام الناس وقبلوا الأرض وخدموا ودعوا ، وكان أولهم خدمةً جلال الدين أبو المظفر بن البخارى نائب الوزارة ، فتقدم وقبّل الأرض ثم [قبّل] الركاب الشريف ، ثم تلاه الأمراء وأرباب الدولة فخدموا ودعوا والخليفة لا يردّ على واحد منهم جهراً ولا يسمع منه منطقاً ، حتى تقدم الأمير قاسم أمير المدينة فقبل الأرض ، ثم (١٦ ب) قبل الركاب الشريف ، ثم دعا وأحسن وأبلغ فى دعائه ؛ فوقف له أمير المؤمنين ورد عليه السلام جهراً ، ورفع يده فوضعها عليه وأحسن له البشرى ، ثم مضى راكبا والناس بين يديه مشاة حتى خرج من باب النصر ، فأشار إلى أستاذ الدار أبى الفضل بالركوب فركب ، ثم ركب بعده نائب الوزارة ثم الأمراء وأرباب الدولة ، وسار فخرج إلى ظاهر بغداد إلى أن وصل إلى الميدان الذى فيه الكشك فدخل إليه ، ولم يدخل معه إلا أستاذ الدار ابن الصاحب ، ثم دخل إلى الكشك فبقى فيه ذلك اليوم وبات فيه .

فلما أصبح ركب فى الميدان وجعل يسير فيه، ثم أذن للناس من الأمراء وأرباب الدولة بالدخول إلى الميدان فدخلوا ، فكان أستاذ الدار عن يمينه ، وابن البخارى عنْ شماله .

ثم إنه خرج فى يومه ذلك إلى الصيد ومعه جماعة الأمراء والمماليك ، ولم يخرج معه من أرباب الدولة سوى أستاذ الدار ابن الصاحب ، وكان فى كل يوم يتصيّد ويرجع إلى الكشك ، فلم يزل ذلك إلى يوم الجمعة ، فتوجّه إلى جامع الرصافة لصلاة الجمعة ، وكان يوماً مشهوداً ؛ فلما قضى صلاة الجمعة — وكان الخطيبَ يومئذ أبو الفرج بن المنصورى — أمر أن تُهَيّأ له

سمارية[1] خفيفة فنزل بها وسار فى دجلة . والأمراءُ فى السماريات بين يديه يسيرون فى خدمته ، وكان [الخليفة] جالساً فى صدر السمارية فى قبة سوداء ، وأستاذ الدار قائم بين يديه وكذلك جماعة ... ... [2]

... ...

(١١٧) . [ثم] أفاض من كرمه على جميع من كان من أصحاب ابن قرا أرسلان مالم ينحصر : من مركوب وكراع وثيابٍ ومتاعٍ وغير ذلك ، وعمل والدى الملك المظفر لابن قرا أرسلان دعوة جميلة أيضاً ، وحمل له عشرة الآف دينار ، ثم عمل ناصر الدين محمد بن شيركوه : — ابنُ عم السلطان [صلاح الدين] — له دعوةً عامة ، وأفاض عليه مالاً جزيلاً ، وكذلك عمّى عز الدين فرخشاه عمل له دعوة وأوسع له العطاء ولمن كان معه ، ولم يزل السلطان هناك فى تلك الأيام يبذل الجود فى اقتناء المحامد إلى أن وصلت رسلُ قلج أرسلان بالطاعة والإذعان لما أراده السلطان من أمر نور الدين بن قرا أرسلان؛ وكان المنفذ من جانبه الأمير اختيار الدين حسن بن عفراس وكان كبيراً مقدما عند ملك الروم ، وكتب له السلطان عهداً أكد فيه الشرائط بالاتفاق فيما بينهما ، وانصرف هو وأصحابه بالتحف والخلع والتشريفات الجميلة وعاد كل منهم إلى جهته .

* * *

---

(١) السمارية هى المعروفة فى مصر بالعوامة أو الذهبية .

(٢) الظاهر أن هنا سقطا فى اللوحات؛ ذلك لأن الكلام — ابتداء من هذه اللوحة ١٧ ا — انما هو عن صلاح الدين .

ذكر دخول السلطان
الى بلد الأرمن ونزوله على حصـن العاتقر (١) وفتحه

ولما انفصل الأمر بينه وبين قلج أرسلان توجه إلى بلد الأرمن لاستئصاله ، وذلك أن متملك(٢) الأرمن ابن لاون استمال قوما من التركمان ليكونوا فى مراعى(٣) بلده وأمنهم على ذلك ، فلما استقروا لم يشعروا به إلا وقد صبحهم(٤) بغدره فأسرهم واستحوذ على أموالهم ، وكانت شكاية المسلمين قد كثرت عليه من سوء أفعاله بهم ، فرأى السلطان الأولى دخول ولايته ، فسار إليه بعساكره المنصورة وخيم على النهر (١٧ب) الأسود(٥) ، وأباحهم بلاد(٦) الأرمن ، وكان بقربه حصن القابوس ، وعلى ذلك الجبل قلعة(٧) شاهقة وهى من الحصون الحصينة والمعاقل المنيعة ، وكان الأرمنى قد أمر أهلها بالنزوح عنها وأضرمها ناراً ، فبادر الناس إلى إخراج غلاتها وإبراز مودعاتها ، فانتفع العسكر بالزاد والعلف ، وأمرهم السلطان بهدم الحصن وتخريبه فخربوه ، فما برح حتى صار عاليه سافله وعفى آثاره ، وأقام على عزم الدخول إلى بلادهم ، وأذعن ابن لاون

---

(١) من غير تنقيط فى الأصل ،وقد وردت فى أبى شامة : الروضتين ١٦/٢ برسم « المناقير » وعلى هذه الصورة الأخيرة أثبتها الدكتور جمال الدين الشيال فى نشره لابن واصل : مفرج الكروب ٩٩/٢ .

(٢) كان ملك الارمن فى ذلك الوقت ليون الثانى Leon II Roupenian وذكر ابو المحاسن فى النجوم الزاهرة ٢٧/٦ ، أن هذه البلاد هى سيس بين حلب والروم من جهة الساحل .

(٣) وذلك على حصانتها وصعوبة مضايقها كما يقول ابن خلدون فى تاريخه ٢٩٥/٥ .

(٤) تتشابه الفاظ خبر استمالة لاون للتركمان وغدره بهم فى كل من المضمار وأبى شامة : الروضتين ١٦/٢ ، س ١٤ — ١٥ .

(٥) سيسميه المؤلف بعد قليل (ص ٤٣ س ٧) باسم « كوك سو » ، وهـو المعروف باسم « كونك صو » Gunek Su ، انظرلى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٤٨ .

(٦) فى الأصل « ببلاد » .

(٧) هى القلعة التى يسميها أبو شامة فى الروضتين ١٦/٢ بالمناقير (راجع حاشية رقم (١) واكتفى ابن خلدون : تاريخ ٢٩/٥ بقوله « كان لابن ليون حصن وفيه ذخيرته » وكذلك ابن الاثير : الكامل ١٩٠/١١ ، اذ قال « فخاف ابن ليون على حصن له على رأس جبل ان يؤخذ فخربه وأحرقه » .

بالطاعة ، وأرسل بإطلاق الأسارى المسلمين من التركمان فلم يقنع منه بعد ذلك إلا بخمسمائة أسير ، فأطلق الحاضرين عنده ، ونفذ الرهائن على خلاص الباقين ، واستقر الأمر على ذلك وكتب له الأمان[١] ، وكفى الله المؤمنين القتال . وكان [هذا] من لطف الله تعالى لأن الوقت متعسر ، والقوت متعذر ، والعلف معدوم .

* * *

ذكر وفاة سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى :

ووصلنا رسول[٢] مجاهد الدين قيماز ونحن مخيمون على كوك[٣] سو من حدود الروم ، فخبر السلطان بموت سيف الدين غازى[٤] صاحب الموصل وجلوس أخيه عز الدين مسعود[٥] مكانه ، وكان الرسولَ فخرُ الدين أبو شجاع بن الدهان [البغدادى] ومعه نسخة اليمين التى حلف السلطان له بها فقال : « نسألك إبقاء أخيه على ولايته ولا تغير عليه » ، فقال له : « يميننا منوطة بأيام الحياة ، وولاية أخيه عز الدين بغير[٦] عهد منه ولا عقد ،

---

(١) كان ذلك فى جمادى الآخرة سنة ٥٧٦ هـ حسب رواية الكامل لابن الاثير ١١/١٩٠، أما ابن واصل : مفرج الكروب ٢/١٠٠ فقد حدده بالعاشر من جمادى الاولى .

(٢) هو الشيخ الفقيه فخر الدين أبو شجاع بن الدهان البغدادى كما سيرد بعد قليل ، انظر أيضا ابن خلكان : وفيات الاعيان .

(٣) راجع الحاشية رقم ٥ ص ٤٢ .

(٤) كانت وفاته بالسل فى الثالث من صفر سنة ٥٧٦ هـ بعد حكم دام عشر سنوات وثلاثة أشهر ، راجع الكامل لابن الاثير ١١/١٨٨ ، والباهر ص ١٨٠ ، ومفرج الكروب ٢/٩٢ ، وابن خلكان ، والشذرات .

(٥) فيما يتعلق بالظروف التى أحاطت باختيار عز الدين مسعود ولاية الموصل ، راجع ابن الاثير : الباهر ، ص ١٨١ .

(٦) هذا يخالف رواية ابن الاثير فى الكامل ١١/١٨٩ ، وفى الباهر ص ١٨١ ، اذ يشير الى أن سيف الدين غازى عهد بالملك لاخيه عز الدين « لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النفس » ، راجع أيضا ابن واصل : مفرج الكروب ٢/١٩٣ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٦/٢٨ .

ونحن نرى رأينا فيما نعتمده بعد مطالعة[١] الديوان فى ذلك » . وأعاد الرسولَ بالإكرام ، وشرع فى العود إلى الشام .

ثم رحل السلطان بالنصر والظفر وسار على أعمال حلب ؛ وكان وصوله إلى أعمال حماة فى النصف(١٨ا) الأول من جمادى الآخرة من السنة ، ثم رحل من أرض حماة متوجها إلى حمص ، فضرب مخيمه على عاصيها بالقرب منها ، وجاءته رسل الأطراف والجوانب بالتهنئة له بما رزقه الله تعالى من النصر ، وجاءه العلماء والفقهاء والشعراء يهنئونه ويمتدحونه فكان فى جملتهم الفقيه المهذب ابن أسعد الموصلى ، وكان غزير الفضل وافر العلم ، وكان السلطان كلما عبر حمص أمر له بمائة دينار مصرية وخلعة وعمامة ، فيما مدح السلطان به قصيدة[٢] مستحسنة مطلعها :

أما وجفونك المرضى الصحاح
وسكرة مقلتيك وأنت صاحى

وما فى فيك من بَرَد وشهد
وفى خديك من ورد وراح

لقد أصبحتُ فى العشاق فردًا
كما أصبحتَ فردًا فى الملاح

فما أسلو هواك بنهى ناهٍ
ولا أهوى سواك لِلَحْىِ لاحى

ولا فلّ الملام غرار غيّى
ولا ثلم العتاب شبا جماحى

أما للائمين عليك عقل
فيشتغلوا بعشاق القباح

---

(١) أرسل صلاح الدين المطالعة بهذا الشأن لصديقه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ وهى من انشاء العماد ، وقد أورد بعضا منها أبو شامة فى الروضتين ٢/١٧ .

(٢) أورد أبو شامة ، الروضتين ؛ ٢/١٦ — ١٧ منها ثمانية عشر بيتا فقط .

أطعتُ هوى الملاح طوال دهرى
ومن يُطع الهوى يَعصِ المُلاحى
فياسقمى بــذى طرفٍ سقيم
ويا قلقى من القلق الوشاح
يهزّ الغصن فوق نقاً ويَرنو
بحدّ ظُباً ويبسم عن أقاحى
مليح الوجه معشوق المراح
وحلو اللفظ معسول المزاح
يحبّ الراح رائحة بكأسٍ
ويهوى الكأسَ كاسيةً براح
(١٨ب) وقد غرس القضيب على كثيبٍ
فأثمر بالظلام وبالصباح
ومال مع الوشاة ولاعجيب
لغصنٍ أن يميل مع الرياح
ألام على افتضاحى فيه لكن
يقيم عذارُه عذرَ افتضاحى
أليس لحاظه جرحتْ فؤادى
فلا برئت ولا اندملت جراحى
إذا مازاد تعذيبى وهجرى
يزيد إليه شوقى وارتياحى
وكم يهواه من عانٍ مُعَنّىً
يبيت يخاف إطـلاق السراح
وليلةَ زارنى بعــد ازورارٍ
على حكمى عليــه واقتراحى

فبتنا لا الدنو من الدنايا
نراه ، ولا الجنوح من الجناح
يُديرُ كؤوس فيه ومقلتيه
فيسكرنى عن السكر المباح
وكانت ليلةً لاحوب فيها
علىّ ولا اجتراء على اجتراح
وما من شيمتى خلعى عذارى
ولا لبْس الخلاعة من مراحى
قطعنا الليل فى عتب وشكوى
إلى أن قيل : « حىَّ على الفلاح »
ولاح الصبح يحكى فى سناه
صلاحَ الدين يوسف ذا الصلاح
هو الملك الذى أورى زنادى
وفازت عند رؤيته قداحى
يقرّب جوده أقصى الأمانى
ويضمن بشره أسنى النّجاح
ومبسوط — بنائله — يداه
إذا انقبضت به أيدى الشّحاح
ولما ضاق حدٌ عن مداه
لقيناه بآمال فساح
(١١٩) فمَن هرم وكعب وابن سعد :
رعاةُ الشاة والنعم المراح ؟
جواد بالبلاد وما حوته
إذا جادوا بألبان اللقاح

وأبلج يستهين الموت ، يلقى
بصفحة وجهه بيض الصفاح
ويخشى من دنو العـــار فيه
ولايخشى من الأجـــل المتاح
وقوال — إذا الأبطال فرّتْ — :
« مكانَك ثبتةً ، ما من بَرَاح »
بباس مذهلِ الأُسْدِ الضوارى
وَسَيْب مخجلٍ سيل البطاح
فللاّحين والراجين منـــه
أعز حمىً وأكرم مستماح
من النفر الذين إذا تجلوا
أعادو الليل أحلى من صباح
أضاء الدّهر بعد دجاه نورٌ
يلوح على وجوههمو الصبّاح
تفيض بطون راحتهم نوالاً
ويستلم الملوك ظهـــور راح
إذا ما لاقوا الأعـــداء عادوا
بآى النصر والظفر الصراح
بأرماح محطمة ، وبيـــضٍ
مثلمّةٍ ، وأعراض صحاح
ليُفيد حياءَ وجهك كلُّ وجه —
إذا سُئلَ الندى — جهم وقاح
ملوك جلّهم مغـــرى بظلم
ومشغول بلهـــو أو مزاح

إذا ماجالت الأبطال ولّى
ويقدم نحو جائلة الوشاح

يرى الإنفاق فى الخيرات خسراً
وأنتَ تراه من خير الرباح

همو جمعوا ، وقد فرّقْتَ لكن
جمعتَ به الرجال مع السلاح

(١٩ب) وبون بين مالك بيت مالٍ
ومالك رقّ أملاك النواحى

وباغ أن ينال[1] بــلا رجال
كباغ أن يطير بــلا جناح

قرنت شجاعة وتقًى وعلماً
إلى كرم الخلائق والسماح

وقد أثنت عليك ظُبى المواضى
كما تثنى بألسنة فصــاح

وكم ذلت من ملك عزيز
وكم دوّختَ من حيٍّ لقاح

وكم لظباك من يوم اغتباق
من الأعداء أو يوم اصطباح

تبيح حمى الملوك وتستبيه
وما تحميه : ليس بمستباح

وما خضع الفرنج لديك حتّى
رأوا مالا يطاق من الكفاح

(١) فى الأصل « يدال » .

وما سألوك عقد الصلح ودّا
ولكن خوف معلمة رداح
ملأت بلادهم — سهلاً وحزناً —
أسوداً تحت غابات الرماح
على معتادة جوب الموامى
دواحٍ بالملا بيض الأداحى
ألا ياسيل مخجل كل سيل
تظل المحجرات له صواحى
وياغيث البلاد إذا اقشعرّت
وضنّ الغيث فى شهرى قاح
تركتُ بنى الزمان ولم أسلْهم
ولم أر أهله أهل امتداحى
وقلتُ للاغبات العيش : روحى
إلى باب ابن أيوبٍ تراحى
ولم أُنكِح لئيما بنت فكر
وإنكاح اللئام من السفاح
وقد جاءتك يا كفواً كفيا
تُزف إليك طالبة امتياح
(١٢٠) وقد صادفت بحر ندى فراتاً
فما طلبى لأوشال ملاح
سألتك أن تجود جديب حالى
فأمرع مرتعى واخضرّ ساحى
ولولا جود كفّك كل حين
يروّى غُلتى وجوى التياحى

بقيتُ[1] مدى الزمان حليف فقر
خميصا عارياً ظمآن ضاحى
وما أشكو الزمان وأنت فيه
وإن أصبحت مقصوص[2] الجناح
فقد ضاعت علوم طال فيها
غدوّى ، واستمر لها رواحى
أرى المتقدمين اليوم دونى
فيؤلمنى خمـــولى واطراحى
وأشجى من ضياع العمر حتى
أغص ببارد الماء القراح
وأعجب من صروف الدهر حتى
أكاد أقول : « مازمنى بصاحى »
أيظهر فى السماء ضحىً سهاها
ويخـــفى وهى طالعة براح
عسى نعماك تسكنى دمشقاً
وذاك — لكل مالقيتُ — ماحى
أعيش معاشر العلماء عمرى
وأرباب المحابر والسماح
بقيتَ منعماً أبداً وأضحى
عداك بكل ضاحية أضاحى

ثم إن السلطان أقام بحمص إلى آخر جمادى الآخرة ، وتوجه إلى دمشق فكان دخوله فى أول رجب .

* * *

(١) هذا البيت جواب للبيت السابق ، وينقص دخول اللام على أوله .
(٢) « مخصوص » فى الأصل .

ذكر وصول رسل الخلافة الإمامية الناصرة لدين الله

وكان وصول الرسول من دار الخلافة المكرمة صدر الدين شيخ الشيوخ أبي القاسم عبد الرحيم ومعه شهاب الدين بشير الخادم الخاص إلى دمشق في شهر (٢٠ب) رجب بعد أيام من قدوم السلطان ومعه التفويض[١] والتقليد[٢] والتشريف، وكان وصوله إلى دمشق كيوم عيد، فتلقاه السلطان بالتعظيم والتبجيل وترجل له وأبدى الخضوع، وترجل عند ذلك شيخ الشيوخ وبشير الخاص، وسلما عليه من أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — فقبل الأرض ثم ركبوا ودخلوا دمشق، فأنزله السلطان أكرم منزل، وركب ثاني يوم وصوله بموكبه وعليه الملابس النبوية والتشريفات الإمامية، وكان قد عزم على قصد الديار المصرية، فحسن لشيخ الشيوخ مصاحبته ورغبه في زيارة الشافعي رضوان الله عليه، فمضى في صحبته إلى مصر للزيارة، وتوجهنا إلى مكة — شرفها الله تعالى، وذلك بعد ماسير السلطان في جواب رسالته إلى الديوان العزيز ضياء الدين الشهرزوري صحبة شهاب الدين بشير.

* * *

فصـــل

من الكتاب السلطاني إلى الديوان العزيز المنفذ على يد ضياء الدين وذلك بعد استيفاء أقسام الخدمة الإمامية:

«.... قد سبقت مطالعته بما انتهى إليه من أداء الفرض، وتقبيل الأرض، والإفاضة في شكر ما أفيض عليه من التشريفات التي اسحبته ذيل الفخار، وأصحبته الشرف السامي المنار، وأحظته بالإيثار، وحضته على العبودية الحميدة الآثار، المأمونة العثار، وما أسعده وقد خص برسالة الجانب المحروس الصدري شيخ الشيوخ شرقاً وغرباً، وسفارته التي زادها وجه

---

(١) اى أن يفوض السلطان اليه أمر سروج والرها واروة وحران والخابور ونصيبين.

(٢) التقليد هنا بمعنى الرسوم بتولية شأن من شئون الدولة . اما فيما يتعلق بالخلعة التى كانت اول خلعة يقدمها الخليفة الناصر لصلاح الدين فراجع ابا شامة : الروضتين ١٩/٢ .

استبشاره سفوراً ، وأمد استظهاره واستنصاره قوةً وظهوراً ، وطرف استبصاره ضياءً ونوراً ، فإنه (١٢١) وإن كان قد تناهى فى العبودية إلى مدى لا مزيد عليه لمستزيد ، ولامطمع فى توقّل هضباته لمريد ، غير أنه بالوفود الصدرى ارتفع قدره ، وانشرح صدره ، ونظم فى سلك الأبرار أمره ، وسر سره ، ونصر نصره ، وتوالى لما أولاه مولانا الإمام من مقدم مثله عليه شكره ، وأطلعه على أسباب فى الإخلاص ما تجد سوى الخادم لها أهلا ، وعاد ببركة قدومه كل صعب سهلا ، وأصبح أمله منه بعبء النجح مستقلا ، واستجلى بغرّته المباركة عزة البركة ، واستحلى لعزة قدومه الميمون عزة المملكة ، وقد توجه الخادم إلى الديار المصرية لتجديد النظر فيها ، وترتيب مصالحها وتوخيها .

ومنه :

« وقد ندب القاضى ضياء الدين [الشهر زورى] ينوب عنه فى رفع الأدعية والقيام بشرائط العبودية ، وقرر معه من أسباب الخلوص وأسرار العموم والخصوص ، ما ينهيه ، وينتهى إلى غاية الحد فيه » .

* * *

ذكر رحيل السلطان الى مصر

ولما تمّ عزمه على قصد الديار المصرية خصّ عمى عز الدين فرخشاه[1] بالنيابة عنه فى الشام ، وقلّده أمر الأجناد وولاية الأعمال ، وأمر والدى الملك المظفر بالرجوع إلى حماة وملازمة ثغرها والنظر فى أمورها وترتيب أحوالها ، وكان خروجه من دمشق يوم الاثنين ثامن [عشر][2] شهر الله

(١) انظر ابن واصل : مفرج الكروب ١٠١/٢ ، ويعزو ابن الاثير : الكامل ١٩١/١١ سبب عزم صلاح الدين على السير الى مصر ما بلغه من وفاة أخيه شمس الدولة توارنشاه ابن أيوب بالاسكندرية ، وكان قد أخذها اقطاعا منه .

(٢) فى الاصل « ثامن شهر رجب » فقط ، والتصحيح بناء على ما ورد فى ابن واصل : مفرج الكروب ١٠١/٢ ، والمقريزى : السلوك ، ٧١/١ ، ويستدل من عبارة لابن الاثير ١٩١/١١ على أن مسيرته اليها كانت فى شعبان وليس فى رجب .

الأصب رجب ، ووصوله إلى القاهرة يوم الخميس ثالث عشر شعبان ، واستقبله مَن بها من العساكر والأكابر ، وكان نائبه بها يومئذ أخوه[1] الملك العادل ، وأقام السلطان بمصر مشتغلا بمصالح الدين والدولة والجلوس فى دار العدل يومى الإثنين والخميس لتشييد منار (٢١ ب) الحق وتفريج الكرب وإسداء المعروف وكشف المظالم ، فلم يزل بمصر إلى آخر السنة المذكورة .

وفيها عاد السيد أبو يعقوب إلى مراكش وذلك فى أواخرها .

* * *

واقعة (٢) قراقوش المظفرى فى هذه السنة

وفيها توجّه شرف الدين قراقوش إلى دمّر ورزيقا وقابس وذلك بعدما نفّذ إلى إبراهيم ، وجدّد فيما بينهما اليمين والمواثيق بأنه لا يغدر أحد منهما بصاحبه وقال : « تركت هذه البلاد وأهلى بقلعة أم العزّ فى وديعتك وأنا متوجّه ، فإن فتح الله تعالى علىَّ واستغنيت عنها أعطيتك الجميع » ، وسار فوصل إلى دمّر وكان بها مقدّم سلطان يقال له « عثمان » ، وله قلعة منيعة وبلاد كثيرة فاستولى على البلاد كلها ، وبقى عثمان فى القلعة فلم يقدر عليها ، وكان بدمر إنسان مقدّم يسمى « فروخا » له قلعة ليست[3] بالحصينة وكان عدوًّا لعثمان ، فوصل إلى شرف الدين وأطاعه وحالفه ، وعلم عثمان بذلك فقامت قيامته ، وخرج من قلعته يستنفر البربر ويقول لهم : « إنما هؤلاء الغزّ قافلة » . فلما سمع شرف الدين بخروج عثمان من قلعته

---

(١) وهو سيف الدين ابو بكر بن ايوب .

(٢) لم يذكر ابن الأثير هذا الخبر .

(٣) فى الاصل « ليس » .

وإبعاده عنها قال : « إن لم أدرك الفرصة منها الآن ما أعود أقدر عليها » ، فرحل من الموضع الذى كان فيه واستقبل طريقها ، فلما وصلها أخذ ربضها من ساعته وأطلق يده بالقتل ، فقتل من البربر الذين بها مازادت عدته على ألفى رجل ؛ وكان سكان هذا الجبل وجبل نفوسة ومطماطة وزنزفا وملاقه ومقرة وعربان ، وكلهم خوارج يلعنون علياً عليه السلام .

ولما رآى (١٢٢ ا) أهل القلعة ما حلّ بأهل الربض من القتل والنهب ارتاعوا واعتقدوا أن لا منجا لهم ، وكانوا غير خبراء بحفظ القلاع ، فراسلوه على أنهم يأمنون على أنفسهم وأموالهم فأمنهم ، وانتهز الفرصة فى يومهم وما جاء الليل [حتى][1] خرجوا من القلعة بما قدروا عليه ، وأطلقوا جملة من خيلهم ومتاعهم ، وبقى الثقل من الغلة والأثاث ، فأخذ منه ما قدر عليه وبقيت القلعة فى يده .

وسمع عثمان ما جرى فى قلعته وربضها فضاقت عليه الأرض ، وما كان له سبيل إلا مراسلة شرف الدين قراقوش وسؤا له العفو عنه ، وأن يكون غلاماً له ، وأن يكون الجبل كله فى طاعته ؛ فأمنه وأعاده إلى قلعته وخلع عليه ، وأحضر له أهل الجبل من أطاعه منهم واستحلفه على الطاعة ، وأعطى البلاد الأجناد إقطاعات ، وسار به إلى مابقى من القلاع العاصية ، فنزل على قلعة العطش وهى قلعة عجيبة ، حكى لى بعض أصحابى ممن أثق به بعد ما أقسم بالله أنه ما رأى بالشام قلعة أعلى منها ولا أحصن ، فنزل تحتها ، وهى عالية جدا لا يصل إليها النشاب ، فأقام تحتها ثمانية عشر يوما لايقاتلها لأنها لا تقاتل ، فاتفق فى اليوم التاسع عشر أن إنساناً من عبيد شرف الدين تحيّل وتسلق فى الجبل الذى عليه القلعة ، ولم يزل يتسلق من موضع إلى موضع إلى أن قارب سورها ، واختبى تحت قلاعة لا يصل إليه حجر لأن النشاب عندهم قليل ،

---

(١) غير واردة بالأصل وقد أضيفت ليستقيم المعنى .

فلما رأى الناس ذلك العبد قد تسلق انهالوا فى دفعة واحدة وصعدوا الجبل كما صعد [العبد] فصار عنده جماعة ، وما كان نصر أهل القلعة كون أولئك صاروا فى ذلك الموضع إلا أن الله تعالى خذلهم ، فلما شاهد من بالقلعة أولئك نادوا (٢٢ ب) وطلبوا الأمان ، فقطع عليهم قطيعة أعطوه مبلغها وأبقاهم على حالهم فى قلعتهم بعد أن استحلفهم على الطاعة ، وأقطع عملها الأجناد ، ورحل عنها إلى قلعة يقال لها « أم لامة » فنزل قريبا منها وهى فى الحصانة على حالة لا يقدر الإنسان عليها ، فأقام تحتها مدة شهر وهو لا يقدر على قتالها ، بل يغنم الأجناد من البلاد وينهبون الضياع ويأخذون البربر يقتلونهم بالسيف والدخان فى المغاير ، وكان صاحب هذه القلعة له نسب متصل بمناية – قبيل من البربر – فى جبل من جبال قفصة يزيدون[٢] على عشرين ألف راجل ، فنفذ إليهم واستمرت كتبه إليهم يستدعيهم ، فوصلوا بعد هذه المدة .

وأصبحوا فى باكر يومهم ينسلون من كل حدب من الجبل ، فرأى شرف الدين وأصحابه ما نالهم من كثرة البربر ، وكانت الطرقات التى ينزلون منها من الجبل كلها وعرة ، ولم يكن بها طريق سهل إلا طريق واحدة تقدر الخيل على الركض فيها والصعود فيها ، فاستقبلها شرف الدين بجماعة ممن معه ، وبقى جماعة فى الخيم قائمين لحفظها ولم يكن بالعاجز إلى أن وصل إلى تلك الطريق ، وقصد من كان بها نازلا فانهزموا طالعين من حيث كانوا نزلوا ، فلحق منهم جماعة قتلهم هو وأصحابه ، وأخذوا عشرين رجلا أسرى ، وكان من الأسارى صبى أمرد مليح الصورة عليه شعر طويل كثيف ، وجاء إلى الخيمة وقد انهزم كل من جاء من الرجالة من كل طريق نزلوا منها بانهزام من هزمه شرف الدين من الطريق السهلة ، فلما وقف

---

(١) يقصد من يمت منهم له بالنسب من هذه القبيلة .

تحت القلعة — [وقد] أشرف أهلها منها عليهم كلهم من ناحية الخيم — قال الأمير جندار : « أقتل واحداً واحداً » ، فلم يزل يقتل واحداً واحداً إلى أن قدم الصبي الأمرد وهو مع ذلك يضحك غير مكترث بالقتل ، فصاح أهل (١٢٣) القلعة : « أمسكوا عن قتله » ، ونزل واحد من القلعة وقال لشرف الدين : « نحن نفتدي هذا منك بعشرة ألف دينار » فقال شرف الدين: «ما أفعل » ، فبلّغه إلى عشرين ألف دينار فقال : « ما أفعل » ، ثم قال لأمير جندار : « اضرب عنقه » فصاحوا من القلعة : « لا تفعل ؛ نحن نفتديه بما تريد » ، فقال : «لا سبيل إلى تركه» ، ثم ضربه أمير جندار ضربة أبان بها رأسه عن جسده ، فما استتم قتل الباقين إلا وقد نزل من القلعة شيخ أحسن ما يكون بين الشيوخ وجاء إلى شرف الدين وقال : « هذه مفاتيح هذه القلعة خذها ، بارك الله لك فيها فأنا صاحبها » ؛ فعجب شرف الدين من ذلك وما أعطى أمانا ولا قولاً ، فلم يكن شرف الدين بالعاجز أن نفذ في فوره من قبل أن يتقصّى من الشيخ ماسبب ذلك ؛ [فجاء][1] من أصحابه مائة رجل طلعوا إلى القلعة وحين صاروا بها أنزلوا من كان فيها وأغلقوا بابها وكان بها ذخائر عظيمة .

ثم إن شرف الدين أحضر الشيخ وتقصّى منه بعد ذلك وقال له : « يا شيخ : ما السبب الذي أوجب أن تعطي هذه القلعة التي ما يقدر عليها أحد من غير عهد ولا أمان ؟ » ؛ فقال : إن في قصتي عجبا ، هذا الشاب الأمرد الذي قتلته : ولدي ؛ وما كان لي ولد غيره . وكان بينه وبين أولاد أخي معاداة وكنت أوثر أن تكون هذه القلعة له ، فلما قتلته

---

(١) أضيفت هذه الكلمة ليستقيم الاسلوب .

علمت أنني إن تركت القلعة فى يدى وأصابنى الموت أخذها أولاد أخى بعد ولدى، وما آثرت ذلك، وآثرت أن أمنعهم من ذلك بعده وسلمتها إليك»، فرق له شرف الدين عند ذلك وقال: «لو أعلم هذا ما قتلته».

وأخذ شرف الدين منها أموالا وذخائر عظيمة، ورحل عنها بعد ماسلمها للشيخ واستحلفه أنه متى(٢٣ ب) طلبها وسير إليه من يكون فيها سلمها إليه، وتوجه [شرف الدين] إلى قلعة حسن فنزل عليها أياما ولم يقدر منها على شىء، وكان أهلها ينزلون فيقاتلون فى الوطا، فرحل عنها ومضى إلى ناحية جهة مطاطة ونازلها، وهى بلد ما بين قابس وقفصة، وإلى قابس أقرب مقدار نصف نهار فنزل عليها وقاتلها أياما.

* * *

ودخلت سنة سبع وسبعين وخمس مائة:

فيها نقل المستضىء — قدس الله روحه — من الدار التى كان مدفونا فيها إلى الدار العتيقة لبعض الجهات غربى دجلة من بغداد عند رأس الجسر مجاورة لجامع فخر الدولة بن المطلب، وكانت العادة أن يدفن الخلفاء بمقابر قريش بالمحلة المعروفة بالرصافة، إلا المستضىء — رضوان الله عليه — فإنه ذكر عنه أنه أوصى بذلك، وقيل إن الإمام الناصر لدين الله — صلوات الله عليه — اختار هذه الحال لأجل خريدة أمير المؤمنين لئلا تبعد عليها زيارته ولا تجد من بدله بعد الطريق فاختار ذلك لقربه، وأقام للموضع فراشين وبوابين فلا يقدر أحد على الدخول لزيارته إلا بإذن، وأوقف عليه وقوفاً كثيرة وجعل لتربته الراتب من الشموع والوظائف من المخزن الشريف، وعمل على ضريحه صندوقاً من الساج وغرم عليه مبلغاً من المال.

ولما أراد الخليفة ــ أيّد الله دولته ــ حمل الإمام المستضىء بأمر الله من الدار التى كان مدفوناً بها إلى التربة المذكورة فى الجانب الغربى من بغداد أمر بأن تهيأ السفينة المعروفة بالزبزب وقد غرم عليها مالا جزيلا ، [وهى] عجيبة الصنعة يجدف بها ملاحون عدة ، جماعة منهم يجدفون فى الهوى[1] من مؤخرها ، وجماعة يجدفون فى الماء (١٢٤ا) من صدرها ، فبرز الأمر النبوى بحضور أرباب الدولة وأهل العلم والصوفية والقراء وأشراف الناس على طبقاتهم لتحويل الأمام السعيد المستضىء بأمر الله ، فحضر الناس واكترى كل واحد منهم سفينة على قدر وسعه ، وأخذوا من الشموع مالا يحصى حصرا ولاعدة فأشعل فى تلك الليلة ، فكان الشط بأسره من كلا جانبيه لايرى فيه موضع خال إلا وفيه سفينة أو سمارية يزحم بعضها بعضا ، فكانت الدجلة تتقد من الجانبين كشعلة نار من كثرة الشموع التى أشعلت فى تلك الليلة ، وكان الناس قياما فى أماكنهم ، والقراء يقرءون القرآن ، وأهل بغداد من الجانبين لايحصى عدتهم إلا الله تعالى ، بحيث لم يتخلف عن الخروج فى تلك الليلة إلا من هو عاجز لم يقدر على الخروج .

وكان أستاذ الدار أبو الفضل بن الصاحب هو المباشر لهذه الحال والمرتب لها ، فنقل رضوان الله عليه ودفن باقى ليلته ، وأحضرت الربعات فكان الناس يقرءون ويختمون ، والعلماء يعظون ــ واحد بعد واحد ــ إلى أن مضت ثلاثة أيام بلياليهن وهم فى التربة المذكورة ، فلما كان اليوم الثالث ــ آخرة نهاره ــ حضر عماد الدين صندل الخادم الخاص وتقدم إلى الناس بالانكفاء ، فتفرقوا .

* * *

(١) فى هامش المخطوطة : « أى فيه مجاديف الهوى فى مؤخرة السفينة » .

وفى هذه السنة تقدم الناصر لدين الله بنقض السفينة المذكورة المعروفة بالزبزب وقال : «لا حاجة أن تكون هذه بالدجلة بإزاء التاج الشريف لترقب من يموت يُحمل بها ، وإنى كلما رأيتها تكدرت علىّ الحياة ، وإذا مت ما يُتعذّر أن يعمل مثلها » ، فأمر بنقضها فنقضت ، وكان قد غرم عليها أموالاً عظيمة وكانت من أحسن السفن المركوبة، وكان إذا ورد إلى بغداد سلطان (٢٤ب) وتغلّب على دار الخلافة وأراد الحضور إلى الخدمة فلا يركب إلى التاج الشريف إلاّ فى هذه السفينة .

* * *

ذكر ما جرى وتجدد للملك الناصر صلاح الدين من الأحوال بمصر والشام

ودخلت سنة سبع وسبعين [وخمسمائة] والسلطان مقيم بالقاهرة مواظب[1] على ترتيب أحوال الديار المصرية ، ناشر للعدل فى الرعية ، باذل لمعروفه وما يسديه من مكارم أخلاقه لقاصديه ، إذ وصلته الأخبار بما تجدّد فى الشام من موت الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود .

* * *

ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب

قد سبق قولنا من قبل فى ذكر الملك الصالح اسمعيل بن محمود بن زنكى وما آل إليه أمره بعد وفاة أبيه من سوء تدبير مدّبريه، فحين وصل السلطان من مصر إلى الشام لما وصله من اختلال الثغور وأراد إصلاحه وأن يضمّه

---

(١) فى الأصل : « مواظبا » .

إليه فصدّه عن ذلك بعض(١) مماليك أبيه ، وظهر منه التأبى فأخذت(٢) بلاده بلجاجهم ، واقتنع بحلب ولم يزل يُحَكّم المسئولين عليه إلى أن قضى نحبه ، فأسرع ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى حلب فاستولى على خزائنه ، وعلم أنه لا يستقر له بها أمر ، فرغّب أخاه عماد الدين زنكى صاحب سنجار فى تعويضها له بحلب ، فتسلّمها وسلّم سنجار إليه .

ولما سمع السلطان بمصر بوفاة الملك الصالح وبلغه ما جرى بعد وفاته ندم على البعد عن الشام ، وشرع فى التوجه من مصر إلى الشام ، فكتب إلى والدى الملك الظفر — رضوان (١٢٥) الله عليه — كتابا ، وكنا حينئذ بحماة وما يجرى معها من الأعمال والولايات ، يأمره بالتأهب(٣) والنهوض بعسكره ويعرفه أنه سيدركه إن شاء الله تعالى ، وكان نائبه بدمشق عمى عز الدين فرخشاه قد نهض إلى الكرك فى مقابلة الإبرنس(٤) بها ، وكان يحدّث نفسه أن يقصد « تيماء » فى البرية ، وأعدّ لذلك الأزواد والروايا ، فعرف السلطان اشتغاله بتلك الجهة .

وكتب أيضا كتابا إلى الأمير معين الدين عبد الرحمن بن أنر صاحب الراوندان(٥) يأمره أن يكون فى مساعدة والدى وتحت رأيه ومعاضدته ، وكان ذلك فى العشر الآخر من شعبان من السنة . مصدّره : « صدرت هذه

---

(١) فى الأصل : « بعد » .

(٢) عبارة : « فأخذت بلاده بلجاجهم » هى نفس عبارة العماد التى أوردها أبو شامة فى الروضتين ٢/٢٣ س ٤ .

(٣) عبارة « بالتأهب والنهوض بعسكره » هى نفس عبارة ابن واصل فى مفرج الكروب ٢/١١٠ س ٨ .

(٤) هو رينو دى شاتيون Reginald de Chatillon المعروف فى المراجع العربية باسم « ارناط » ، راجع Grousset: Histoire de Croisades, t. II, Runciman: op. cit.

(٥) عرفها مراصد الاطلاع ٢/٥٩٨ بأنها قلعة حصينة وكورة مشجرة من نواحى حلب.

المكاتبة إلى حضرة الأمير ونعم الله عندنا وارفة الظلال ، وافرة النوال ، سائغة الزلال ، سابغة الأذيال ، فائضة المنال ، رابضة فى حمى الاستقامة والاعتدال ، مستزادة منا بالشكر على المزيد ، مستدامة فى تأييدها على التأييد ، والحمد لله على ذلك حمدا يؤمن شمل نظامه من التبديد ، ويؤذن لمنهج نهج حدته بالتحديد ، وعندنا من الارتياح إلى بهجته ، واجتلاء أنوار غرّته ، ما يشهد به ضميره الكريم ، والله سبحانه هو الشهيد العليم ، والاجتماع — بحمد الله — قد قرب بعيده ، وقصر متطاول أمده ومديده ، والتدانى لكل ماجنته يد التنائى كاف ، والشفاء المقدر لكل مختل ومعتل مسدّد وورد الاعتداد به بحمد الله صاف ، ورداء الالتحاف بالاحتفال لمودته ضاف ، وقد عرف ما تجدد من وفاة صاحب حلب ، وهى ولايتنا (٢٥ب) التى لا تثنى عنها عنان الطلب ، فإنها فى تقليدنا من أمير المومنين صلوات الله عليه ، وما تركناها للملك الصالح بعد التصرف فيها وحصول حصونها ومعاقلها فى أيدينا إلا رعاية لحقوق أبيه ، ورغبةً فيه ، ولا مانع الآن عنها من يمين معقودة ، ولا عدة معهودة ، وقد وفينا للمتوفى بعهده ، وأرجأنا اليوم معه الأمر إلى غده ، والآن فقد سفر لنا وجه الحق وبان ، ودنا لنا مصعبه وأصحب ودان ، وولدنا تقى الدين هناك بالقرب وعساكرنا جارية على حكمه ، معذوقة عزائمنا بماضى عزمه ، فلتكن أيديكم متساعدة متعاضدة ، ونياتكم وعزماتكم على التعاون متعاقدة ، والقلوب واحدة ، والعساكر فى استخلاص الحق مترادفة متوافدة ، والأمير أولى من توفر برأيه الصائب وعزمه الثاقب على هذا الأمر المهم ، وجرى من مألوف نفقته ومعهود مناصحته على الرسم ، ونحن واصلون بعون الله تعالى على الأثر بالنصر والظفر ، والعديد الأوفر ، والعتاد الأكثر ، وقادمون فى همة ، وعساكر جمة ، ومضاء عزمه ، لا عائق لما بلغت وجوه اللهاذم ، ولا مانع بحمد الله يجلى عن وردها ظماء الصوارم ، ومعين الدين أوفى معين ، وأندى يمين ، وأروى وأعذب معين ، وأقرب قرين ، وأشجع ليث عرين ، فلينهض بنفسه وعسكره ، ويوثق فى هذا المقام حسن أثره ، ويعمل عمل المرء لنفسه ، وينتصف ليومه من أمسه .

ذكر مكاتبة سلطانية الى مجد الدين ابن الصاحب استاذ دار الخلافة المعظمة يصف فيها بلاءه فى الاسلام وجهاده ونصيحته للدولة العباسية ، ويذكر فيها غدر المواصلة ومن تقدمهم .

ذكرنا ذلك مختصرا ، نسختها :

(١٢٦ ا) « أدام الله إقبال سامى مجلس الصاحب وأندى سعاداته ، وأيّد بالنجح إراداته ، وحلّى بالمكارم والمحامد سجاياه وعاداته ، وأنجز بنصرٍ أولياءه وكبت عداته ، ولا زالت أمداد الزيادة له والسعادة نامية ، وآمادُ عزّه فى سماء مجده مترامية ، وأعين مناوئيه فى مناره عن الطموح إلى ذرى فخاره متغاشية متعامية ، وديم الكرم فى فضاء فضائله من سماء سماحه هامرة هامية ؛ ما سفر وجه وتوجّه سفر ، وقدّر أمر ، وقد أمر بعد ما أصدر مملوك الدار العزيزة — ثبت الله قواعد مجدها ، وشدّ بعرى النصر معاقد سعدها — مطالعاته التى أعرب فيها عن صاحب الموصل وأنه قد طمع فى حلب وطمح إليها ، ومدّ عين التعدّى بالاحتواء عليها ، وأنه نكث الأيمان المبرمة ونقضها ، وترك المراقبة التى فرضها الله بأن رفضها ، فإن حلب وأعمالها داخلة فى ولايتنا دخولاً يشهد به المثال ، وينطق بحقه المنشور العال[1] ، الموقع له من مقر العظمة والجلال ، بلغه أنه بلغ الفرات وقطعه ، قاطعاً لما أمر الله به أن يوصل من العهد وجسر على عبور جسره بل خسر ، حيث جاوز حدّ التعدى بتعدّى الحدّ ، ووصل إلى حلب مترديا حلف الخلاف ، متنكباً طريق الإنصاف ، وقد أحوجته قلة عسكره إلى الاستكثار بمن فى البلد من الأجناد والأشباه من رعية البلاد ، هذا وذوو التميز وأهل الرأى والمشورة من أمراء العسكر الحلبى لم يرضوا ولم يرفعوا به راسا ، وما ازدادوا به إلاّ استيحاشاً لا استئناسا ، ومن حلف لهم حيث أكرهوه حلف على المقام إن طابت نفسه بخدمته أو مفارقته إلينا والانحياز عن

(١) أى « العالى » .

جهته ، ومن هؤلاء الأمراء من هو أحماهم (٢٦ ب) حقيقة واحقهم حمية، وآباهم نفسا ، وأنفسهم آبية من فارقه متاركا ، وشاققه مباكتا ، وذهب مغاضبا، وتحيّز إلى جانبنا وأعرض عنه جانبا ، ووصل إلى نوابنا بالشام متوسلا إلينا لنفسه بآرائه وآرابه ، ورسولاء عمن وراءه من رفقائه وأصحابه ، وشاع[1] أيضاً أن عسكر حلب أغار على الراوندان ، وهى أحد ما فى عملنا ، وتصرفنا له ولولايته شامل ، ورسولهم عند الفرنج يستنجدهم فى شغلنا ويغريهم ، ويبذل لهم الرغبات ويضريهم ، وقد راسل الحشيشية والمراد من الرسالة غير خاف ، والعلم بالمعتاد منها كاف[2] ، وما تهيّأ للمذكور الوصول إلى حلب إلا بسبب غيبة ابن أخينا فى أقصى بلاد الفرنج فى أول برية الحجاز ، وقد نهض إليهم بالعسكر معترضاً لهم فى المجاز ، فإن طاغيتهم[3] جمع خيله ورجله ، واستعمل[4] فى الاستكثار من الزاد والآلات والعدد منته وجهله ، وحدثته نفسه الخبيثة بقصد تيماء وهى دهليز المدينة — على ساكنها السلام — واغتنم كون المدينة[5] مخصبة فى هذا العام[6] فقفى ابن أخينا أثره ، وأخذ عليه مورده ومصدره ، وعارض بالعسكر المنصور عدوه المخذول وعسكره ، وذلك بعد أن أمضى عزمه ، وأنضى ركابه وجهده ، ومنع الكافر المخذول وصدّ قصده ، ولم يعلم بوفاة ولد نور الدين رحمه الله إلا بعد عودته من نهضته ، وقد حسن بحمد الله أثر عزمته ، واستنقذ بركة وجهه فى غزوته ؛ ولم يشكّ هو ولا غيره أن صاحب

---

(١) من هنا يبدأ نص الكتاب الوارد فى ابن واصل : مفرج الكروب ١١٠/٢ — ١١٢ مع تبديل ضئيل فى بعض الكلمات لا يخرج موضوع الكتاب عن مضمونه فى كليهما .

(٢) وردت أجزاء من هذه الكاتبة فى أبى شامة : الروضتين ، ٢٣/٢ ولكن على غير هذا الترتيب .

(٣) يقصد بذلك رينودى شاتيون .

(٤) عبارة « واستعمل ... وجهله » فى السطر التالى غير واردة فى ابن واصل : مفرج الكروب ١١٠/٢ .

(٥) « البرية » فى مفرج الكروب ١١٠/٢ .

(٦) من هنا حتى كلمة « الغدر » ص٦٤ س ٢ غير واردة فى مفرج الكروب ١١٠/٢

الموصل لا يتعرّض للبلاد لأمرين : أحدهما أنه لا يتصرّف إلا على الأوامر الشريفة المطاعة التى تأمر بالوفاء وتنهى عن الغدر ، والآخر أنه لا ينقض يميناً ليس فى نقضها وجه من (٢٧ ا) الغدر ، والعجب أننا نحامى عن قبر النبى صلى الله عليه وسلم مشتغلين بهمة ، والمذكور (١) ينازع فى ولاية هى لنا ليأخذها بيد ظلمه ، وكم بين من يحارب الكفر ويحمل إليهم قواصم الآجال ، وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين ويحمل إليهم كرائم الأموال(٢) ، وبين بعيد من دار الخلافة المعظمة يفترض الطاعة ، ويستفرغ فى مراضيها الاستطاعة. ولا يحل ولا يعقد إلا بمراشدها ، ولا يقوم ولا يعقد ، إلا بمراصدها ولا يصدر ولا يورد إلا عن مصادرها ومواردها ، وبين آخر يدعى أنه أقرب جيرانها ولا يمت بل لا يموت إلا بعصيانها ، ويخطب لأهل الخلاف على الخلافة ويجهر بأسمائها ، وينشر فى ولايته راية أعدائها ، وكل يعمل على شاكلة أسلافه ، فهو يمرى بيد المراء — كعادتهم العادية — أخلاف أحلافه ، ونحن لا نتدين إلا بطاعة الإمام ، ولا نرى ذلك إلا من أركان الإسلام ، هذا مع ما نُعدّ فى الملة الحنيفية والدولة الهادية العباسية مما لا يعد مثله. أولا لأبى مسلم لأنه أقدم ثم ضام (٣) ، وأمال ثم ألام ، ووالى ثم ولىّ ، وجلّ وجلا ثم أخلّ وأخلى ، ولا [يعدّ] آخراً لطغرلبك فإنه نصر ونصب ، ثم حجر وحجب ، وقد عرف ما فضلنا الله تعالى به عليهما (٤) فى نصر الدولة ، وقطع من كان ينازع الخلافة رداءها ، وإساغته الغصّة التى ذخر الله لا ساغته فى سبقه بنا إياها ،

---

(١) يقصد بذلك صاحب الموصل ، راجع الروضتين ٢٣/٢ .

(٢) من هنا حتى كلمة « الاسلام » هنا ص ٦٤ س ١٣ غير وارد فى صورتها بمفرج الكروب ١١١/٢ .

(٣) «خامر» فى الروضتين ، وقد صححه على هذه الصورة مفرج الكروب ١١١/٢ ، وقد وردت فى نسخة من كتاب أورده أبو شامة ، شرحه ٢٣/٢ — ٢٤ على الصورة التالية : « والخادم — والحمد لله — يعدد سوابقه فى الاسلام والدولة العباسية لا يعدها أولية فى مسلم لانه والى ثم وارى ، ولا طفر لبك لانه بصر ثم حجر » .

(٤) اى على ابى مسلم الخراسانى وطغرلبك .

وتطهير المنابر من رجس الأدعياء[1] ، وإطلاع أنوار السمات كاشفة ظلم تلك الأسماء ، وإنارة صباح الهدى بعد امتداد رواق الضلالة المدلهمة الظلماء ، ولم نفعل ما فعلناه لأجل الدنيا ، فلا معنى للاعتداد بما الجزاء عنه بالحسنى متوقع فى العقبى ، غير أن التحدث (٢٧ب) بنعمة الله واجب ، والتبجح بالخدمة الشريفة والافتخار بالتوفيق لها على السجية غالب . ولاغنى عن بروز الأوامر الشريفة إلى المذكور بأن يلزم حده ، ولا يتجاوز حقه ، فلاولاية له من خليفة يقترن به بهاء المضاء ، ولاوراثة له فى أرض الله ، فإن الأرض[2] لله يورثها من يشاء ، فإن أطاع وأناب ، ورجع عن الخطأ وعاود الصواب ، وترك الحق لأهله ، وأخذ الوفاء فى سلوك سبله وإلا فما قصدنا إلا أن نقاتله وهو لأمر الخلافة المعظمة مخالف ونحن طائعون ، والمشار إليه متصامم ونحن سامعون ، وكفى بالمحق نصرة أنه على الرشد الكامل ، وبالمبطل خذلاناً أنه طالب للباطل » .

فصل منه :

« هذا ومابنا — بحمد الله — قصور عن أن نصده عن قصده ، ونرديه ثوب العجز برده ؛ ونكيل له بصاعه ، ونعثره فى عثير إسراعه ، ونحسم داءه وإن أعضل مرضاً ، ونرميه بسهام من عند الله تعالى لا تقبل غيره غرضاً ، ولا شك أن التجارب يحيره ، والإدبار يصحبه فيما يدبره ، وقد طالع الديوان العزيز بطبه مستشفياً ، ولشرح قصته مستوفياً ، ولعذره فى جميع الأحوال مبلياً ، ولا غناء عن نظره السامى ليكون للمراد متولياً ، ولراية الحق معليا ، لازال لذخائر الحمد مقتنياً ، ولقواعد المجد متبنياً ، ورأيه أسمى إن شاء الله تعالى » .

---

(١) يقصد بذلك ازالة الخلافة الفاطمية .

(٢) اشارة الى قوله تعالى فى القرآن الكريم « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » سورة الاعراف ٧ : ١٢٨ .

ذكر مسير سيف الاسلام ظهر الدين طغتكين (١) الى اليمن

وذلك لما كان يجرى بين الأمير [عز الدين] عثمان بن الزنجارى[٢] والى عدن وبين الأمير حطان [بن منقذ الكنانى] والى زبيد من الفتن والأمور التى تكون معها عاقبتها[٣] إلى فساد الدول (١٢٨) ، فأحضر السلطان أخاه سيف الإسلام طغتكين ، وقرر معه أيمضى إلى اليمن وينظر فى أمور بلادها ويتولاها ، ويولى ويعزل ويستبدل ، فسار إلى اليمن ، فحين علم به حطان خاف منه وأوى إلى بعض الحصون فتحصن منه واستكن منه ، ومازال يمنيه ويرغبه فى الولاية بين يديه ، وحطان يسأل الإذن بالمضى إلى الشام فأذن له ، فجمع حطان جميع أمواله وذخائره من ذهب وفضة وجواهر ويواقيت وآلات وعدد وخيول عراب ، وأمر غلمانه أن تأتى بالجمال ، فحملها جميع الأموال وظن أنه ينجو بذلك ، وركب ليسير بماله إلى الشام فأمر برده إليه ليودعه ، فلما دخل إليه اعتقله وسير وراء ماله وخزانته وأثقاله من ردها إليه فاستولى عليها ، ثم أنفذه إلى بعض المعاقل فحبسه ثم قتله[٤] .

وفيما ذكر للسلطان من خبر ماله وذهبه مايغنى عن تفاصيل ، جملته : نيف وسبعون غلافا من غلف الزرد وكانت مملوءة بالذهب الأحمر ، وقوم المأخوذ بألف ألف دينار .

---

(١) كان وفاته سنة ٥٩٣ هـ ، راجع ذيل الروضتين ، ص ١١ .

(٢) غير منقطة فى الاصل ، وفى نسخة ابن الاثير : الكامل ١٩٢/١١ « الزنجبيلى » .

(٣) تفسير ذلك عند ابن خلدون : تاريخ ٢٩٦/٥ أنه لما وقعت الفتنة بين حطان وعثمان خشى صلاح الدين أن تخرج اليمن عن طاعته.

(٤) يختلف هذا الخبر اختلافا كبيرا عما ورد فى ابن الاثير : الكامل ١٩٢/١١ اذ المذكور فيه أن صلاح الدين انفذ الى اليمن جماعة من أمرائه ، منهم صارم الدين قتلغ بيه ، ولم يرد لطغتيكن اشارة ، كما أن ابن الاثير يشير الى أن امارة زبيد عادت الى حطان بعد موت قتلغ بيه .

وأما الأمير عثمان الزنجارى فإنه لما سمع بسيف الإسلام [ظهير الدين طغتكين] تجهز إلى الشام وفارق اليمن .

* * *

ذكر البطسة الفرنجية الواقعة الى بحر دمياط والظفر بها ، وذلك بعد غدر من الفرنج فى أواخر السنة المذكورة .

كان السلطان قد عقد هدنة مع الفرنج فنكثوا قبل انقضائها تعرضا للفتنة ، وجرى عند ذلك من الاتفاقات الحسنة أن بطسة عظيمة من المراكب الفرنجية مقفلة من بلد لهم يقال له «بوليه» تحتوى على ألفين وخمس مائة نفس من رجالهم (٢٨ب) وأبطالهم وأتباعهم وهم على قصد زيارة القدس ، فألقتهم الريح إلى ثغر دمياط ، فغرق منهم شطرهم وسلم الباقون ، فأسروا جميعا ، فحصل فى الأسر منهم ألف وستمائة وسبعون نفسا[1] ، فذل لتلك الواقعة جانب الكفر ، واتفق ذلك أمام اهتمام السلطان بالمسير إلى الشام لما جرى فيه من الاختلال بموت صاحب حلب وغدر صاحب الموصل ، وتجهز بعساكره المنصورة لقصده ، ووافق ذلك دخول سنة ثمان وسبعين [وخمسمائة] وسنذكر الحادثة فيها إن شاء الله تعالى .

* * *

واقعة (٢) شرف الدين قراقوش المظفرى فى هذه السنة

ولما دخلت سنة سبع وسبعين رحل شرف الدين عن جهة مطماطة ومضى

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير ١٢/٣١٠ ، وقد ذكر ابوشامة فى الروضتين ٢/٢٧ ان عددهم كان يبلغ ١٦٧٦ .

(٢) اكتفى ابن كثير : البداية والنهاية١٢/٣٠ بالاشارة الى حركة قراقوش المظفرى بافريقية فذكرها فى سطر ونصف فقط وكذلك ابو شامة : الروضتين ٢/٢٧ س ٥ — ٧ ، ولكن ابن الاثير لم يشر مطلقا لهذه الحملة .

إلى إفريقية ونزل على اربس[1] وهى مدينة عظيمة وقد اجتمع معه جماعة من العرب من مرداس ومن الرجالة، وأقام عليها أياما وعمل عليها منجنيقا فلم يقدر عليها، ورحل عنها إلى سوبيريه ولم ينزل عليها بل أغار على بلادها، وترددت إغاراته على اربس وبلادها وما حولها أشهراً، وجعل يرحل من موضع إلى موضع لأنها كانت أيام الربيع إلى أن انقضى الربيع وجاء الصيف، فرحل وأوغل فى بلاد إفريقية وانتهب منها ما قدر عليه، وغنم أصحابه الغنيمة العظيمة، وعاد إلى قفصة بمكاتبة كانت من بعض شيوخها إليه، وواعده ليلة بعينها لأن الموحدين كانوا قد أخذوها من بنى الربد فى سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وأهلها كثير وفيها من أصحاب ابن عبد المؤمن جماعة، فوصل إليها فى الليلة التى واعده (١٢٩) الشيخ على شرقتها فما تهيأ له ذلك بل عمل السلاليم التى أعدها للشرفة، وطلع أصحابه فشعر بهم الموحدون وجاءوا إليهم فأنزلوهم أشد إنزال، وكان الشيخ على السور فأخذه معه وقبض عليه وقيده وترك فى رقبته[2] غلا، ورحل عن قفصة، فلما أبعد عنها أطلقه وقال له: «عملت بك ما عملت خشية عليك حتى لا يقال عنك إنك عاملت على المدينة فتقتل، وأنا بعد — إن شاء الله — أرجوك فى وقت غير هذا»، وعاهده ومضى.

وطالت مدة إقامة شرف الدين يتردد بافريقية، وانقطع خبره الصحيح عن ناصر الدين ابراهيم، ووصلته أخبار سارة[3] بأن قراقوش هلك فسارع فى النزول على قلعة أم العز وحاصرها، وكانت خالية من الرجال وإنما كان فيها النسوان ومعهم الحسام البقش — أحد أصحاب شرف الدين وثقاته — ومعه

(١) هكذا فى الأصل.

(٢) فى الأصل «قبضته» ثم كتب الناسخ فوقها دون أن يشطبها «رقبته».

(٣) فى الأصل «شادة» وواقع الحال يقتضى ما أثبتناه بالمتن.

نفر قليل ، فلم يزل حتى أخذ القلعة، وأخذ جميع ما كان فيها من ذخائر شرف الدين وأمواله، وأخرج النسوان منها ، ووكل عليهن وعلى الحسام البقش، وتركهم فى موضع .

واتفق أن شرف الدين عند رحيله عن أم لامة توجه إلى بلد القيروان ونزل على موضع يقال له « السكة » فى أواخر سنة سبع ، ونصب عليها منجنيقا وقاتله ، وكان معه من العرب سليم الشريد فى قريب من ألف فارس ، وقد وصله حميد بن جارية فى هذه السنة فى مائتى فارس، وترك قبيلته لما استضعفوه واستهانوه، فلم يشعروا فى أول النهار إلا والحرب قد قامت بين حميد والشريد ، وكان الشريد أكثر من حميد فوقعت حمية قراقوش لحميد فنفذ عسكرا[1] عوناً لحميد ، فلمـــا شعرت مشايخ الشريد بذلك ارتحلت عنه وتركته وحميد ، فما بعدوا إلا وعسكر الموحدين فيهم أحد (٢٩ ب) أولاد عبد المؤمن يقال له أبو موسى فى نحو من عشرة ألف فارس وعشرة ألف راجل ، وما عند شرف الدين قراقوش خبر منهم حتى أطل العسكر من ناحية الجبل ونزل الوطاء فندم على مفارقة الشريد ، ونفذ يستصرخهم فعادوا إليه خيالة من غير أهل وتركوا أهلهم (و) مضوا الحالهم ووصلوا إليه وقالوا « ياشرف الدين ياسلطان ، نحن لك على ما تحب ، إن طردتنا نزحنا وإن استدنيتنا[2] حضرنا » ، وشال العسكر أثقاله وبقى المنجنيق : ولز وصول العسكر والناس يقولون : « ياخوند أطلنا العسكر » وهو يقول : « والله ماأروح إلا بالمنجنيق » ولم يزل حتى رفعه على الجمال ، وضرب لمقدم عسكر الموحدين خيمة واحدة ، ووقف العسكر بأسره ، فسئل بعد ذلك عن الخيمة ما كان سبب ضربها فقالوا : « نزل السيد يلبس فيها لامة حربه»

---

(١) بعدها فى الأصل « الى الشريد » .

(٢) فى الأصل « استند بتنا » .

ونفذ شرف الدين الشهاب ابن المقدم وجعله مقدما على الشاليشية ، وأراد أن يبصر كيف حرب الموحدين ، وطمعوا فيهم ، فرموا منهم جماعة وأتوا بخيولهم إلى شرف الدين ، فزاد الطمع ، ونفذ العرب الشريد وذباب وأصحاب حميد ، فصار الجميع قريبا من ألف وخمسمائة فارس ، ووقع الطراد بينهم وطمعوا فى الموحدين ونفذوا إلى شرف الدين أن يقدم إليهم .

وكان شرف الدين قد نفذ الثقل وأوصله إلى رجائل العرب ، وعاد ومعه ثلاثمائة فارس ، فأطل على القتال وحمل حملة واحدة بمن معه ومن كان تقدمه ، فانكسر الموحدون وراحت عليهم الكسرة ولازال الطراد فيهم والأخذ إلى مدينة القيروان ، فدخلها السيد أبو موسى مقدم العسكر ، وعاد شرف الدين ظافراً وغنم عسكره وأسروا جماعة من المقدمين ، فكان ممن أسر ابن مثنى صاحب ديوان افريقية والقاضى ابن (١٣٠ أ) ماسكة قاضى إفريقية وجماعة كبيرة ، منهم من فدى نفسه بخمسة ألف دينار وستة ألف دينار إلى ألف ، وأما ابن المثنى فإنه كان قد أخذه بعض العرب يسمى نعيم ، فنفذ إليه شرف الدين أخذه وأعطاه ألفى دينار وتركه فى خيمة ، فترددت الرسائل بينهما فى الفداء ، فقطع على نفسه خمسة وستين ألف دينار عيناً وبأربعين ألف متاعاً من عمل سوسة والمهدية ، ومابات شرف الدين فى تلك الليلة التى كانت الكسرة فى يومها حتى أخذ « السكة » التى كان يحاصرها لاستسلام أهلها ، وقطع عليه عشرين ألف دينار فرحل عنها وقطع القيروان ، ونزل بينها وبين المهدية على بلد يسمى لودر ، فلم يزل عليها إلى أن استوفى ما كان قطعه على ابن مثنى وأطلقه من هناك .

ومن أعجب الأشياء أن بعض الأتراك أخذ قماشاً فى الكسرة فكان لكاتب السيد أبى موسى ، فوجد فيها أوراقاً وكتباً من الأطراف ، ووجد فيه كتابا وقد وصل من قابس إلى السيد يذكر فيه أن إبراهيم نزل على أم العز وأخذها وأنزل نساء قراقوش منها لما بعد عهده بخبره ، فدخل على شرف

الدين من ذلك أمر عظيم، وما كان بد له من العود إلى بلاد طرابلس لأجل ما سمعه عن إبراهيم ، فعاد مظفراً قد كسر الموحدين وغنم هو وأصحابه الغنيمة العظيمة ، واتفق فى طريقه بزغب الذين كانوا يكونون مع ابراهيم، فتراسل وإياهم وحضر إليه أمراؤهم ، وقد تقدمت أسماؤهم فتحالف معهم ، وكان حميد فارقه عندما نزل بالجهة وسار إلى قبيلته وكانوا بنواحى هراره ، وكانت رعب على موضع يقال له رديف ، (وهو) موضع مليح من عمل قابس واقع فيما بينها وبين جبلى مطماطه وقلعة حسن ، فلما اتفق ما بين شرف الدين وبين زغب فرج عنهم (٣٠ب) لأن ذباب عندها غدر عظيم ومكر وخداع ، وزغب عندها وفاء ومحبة فى الأتراك ، لأن ذبابا أعداؤهم وهم خلق كثير يكون فى خمسة ألف فارس، وزغب ماتزيد على ألف ومائتى فارس ، إلا أن زغب عندهم شجاعة وفروسية وإن كان فى ذباب كذلك إلا أن زغب إذا كانت مع الغز لا يقابلها ، أحد ، وسار شرف الدين وهم معه إلى بلاد طرابلس فوصلها ، وسمع به إبراهيم وتحقق رجوعه فقامت قيامته.
ولم يكن شرف الدين عاجزا ولا متوانيا فى أمره ، إذ سارع إلى الجبل : جبل نفوسه وطلع إلى إبراهيم من عقبة يقال لها مكردمين ، وسار إلى جادوا فما استطاع إبراهيم أن يقاتله ، فترك البلاد ونزل إلى قلعته «تنزلت»، وتحصن بها ، ونزل عليه شرف الدين وهى قلعة لا تقاتل لأنها نائية فى وسط وادٍ عظيم لا يقدر أحد على الطلوع إليها ولا القتال ، إلا أن بعض الجبال التى حولها تشرف عليها ، فجاء شرف الدين إلى ذلك الجبل ونصب عليه منجنيقاً ورمى به فما وصل إليها ، فطول سهمه ورمى به فلم يصل إليها بل زاد على الأول ، فتحيّل فى سهم طويل وضرب به فوقع حجره فى وسط القلعة، فما قدر إبراهيم أن يقيم وطلب الأمان ، وخرج حاجبه جمال الدين وطلب أماناً لإبراهيم ، فشرط عليه أن يتوجه إلى طرابلس ينزل فيها فى مركب إلى الديار المصرية ، فتوقف شرف الدين عليه فى الأمان وقال : « ما آخذه إلا أسيراً ، هذا الغادر الماكر » ، فلم يزل الأتراك يسألون فيه إلى أن أعطاه

يده وحلف له برأس الملك المظفر أنه لا يضره ، فخرج فى ليلته ولم يجتمع به ، وسيره مع ستين فارساً إلى مدينة طرابلس ، فوصلها ودخلها .

وكان صاحبها ابن مطروح عبد المجيد(١) مطيعاً لابن عبد المؤمن (١٣١) صاحب المغرب ، فلما اجتمع به إبراهيم حسّن له التوجه إلى ابن عبد المؤمن وسفّره فى مركب إلى تونس وكان فيها والٍ يقال له عبد الواحد فتلقاه ملقّى حسناً وأعطاه مالا كثيراً وجهزه وسيّره إلى مراكش ، وكان صاحبها ابن عبد المؤمن يوسف إذ ذاك ، وملك قراقوش ما كان بيد إبراهيم وأضافه إلى ما كان فى يده ، ولما أحس حميد بن جارية مقدَّم ذباب بأن قراقوش قد حالف زغب قامت قيامته وأخذ فى عداوته ، وصارت ذباب تقتل من لقيت من الأجناد وتغار على جمالهم فى مراعيها وتأخذ قوافلهم ، فقضى ذلك أن شرف الدين أظهر عداوة حميد ونفذ إليه : « إن أردت صداقتى فترُدّ ما أخذته قبيلتك » ، فقال حميد : « لا قدرة لى على ذلك » ، فقال له شرف الدين : « انعزل عنهم بمن أطاعك » فأبى .
وعلمت ذباب بإظهار العداوة لشرف الدين فصارت كلها طوعاً له ، وكانت ذباب إذا رأت حميداً قد عادى ملكا أطاعته ، وإذا صادق ملكا بغضته .

وعلمت الشريد بعداوة شرف الدين وذباب فانحازت إليه وحالفته مع زغب وكذلك عوف حالفته .

وكانت سليم كلها — التى بطرابلس — إذا جاء لذباب عدو انحازت إليه ، لأن ذباب أبداً كثيرة الأذى لسليم لكثرتها ، وسأذكر واقعته فى موضعها من سنة ثمان [وسبعين وخمسمائة] إن شاء الله تعالى .

* * *

(١) فى الأصل « عبد المحيط » والتصويب من أبى شامة : الروضتين ٢/٣٨ .

سنة ثمان وسبعين وخمس مائة

فيها برز الأمر الشريف بأن لا يستخدم فى الديوان كتاب النصارى ولا أحد من أهل الذمة وكانوا يُستخدمون فى الديوان وفى المخزن لاستيفاء الأموال ورفع الحساب من قبل ، فلما ولى الإمام الناصر لدين الله — صلوات الله عليه — رأى أن فى ذلك (٣١ ب) إذلالاً للمسلمين ، فوقّع إلى أستاذ الدار أمين الصاحب يقول له : « إن الله تعالى نفى أن يكون للكافر على المسلم سبيل ، وفى استخدام أهل الكتاب إهانة للمسلمين ، فلا يستخدم أحد فى شىء من الأعمال ورتّبْ عوضهم من يصلح من المسلمين » ، فكتب إليه أستاذ الدار : « إن هذه الحال تحتاج إلى التأمل فى حال من يُرتّب ، وفى الصبر على هؤلاء للكتاب إلى أن يؤخذ ماعندهم من أصول الأموال بحيث لا يعلمون ؛ ولعلهم إن علموا أسقطوا كثيراً من حقوق الديوان » ، فوقّع إليه [الناصر لدين الله] : « ما إلى هذا سبيل ولو ذهب أصل بيت المال ولا يبقى أحد من الكفار فى شىء من الأعمال » ، فأخرج جميع من كان بخدمة الديوان من أهل الكتاب كأولاد النظام وغيرهم من النصارى من أولاد زطينا وابن الأشقر كاتب ديوان العرض ، وشفع ابن البخارى نائب الوزارة بابن الأشقر كاتب ديوان العرض ليبقى على حالته ، وذكر أنه ثقة عفيف ، فوقع الخليفة : « هذا ابن الأشقر مات ما الذى يصنع بعده فى ديوان العرض » فتقدم بإخراجه من الديوان بعد أن عرض[1] عليه الإسلام فأبى ، وكان له ولد فدخل إلى ابن البخارى

---

(١) دابت نسخة هذه المخطوطة على كتابة « أعرض » بمعنى « عرض » وستصحح فيما يلى دون الاشارة الى خطأ الناسخ .

وهو جالس فى الديوان فى ملأ من الناس وقال : « يا مولانا ، أنا رجل قد رغبت فى دين الإسلام لأجل خدمة أمير المؤمنين ، وأنا أشهد ألاَّ إله إلا الله وأن محمداً رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن كل دين غير الإسلام باطل » ؛ فأشار إليه ابن البخارى بالجلوس فجلس ، ثم كتب إلى الخليفة بصورة الحال ، فوقع [الخليفة] إليه :

« إنما منعنا من استخدام الكفار لأجل كفرهم، فمن أسلم يعاد إلى خدمته؛ وهذا يخلع عليه ويستخدم فى ديوان العرض عوضاً عن أبيه ، ويقال لكل من صرفنا من خدمتنا إن أحب الدخول فى (١٣٢) الإسلام فيعاد إلى خدمته ويُشرَّف ، ومن لم يفعل لا يمكن من خدمة تتعلق بنا ، والسلام » . وانحسمت المادة فى ذلك ، وكانت هذه معدودة من مكارم أخلاق أمير المؤمنين الناصر لدين الله لأنه لم يسبق إليها ولم يعتمدها سواه .

* * *

وفيها تقدم الأمر بالقبض على كمال الدين أبى مفضل بن الوزير الفرج بن رئيس الرؤساء ، وحمل إلى دار الخفاش فى التاج العتيق ، وطلبت منه أموال جمة فلم يعترف بشىء ، وأخذ ما كان فى داره من المال فكان مقداره عشرين ألف دينار ؛ وأخذت من داره خزانة من الكتب النفيسة فبيعت بمبالغ ، وتولى بيعها أبو السعادات الوكيل ابن الناقد ، وتكررت المطالبة لابن رئيس الرؤساء بالمال وهو يدافع عن ذلك، وكان أستاذ الدار ابن الصاحب يزرى عليه ويعادى بيته قديما وحديثا ، وكان يخاف منه لأنه كان رجلاً جباراً عارفاً بأحوال الملك وتدبيره ، وكان قد نشأ فى دار الخلافة حاكما ، وكان أبوه الوزير مع شيخوخته يتدبر برأيه مع صغر سنه ، فتقدم أستاذ الدار إلى عبد الملك النائب — وكان قد عرف بالظلم والقساوة لأنه منذ نشأ فى

باب النوبى يخدم بين يدى الحجاب — أن يتولى أمره وعذابه فتركه فى مطمورة ، وكان يضربه من رأسها بطوابيق القرميد حتى هلك ، فعرف الخليفة بموته فقيل له إنه كان به ذرب وكثر عليه فمات ، فتقدم بأن يرمى فى دجلة ليلا ، فرمى ولم يعلم به إلى مدة .

وكان موته أعظم الأمور على أهل بيته لأنه كان يخاف منه ، وتطرق الأذى إلى بيت رئيس الرؤساء ودخل[1] عليهم الأذى ، وتبرجت نساؤهم بعد الخدر . وتزوجت إحدى بنات كمال الدين برجل يعرف بابن ملك ، كان جنديا[2] وتصوف ، بعد أن كانت مسماه على ابن قطب الدين قايماز (٣٢ب) وفسخ أبوها النكاح وقال : « ليس هذا بكفء » ، ثم تناهت الحال بهذا البيت وأهله إلى أن صاروا من أدون الناس حالا ؛ وكان أهل بغداد إذا شاهدوا واحداً من نسائهم أو صبيانهم يقولون . . « سبحان مزيل النعم » ، ويذكرون قدم هذا البيت .

وكان أستاذ الدار يتتبع جميع من كان من أنساب هذا البيت وأقاربه والمتعلقين به ماعدا عز الدين أبا منصور بن رئيس الرؤساء ، فإنه كان يقربه ويحضره عنده ويكلفه ذكر أهله ، ويوقع فى نفس الخليفة أنهم يبغضونه من زمن .

وفيها تقدم[3] أمير المؤمنين الناصر لدين الله — صلى الله عليه — بختان ولديه : ولىّ العهد أبى نصر محمد والأمير أبى جعفر على أعزّ الله أنصارهما ، فأمر بحضور أرباب الدولة وجماعة من الأمراء الخواص ومن

---

(١) فى الاصل « ودخلت » .

(٢) فى الاصل « جندى » .

(٣) أمامها فى الهامش عبارة « ختان ولدى الخليفة الناصر لدين الله » .

جرت عادته حضور دار الخلافة وأمر بحضور المغنين والمطربين وأصحاب الملاهي ، وتقدم بعمل خوان غرم عليه مال جزيل لا يحصره عد ولا وصف لكثرته وما صنع عليه ، وبقى الناس على ما هم عليه من الفرح والسرور والطرب سبعة أيام بلياليهن ، فلما كان في اليوم السابع أمر بالخلع والتشريفات، فأول من خلع عليه مجد الدين أبو الفضل ابن الصاحب ، خلع عليه جبة أطلس بقطي ومقيار مسمط بذهب عراقي وأعطى سيفاً مذهباً ، واعتقد الناس أنها خلعة الوزارة، وجعل الناس يترقبون ركوبه فركب ودخل إلى الدار العزيزة على جاري عادته . ثم خلع على جماعة الأمراء وأرباب الدولة ، وحضر للتهنئة جماعة من الشعراء والفضلاء ومنهم الأجل أمين الدولة جمال الكتاب أبو الفتح محمد بن عبد الله الكاتب سبط التعاويذي ، فقال يمدحه ويهنئه بختان ولديه : أبي نصر وأبي جعفر :

(١٣٣) ختان جرى باليمن والنجح طائره
موارده محمـــــــودة ومصادره
قضت بتباشير السرور صدوره
ونيل المنى أعجازه وأواخره
بطالع سعد لا تغيب نجومه
وزائن حظ لا تغيب بشائره
فيالك من يوم تكامل حسنه
فرقت حواشيه وراقت مناظره
حوى شرفاً يبقى على الدهر ذكره
إذا فنيت أدواره وأعاصره
يتيه على الأيام فضلا وسؤدداً
فلو فاخرته أفحمتها مفاخره

أفيض على الدنيا به ثوب بهجة
فأمست عليها ضافيات حبايره
ففى كل قلب غبطة تستفزه
ونشوة شكر من سرور تخامره
لقد سفك الإسلام فيه وحكمه
دماً جل أن يلقى ثرى الأرض قاطره
ولولا أمير المؤمنين وإنه
بإيثاره فى طاعة الله هادره
لخرّت على الترب السماء وزلزلت
رواسيه إجلالا وغيضت زواخره
أيقضى على وتر سليل خلافه
كتائبه[1] من حوله وعساكره
وتحنى عليه فى يد العلج مدية
وخرصاته من دونها وبواتره ؟
وما فارقت بيض السيوف غموده
ولاحملت أسد العرين صوامره
ولكنه الإسلام ينقاد طائعاً
له كل جبار تطاع أوامره
ليهن أبا العباس لله نعمة
تراوحه موصولة وتباكره
سيلو وشيكا منهما ليث غابة
تمزق أشلاء الأعادى أظافره

---

(١) يمكن قراءتها أيضا « كنائنه » لعدم التنقيط .

(٣٣ب) وغيث سماح يملؤ الأرض ودقه
وتروى صدى الهيم الظماء مواطره
همو أمراء المؤمنين عليهمو
إذا ريع سرب الملك تثنى خناصره
وهم عدد الإسلام إن عنّ حادث
كفوه ، وهم أعضاؤه وذخائره
بهاليل من آل النبي تأشبت
عناصرهم فى خندف وعناصره
نجارهمو يوم الفخار نجاره
وأحسابهم أحسابه ومآثره
يطيعهم الدهر المطاع قضاؤه
وترهبهم أحداثه ودوائره
لقد سار فينا سيرة عمرية الـ
ـسياسة ، فالتأييد فيها يسايره
إمامٌ لتقوى الله والعدل كله
وللبذل والمعروف فى الناس سايره
كريم المحيا والشمائل يلتقى
بأبوابه بادى الثناء وحاضره
أضاءت لنا بشراً أسرّة وجهه
وشفت عن الخلق الكريم سرائره
وأوسع جانى الذنب عفواً وإن غدت
تضيق عليه فى السماح معاذره
هو الناصر الدين المنيف بسيفه
وآرائه ، والله بالغيب ناصره

فخرت على أبناء دهرى بمدحه
وعظّم قدرى أننى اليوم شاعره
أصوغ له حلى المديح ولم تكن
لتحسن إلا فى علاه جواهره
فلا زالت الأقدار [تجرى][1] بأمره
ويدفع عن حوبائه مايحاذره
ولا برحت فى الخافقين أواهلا
بدعوته أعـــواده ومنابره

* * *

وفيها تقدم الخليفة إلى مجاهد الدين[2] خالص الخادم أن ينظر فى نهر ملك[3] (١٣٤) ويرتب فيه من شاء من النواب والعمال والكتاب ، وجميع مايحصل من معاملات نهر الملك يعرض على يده ومن جانبه ، وفرض له عن نظره برسم الشحنكية مالاً ، وتقدم له بسيف ركاب أسوةً بأرباب الدولة ، وسأل أن يركب بسيوف مشهورة فى ركابه إذا ركب فى البلد ، فأذن له فى ذلك .

وسبب الإنعام فى حقه خدمته لأمير المؤمنين فى زمن إمارته ، وكان قد ربّاه ، وكان بحر درة أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — تحبه وتحترمه وتشتهى أن تراه بهذه الحال لسابق خدمته لها ، وطلب الإذن النبوىّ فى استخدام وزير لتدبير أمره فأذن له فى ذلك ، فاستوزر رجلاً يعرف

---

(١) أضيف ما بين الحاصرتين ليستقيم الوزن والمعنى .
(٢) هو مجاهد الدين خالص بن عبد الله الناصرى (+ ٥٨٤) .
(٣) نهر ملك يحمل من الفرات الى دجلة وأوله عند قرية الفلوجة ومصبه فى دجله ، وكان يعرف قديما باسم ملخا malcha ، راجع لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٩٣ — ٩٤ .

بالأصيل ابن الحوافى أعجمياً معروفاً بخدمة الأمراء ، وكان المذكور وزيراً الأمير إيلاجك ، وكان ولده عارض الجيش، فخلع عليه خالص جبة أطلس ومقياراً بعراق ، واستأذن له فى الدخول إلى الدار العزيزة وأن يكون له موضع بباب الحجرة الشريفة يجلس فيه لقضاء مهماته ، فأذن له فى ذلك ، فكان أستاذ الدار ابن الصاحب يتأذّى من هذه الأحوال ، وكان هذا الخادم قد كبر أمره فخاف منه على منصبه وأن تفضى الحال إلى أن يرتب ابن الأصيل أستاذ الدار ، فسار أستاذ الدار يسارع فى توقف مهامه وتبطيل كثير من أوامره ، وحسّن للخليفة ذلك ، فبرز الأمر أن يراجع أستاذ الدار فى جميع أموره ، فتأكدت العداوة بين أستاذ الدار ابن الصاحب وبين خالص [الخادم] ، وآل الأمر فى امتناع الناس من الدخول على خالص ، وكان من أراد الدخول إليه لحاجة لم يقدم على ذلك إلا بإذن من أستاذ الدار.

وكان جماعة من الناس من أهل (٣٤ ب) بغداد ما لهم شغل إلا نقل الحديث من مجلس خالص إلى أستاذ الدار ، وكان خالص قد اشترى جماعة من الجوارى المطربات نحواً من عشرين جارية وكان يبالغ بأثمانهن ، وكانت الجارية منهن تساوى ألف دينار ، وكان يحب السماع ولا يشرب[1] ، وكان يأمر بإحضار جماعة من الأمراء والمماليك ، فنفذ أستاذ الدار يمنعه من ذلك وقال : « مثل هذه الحال لا تحتمل أن تكون فى الدار العزيزة » ، فتألم خالص من ذلك ورفع أمره إلى الخليفة ، فاستصوب [الخليفة] رأى أستاذ الدار وقال : « نعم ما فعل ، وإذا أراد هذه الحال يعمر على شاطىء دجلة داراً ولا يفعل ذلك بدار « الخلافة » ، ومُنع [خالص] من ذلك الوقت وعمّر داراً على شاطىء الدجلة .

* * *

(١) ذكر ابو المحاسن عنه فى النجوم الزاهرة ١٠٧/٦ أنه « كان سليم الباطن دينا ».

وفيها استخدم أستاذ الدار أبا المظفر هبة الله ابن يونس وجعله نائبه وحكّمه، وصارت الأمور تجرى معظمها على يديه ، وكان أبو المذكور — يونس — وكيلا بباب الحجرة الشريفة من جانب أستاذ الدار ؛ وكان رجلا ديّنا ، وكان مجهول الذكر فلم يزل على ذلك حتى حصّل مالاً وثروة: حدوداً من عشرين ألف دينار ، وكان من أمر ولده أبى المظفر ما سنذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .

* * *

وفيها أعطى سعود الخادم شحنكية دجيل وجانبيه من تكريت إلى بغداد، وكان الناظر بدجيل زعيم الدين بن الجلال ، وكان قيصر بن بلك بين يدى سعود محكماً فى ولايته لا يعمل أمراً ولا شيئاً إلا برأيه ، وكبر أمر سعود وتقدم عند الخليفة وكان لا يزال يركب مع الخليفة إذا ركب ، وخوطب بالإمارة ، وأعطى إقطاعات كبيرة فى بلاد واسط مع شحنكية دجيل، فحصل من ذلك أموالا جزيلة، لأن دجيلا[1] بلد كبير الدخل وليس فى بلاد العراق أكثر دخلا منه ولا (١٣٥) أكثر من ثماره، ولا أنزه من ضياعه، ولا أرق من هواه ، ولا تزال المياه تطّرد فى أنهاره ، وهو الموصوف بكثرة بلاده ، وحتى ولو خرب دجيل لزال من العراق معظم مغانيه .

وفيها رتب عماد الدين صندل [الخادم] ناظراً فى نهر عيسى[2] ورسم له النظر فى شحنكيته ، وتقدم إليه بالعبور إلى الجانب الغربى ، وكانت هذه الحال من جانب أستاذ الدار لأن صندلا[3] كان فى زمن المستضىء أستاذ

---

(١) أمامها فى الأصل عبارة « دجيل » وقد ذكر مراصد الاطلاع ٥١٦/٢ « أنه اسم لنهر مخرجه من أعلى بغداد ويسقى كورة واسعة وبلادا كثيرة ، ثم تصب فضلته فى دجلة » .

(٢) راجع مناقب بغداد لابن الجوزى ، ص ١٨ .

(٣) كان عزله عن الاستادارية سنة ٥٧١هـ وذلك لأمر لغ المستضىء عنه

الدار ، لأن الخليفة كان قد التفت إليه وكبر[1] عنده لأنه كان رجلا عاقلا تقيا ، وكان الناس يعتقدون فيه ويعظمونه ، وكان ذا معروف حسن ، فلم يزل أستاذ الدار بن الصاحب حتى حسّن فى نفس الخليفة الإنعام فى حقه وحسن له أن رتبه فى نهر عيسى ناظر شحنة ؛ ونفذ له بغلة شهباء وحصاناً أحمر وجبة وعمامة وسيفاً ، وخرج إلى نهر عيسى، ورتب عليه مشرفاً رجلا يعرف بزين الدين أحمد بن جعفر الذى كان أبا صاحب ديوان إمام المستنجد بالله رضوان الله عليه .

* * *

وفيها مات الشرابى المعروف بالتحفة، ورتب موضعه نجم الدولة نجاح، وشرّف تشريفاً جميلا وأعطى إقطاعاً كبيراً، وتقدم إليه أن يركب موضعاً جرت به عادة أمثاله من الشراب دارية ، وكثر إنعام الخليفة عليه والالتفات إليه ، وظهر نصحه، وهو إلى الآن على عادته .

وفيها رتب أبو الحسن بن الكرخى حاجباً فى الديوان من حجاب المناطق ، وكان الخليفة يقربه ويحب محاضرته ؛ ورتب أبو الشيخ أبو جعفر الكرخى حاجب المنبر الشريف بجامع القصر وخلع عليه ، وعادة حاجب المنبر بجامع القصر أن يكون متأهباً ليوم الجمعة[2] بإزاء المنبر ، يلبس ثياب السواد ويشد وسطه بمنطقة ، متقلدا بسيف حليته فضة ، ويكون بين يدى (٣٥ب) المنبر ، فكل من أتى متظلماً يأخذ منه قصته ويستعلم حاله، ويكون بين يديه جماعة المستخدمين المقيمين بباب العامة ينفذون أوامره ويستخدمهم كيف [شاء] فى هذا اليوم فحسب، فإذا تكملت الرقاع معه أخذها فى منديله، فإذا قضيت الصلاة خرج من الجامع وجاء إلى المقصورة التى جرت عادة

---

(١) فى الأصل « كثر » .

(٢) أمامها فى الأصل « عادة حيا .... ببغداد » .

الوزير والنائب أن يصلى بها ، فإذا خرج الوزير مشى فى خدمته وسلّم الرقاع إليه وشرح له أحوال أربابها مفصلة ، فما يحتاج فيه إلى المراجعة للعرض الأشرف راجع فيه ، ومالايحتاج تقدم فيه الوزير أو النائب .

* * *

وكان فى هذه السنة ابن النجارى جلال الدين النائب، فكثر عنده ابن الكرخى يخلو به فكان ابن الكرخى ، يشرح له ماكان يجرى له مع الخليفة فى خلوته ، فاستأذن الخليفة أن يرتب والد المذكور — الذى هو حاجب المنبر — على المظالم ، على أن من كان له ظلامة أو حاجة أو قصة وأراد عرضها يكون حديثه مع هذا الشيخ أبى جعفر ، وكبر بذلك ، وحصل جملة كبيرة ، وكان هذا الشيخ أبو جعفر من جملة حواشى الوزير ابن رئيس الرؤساء وممن ربى تحت ظله ونعمته .

كان حاجبه حيث كان وزيراً .

وفيها[1] ورد القاضى ضياء الدين القاسم بن الشهرزورى إلى مدينة السلام بغداد رسولا من جانب الملك الناصر صلاح الدين ، وأخرج إليه بهاء الدين أبو الفتح بن الدارنج — وكان حينئذ حاجب الحجاب — ومعه جماعة من الحجاب والخدم وجماعة من الأمراء والأجناد إلى لقائه، وأدخل إلى بغداد من باب السلطان بموكب جميل ، فكان عن يمينه جمال الدولة إقبال الخادم ، وعن يساره صبيح الخاص الخادم ، وجماعة الحجاب بين يديه ، وكان أستاذ الدار ابن الصاحب شديد البغض لابن العطار فى أيامه ويجعل له مساوىء كثيرة وكان يقول للخليفة (١٣٦) إن ابن العطار يطمع صلاح الدين فى الملك ، وذلك لما كان يرى منه من التبجيل والإعظام لأصحاب صلاح الدين ، وكان الخليفة يتغافل عن قوله ويتغاضى عن جوابه

---

(١) أمامها فى الأصل « ورود القاضى ضياء الدين الشهرزورى » وهو كاتب صلاح الدين.

لما يعلم بما بينه وبين ابن العطار ، ثم إن ابن الصاحب نفذ إلى نائب الوزارة ابن البخارى سراً أن لا يقوم لابن الشهرزورى — إذا دخل عليه — حق القيام ، فلما حضر ابن الشهرزورى الديوان العزيز قام قائما وخطب خطبة بليغة ، وكان ذلك بمحضر من جماعة من الأمراء وأرباب الدولة، فاستحسن الجماعة بلاغته، ثم جلس بعد ماقام له ابن البخارى على ركبتيه وأدنى مجلسه، وعرض ما كان معه من التحف والهدايا ، ثم نهض بعد الخدمة ومضى إلى الدار التى أعدت له بخربة الهرّاس .

وكان ابن الشهرزورى قد ألف مدة مقامه فى بغداد [أن] يحضر جماعة من المطربين والأغانى ويتظاهر بذلك ، وكان معه شيخ متهتك يعرف بالبدر ، وكان ابن العطار فى أيامه يحترمه ويغطى هذه الحال مكانته عنده ، فلما ورد فى هذه المرة قصده ابن الصاحب وكشف عليه أحواله وقبح أفعاله وصار يوهن قواعده ويقدم إليه على لسان ابن البخارى أن لا يرجع بكتب إلى الديوان العزيز إلا العبد وإلى أستاذ الدار الخادم ، ثم أذن له بالانصراف بجواب رسالته .

وفيها تقدّم الخليفة بإحضار جماعة من الندماء والجلساء إليه كان كثير الميل إليهم ، وكان فى جماعتهم أبو الحسن بن الكرخى، فكان كثير الجلوس عنده بحيث لا يفارقه ، وكان المذكور يقدح فى أستاذ الدار ابن الصاحب ، وكان الخليفة ينكر عليه فقال له : « ياأمير المؤمنين أكتب له بولاية العهد هذا إن رضى ، والله ما يرضى لأنه اليوم هو الخليفة فكيف يرضى أن يكون ولى عهد؟ ستبصر كيف تكون (٣٦ب) الأحوال معه» ، فنقل ذلك جميعه إلى أستاذ الدار فأحضر ابن الكرخى عنده وخلع عليه وقربه وماعرفه شيئاً مما بلغه عنه، وقال له : «لا تنقطع عنا ، أنت عندنا مثل الولد » .

ثم خاطب الخليفة فى حقه، وطلب له من الدار التى فى الوراقين فتقدم له بها، وكتب له ملكا، وأشهد الوكيل عليه بها ، وكثر ابن الكرخى فى الدولة

وكثر أيضا أبو العز فى الدولة وصار بمنزلة الشرابى، وأنعم الخليفة أيضاً عليه فكان ملازماً للخدمة الشريفة وكذلك محمد بن يحيى الفراش ، وكان هارباً فى أيام المسترضى بأمر الله رضوان الله عليه ، فقربه الناصر لدين الله — صلوات الله عليه — وأنعم عليه .

ثم برز الأمر الشريف إلى المخزن أن يفرض لأبى العز فى كل شهر ثلاثون ديناراً وما يحتاج إليه من خبز ولحم وحوائج ، وكذلك فرض لابن الداية ، وأعطى داراً حسنة بالريحانيين ، وذلك أنه كان يخدم الخليفة لما كان صغيراً فى الكتاب ، وأمر له بتشريف جميل ، وكان هذا المذكور يعرف بابن العوادة .

* * *

وفيها أمر الخليفة — ثبت الله دعوته — بإحضار الربيب ابن رزين رضيعه فشرفه تشريفاً جميلا وأعطاه داراً جميلة فى درب الصاغة ، وتقدم إليه بأن يدخل الدار العزيزة من غير إذن .

* * *

وفيها أيضاً برز الأمر أن ينعم على محمد بن يحيى الفراش من المخزن المعمور فى كل شهر بثلاثين[1] ديناراً وجميع مايحتاج إليه ، وأن يعطى الدار التى عند عقد الجديد المجاورة لحمام الوراقين . وكان محمد بن يحيى الفراش حسن الخلقة محبوباً إلى الناس، فكان إذا ركب يتفرج[2] الناس على حسنه وخلقته ، وكان الخليفة لا يصبر عنه ساعة واحدة ، وكان من أخص الناس عنده وأحظاهم منزلة .

---

(١) فى الأصل « ثلاثين » .

(٢) فى الأصل « يتفرجون » .

وفى هذه السنة اجتمع هؤلاء القوم المذكورون عند الخليفة وحسنوا (١٣٧) له أن يكون فتىً وقالوا له: « إن هاهنا رجلاً حسنا يقال له عبد الجبار، خلفه خلق كثير ، وهؤلاء يحتاج إليهم فى وقت » . وكان عبد الجبار هذا مشاهراً فى بستان يعرف بالبصرية وهى ملك لابنه جهير ، فأمر بإحضاره فحضر ومعه ولده على الملقب بشمس الدين ، فلما أحضر المذكور شاهده وقرر معه ذلك ، ثم اتفق الحال أن يكون الاجتماع فى بستان يعرف بالرقة وهى فى مقابلة التاج الشريف ، وكان مشاهرُ هذا البستان المذكور رجلاً يعرف بالعقاب يوسف ، نسيباً للشيخ عبد الجبار ، فحضر مع الجماعة عندما لبس الخليفة سراويل الفتوة [1] فعرفه من هناك ، وأنعم على الشيخ عبد الجبار بخمس مائة دينار ، وخلع عليه وعلى ولده على .

ثم إن الخليفة — ثبت الله دعوته — كثر حديثه فى هذا[2] وحسنَ الأمر عنده ولم يبق أحد ممن كان قريباً منه إلا وليس منه سراويلا ، وتقدم إلى أبى على بن الدوامى أن يكون نقيب الجماعة، وأن يخطب ويذكر شروط الفتوة وأحوالها المرضية لأنها من الخصال المحمودة الشريفة والضرائب المشهورة العفيفة ، وكان ابن الدوامى فاضلا حسن الصوت مليح الإيراد، وكان يذكر من المعانى المستحسنة التى تدلّ على مكارم الأخلاق وطيب الأعراق أشياء كثيرة .

* * *

(١) راجع النهج السديد لمفضل بن أبى الفضائل ٨٤ — ٨٥ .

(٢) أى عن الفتوة ، هذا وقد ذكر ابن الساعى المتوفى سنة ٦٧٤ م فى كتابه : مختصر أخبار الخلفاء ، ص ١٠٩ أن الخليفة كان مغرى برمى البندق ولبس سراويل الفتوة ولعب الطيور والمناسيب ، وافرط فى ذلك افراطا كثيرا حتى كان يبعث الى الاقاليم انه لا يدعى احد من الرماة الا له ، ولا يلبس أحد سراويل الا له .

وفيها أكثر ابن الكرخي من مدح بيت رئيس الرؤساء وذكر للخليفة أن لعلم الدين بن رئيس الوزراء بن أخي عضد الدين الوزير زوجتين قد أخذ منهما خمسين ألف دينار، الواحدة ابنة عمه دار الذهب، والأخرى الزينبيّة بنت شرف الدين الوزير الزينبي، وهو يتمنى أن يمضى إلى عنده ويعمل لنا دعوة فقال له: «أفعل ذلك».

وكان مراد ابن الكرخي أن يعطف قلب الخليفة إلى بيت رئيس الرؤساء ويبعده عن أستاذ الدار، فعمل علم الدين له ظاهر دعوة وغرم (٣٧ ب) عليها مالا كبيراً واشترى ثياباً كثيرة بنحو من خمس[1] مائة دينار وحملها إلى الشرابي، وحمل إلى جميع من كان يدخل إلى الخليفة أشياء من الثياب وغيرها ومن الهدايا السنية، وخلع على جميع من عنده فى تلك الليلة، وكان ذلك فى الدار التى فى درب الزينبية التى عند دار الوكيل ضياء الدين أبى السعادات بن الناقد عند عقد المصطنع.

وكان جميع ما جرى فى الدعوة فى تلك السلسلة ينقل إلى أستاذ الدار ساعة فساعة ولا يقدر أحد من الحاضرين أن يكتم ذلك عنه، وكانوا يخافون من أستاذ الدار أكثر من الخليفة صلوات الله عليه، فلما خرجوا من عند علم الدين أبى طاهر بن رئيس الرؤساء قال له ابن الكرخي: «طيب قلبك ولتكن غداً على أهبة، فإن الخليفة يريد أن يجعل أستاذ الدار وزيراً ويجعلك أنت أستاذ الدار، فلا تجعل لنفسك شغلا»، فمضى علم الدين إلى بعض أهله وحصل منه سيف ركاب وجناقات وآلة تصلح لأستاذية الدار، وأقام بعض غلمانه سلاح دار، وأصبح يرتقب من يأتى إليه من دار الخلافة، فلما نقل ذلك إلى أستاذ الدار من ليلته نفذ من صبيحة تلك الليلة وأنكر على علم الدين ابن رئيس الرؤساء على لسان محمود الشرابى وكان يتحبب لأستاذ الدار — وقال له: «والله لولا أن أهل بغداد يعتقدون أننى أقصد بيت رئيس الرؤساء [ولولا

(١) فى الأصل « خمسين مائة ».

أنى] إذا أمرتُ فيك بأمر نسبتُ فيه إلى القصد لقد كنت أتقدم بصلبك، ومتى رجعت إلى مثلها أمرتُ بصلبك» . فمن بعد ذا لم يجسر أحد أن يذكر بيت رئيس الرؤساء .

وأما ابن الكرخي فإنه حضر عند أستاذ الدار وعتب عليه فقال له ابن الكرخي : «إنما سخرت به حتى خسر ألف ألف دينار وضحكنا عليه»، فقال له : « لقد عملت جيداً ونعما فعلت » ، وكان مع ذلك يضمر لابن الكرخي السوء ويدبر فى هلاكه .

(١٣٨) وأما علم الدين ابن رئيس الرؤساء فإنه خاف على نفسه فمضى إلى ابن القصاب — وكان حينئذ فى خدمة الدار أستاذ يرسله إلى الجوانب — فسأله أن يشفع له ويستوهب له ذنبه ، فشفع له فوهبه جرمه ، وسأله أن يأذن له فى الحضور على طبقه فى شهر رمضان ، فأذن له فى ذلك .

* * *

وفيها كان الفراغ من بناء دار المسناة التى على شاطىء دجلة، وكان المتولى عمارتها الحاجب الأعز ، وهى أول دار شرع الخليفة فى عمارتها للتنزه والفرجة ، وهى أول دار فرشت طوابيق ملونة : أزرق وأحمر وسائر الألوان ، وكان الخليفة كثير الملازمة لها والحضور فيها ، وهى من الدور المستحسنة بنيت على طرف السور مما يلى دجلة ، قد غرم عليها أموالا جمة ، ولما تم عملها نقل إليها فرساً كثيرة وآنية من ذهب وفضة ،ورتب فيها جماعة من المماليك والخدم لحفظها وحراستها يلازمون الخدمة فيها دائما وإلى الآن ، فإذا كان راكبا فى دجلة أو على ظهر وأراد الدخول إليها تكون مهيأة للقعود فيها والسكنى بها ، وجعل لهذه الدار حرمة قاطعة كحرمة التاج الشريف بحيث لا يقدر أحد يقعد تحتها ولا يدنو منها، إلا إن كان سائراً فى سفينة فحسب .

وكان أستاذ الدار قد وصف للخليفة نويس المغنية زوجة ابن رئيس الرؤساء وعائشة السوداء زوجة ابن الكرخي ، فنفذ وأحضر المرأتين المذكورتين ، وأحضر جماعة منهم نجاح وأبو العز ومحمد بن يحي [الفراش] وابن الكرخي وأبو علي الدوامي وجماعة من المماليك وفراش[1] الدار ، وكان قد اتفق جماعة من الناس وأكثر أهل بغداد بأن مابغداد مغنية أصنع من عائشة السوداء ، ولا [غناء] أطرب من غنائها ولا [صوت] أرق من صوتها ، وذكر أن الخليفة قال للكرخي في تلك الليلة «فمنها[2] ركوبهم ومنها (٣٨ ب) يأكلون » ، يعني بذلك ابن الكرخي وزوجته السوداء المغنية ، فعجب الناس من قوله وقالوا : « استشهاد في موضعه » .

* * *

وفيها قدم إلى بغداد ابن رئيس همدان وكان معه مال كثير وغلمان وخدم ، ومعه من جملة مماليكه مملوك حسن الهيئة تام الخلق يقال له «سنجر» ، وكان له خيمة مضروبة على شاطىء دجلة عند مشرعة مشهد أبي حنيفة رضي الله عنه ، فكان كذلك أياما لايزال يشرب الخمر وكان لايزال مخموراً ، فبينما هو كذلك إذ دخل عليه جماعة من العيارين ليلا فقتلوه وهو سكران وأخذوا كثيراً مما كان معه من الأموال ، وأصبح الناس يخوضون في حديثه ، واتهم جماعة بقتله ، وكان أكثر أهل بغداد يزعمون أن قاتله بدران الحسامي ؛ وعلم الخليفة بقتله فتقدم إلى أستاذ الدار بالكشف عمن قتله، فتقدم أستاذ الدار بالكشف عن الحال وأخذ سنجر وقال «إن أمير المؤمنين قد كبرت عليه هذه الحال » فبقي[3] سنجر أياما كثيرة لم يخرج من الدار ، فلما خرج وركب كان عليه وعلى فرسه مايساوي خمسة ألف دينار إمامية ، وصار سنجر يخرج ويدخل إلى البدرية كل يوم ، وكان يخرج وعليه في

(١) في الأصل « رفاشين » .

(٢) قرآن كريم سورة يس ٣٦ : ٧٢ .

(٣) يستدل من هذا الكلام على أنه لايزال حيا ، على حين أن مفهوم الخبر — قبل ذلك ببضعة أسطر — صريح على أنه قتل .

كل وقت لون من الثياب الفاخرة ، وحصل له من المنزلة عند الخليفة ما لم يحصل لأحد منه قبله . وهو على غاية من العقل والسكينة ، وكان مع ذلك لايزال الخليفة يصفه بالعقل ويقول : « مارأيت ولاملكت الملوك أعقل من سنجر ولامثله ، إلا أن فيه ظلما[1] » ، وكان مع ذلك قليل الصمت ، وكانت حاله كلما جاءت كثرت .

وسنذكر زيادة منزلته فى كل سنة بقدر ما انتهى إليه حاله إلى الآن .

وفيها اشترى إياس الرومى وكان من أحسن الناس خلقة ، واستخدم ابن امرأة لأبى الفتوح المغنىّ ويعرف بأبى الحسن ، وكان من المذكورين ببلاده[2] (١٣٩) بالجمال المفرط ، وفرض له كل سنة مائتين وخمسين ديناراً ، وجعل فى جملة المماليك الخواص .

* * *

وفيها احتال عبد الوهاب وأخذ قلعة المهكى وهى من أحسن القلاع التى بالعراق ، وصورة ذلك — كما ذكر لنا — أنه كان لعبد الوهاب راعى غنم ، فمضى إلى تحت القلعة المذكورة ، فرأى فى رأس الجبل الذى عليه القلعة شجرة قوية فعاد إلى عبد الوهاب وأخبره بما خطر له ، فمضى مع الراعى يرعى الغنم ذلك اليوم ويبصر ما قاله الراعى وما خطر له ، فلما شاهد الموضع رجع وأحضر نجاراً وقال : « أريد تعمل لى سلما يكون عدة أقطاع ، ويوصل بحديد ، ويكون على شكل أعمدة الخيم » ، فلما فعل ذلك وحصل جميع ما يحتاج إليه أحضر جماعة من بنى عمه وأتى إلى تحت القلعة فى ليـــلة مظلمة كثيرة الهواء والمطر ونصب السلم ، وصعد واحد من الجماعة واجتهد على رؤية الشجرة فلم يقدر ، فقام يرمى نفسه يميناً وشمالا وهو قائم على رأس السلم ، وأشرف على الهلاك وكاد أن يسقط ، فوقعت إحدى يديه فى الشجرة فتعلق بغصن منها وصعد إليها فاعتنقها ساعة حتى رجع روعه إليـه ، وكان

---

(١) فى الأصل « ظلم » .　(٢) غير مقروءة فى الأصل .

معه حبل مشدود فى وسطه خله ورمى بطرفه إلى إحدى شرافات القلعة، فعلق بها وصعد فصار فى رأس القلعة ، وألقى الحبل إلى جماعة فصعدوا إليه واحد بعد واحد ، إلى أن تكاملوا فى القلعة .

وكان بها مملوك من مماليك المستضىء بأمر الله - رضى الله عنه — وهو سكران، فنزلوا إلى الموضع الذى فيه المفاتيح فقتلوا من كان هناك وأخذوا المفاتيح ودخلوا الخزائن فلبسوا العدة الكاملة، وخرجوا إلى المملوك فقتلوه على (٣٩ب) [فراش][(١)] نومه، وفتحوا الأبواب ، وقتلوا جماعة وأطلقوا من أرادوا وملكوا القلعة ، ورموا[(٢)] رأس المملوك ورؤوس الجماعة الذين قتلوا معه من القلعة ؛ وصار عبد الوهاب متحكماً بذلك المكان .

وبلغ الخبر إلى بغداد فأمر الخليفة بإخراج العسكر المنصور، وكان المتقدم على العسكر سنقر الكبير المستنجدى ، وخرج معه جماعة من المماليك الأمراء الكبار ، مثل سنقر الصغير وغرغلى ، ومضى معهم الكافى ابن الهمذانى وكان خبيراً بتلك الخطة ، فسار العسكر إلى أن نزلوا قريباً من القلعة وراسلوا عبدالوهاب وبذلوا له أموالا كثيرة وإقطاعيات جليلة فلم يقبل[(٣)] ولم يلتفت إلى قول أحد واعتصم بها ، ولم يمكن العسكر من الدخول إليها لوعر طريقها وامتناعها ، وطالت المدة فتقدم الخليفة برجوع العسكر لما أعجزهم الأمر .

فلما دخل العسكر إلى بغداد أمر الخليفة بالقبض على حسام الدين غرغلى وعلى سنقر الصغير .

وكان فى نفس الخليفة على سنقر الصغير حقد من زمن أبيه لأنه كان قد اتفق مع ابن العطار — حين كان مستولياً على دار الخلافة — أن

(١) غير واردة بالاصل .
(٢) « أرموا » فى الاصل .
(٣) فى الاصل « يفعل » .

لا يرتبه خليفة وأراد أن يرتب[1] أخاه الأمير أبا منصور عوضه ؛ فلما قبض عليه حمله إلى التاج العتيق وجعله فى دار الحشاشيف ، وكذلك فعل بحسام الدين غرغلى ، وأخذ جميع ما كان لهما من خيل وبرك[2] وذهب وآلات حروب وعُدد حتى نقل من دار سنقر الصغير أموالا كثيرة من آلات وثياب وذهب وفضة وغير ذلك من يوم الجمعة إلى الجمعة ما لا يحد له حصر ، وقيل للخليفة — أيده الله تعالى — أن لسنقر الصغير أموالا مدفونة فى داره، فأمر بنقض الدار فنقضت، وأخذ جميع ما كان فيها من الأموال ، وأخذ من جاريته — أم أولاده — ثلاثين ألف دينار ، ونقل أولاد سنقر (١٤٠) الصغير إلى دار فى قصر الخلافة فتركوا بها ،ووكل بهم جماعة من الفراشين ، وطلبت أم الخليفة — أجلّها الله تعالى — منه موضع دار سنقر الصغير لتعملها رباطاً للصوفية فأذن لها فى ذلك ، وسألته عمارة الموضع فتقدم إلى أستاذ الدار بعمارة الموضع فشرع فى عمارته من ديوان الأبنية ، وجمع له من الصناع والبنائين والنجارين وسائر أصحاب الصنايع جماعة كبيرة ، فبنى الموضع أحسن بناء يكون،وهو فى المحلة المعروفة بالمأمونية - أحسن موضع من بغداد - فى وسط السوق .

وفيها نفيت[3] امرأة كانت تعرف بالخليعة وكانت فيمن يدخل إلى دار حسام الدين غرغلى وأمر بنفيها إلى البصرة ، وسبب ذلك أنه نقل عنها أنها قد أحضرت عندها جماعة من الاسماعيلية من حلب ، حتى يتعرضوا[4] لقتل الخليفة وقتل أستاذ الدار أمين الصاحب ، وكان زوجها ركابيا[5] من

---

(١) فى الاصل « نزب » .

(٢) البرك هو المتاع الخاص من ثياب وقماش وخلافه ، انظر فى ذلك :
Quatremère: Hist. des Mamlouks, t. I, pt. 1, p. 253, Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٣) فى الاصل « أنفيت » لم ينقط فيها غير التاء .

(٤) « يتعرضون » فى الاصل .

(٥) الركابى أو الركابدارى احد طائفة ممن تحمل المشاعل امام ركاب السلطان أو الخليفة فى مواكب العيد وأمثاله راجع القلقشندى : صبح الاعشى ٧/٤ ، ١٢ ، والمقريزى : الخطط ٢٠٩/٢ .

ركابية الخليفة فقبض عليها وأخذت فى سفينة إلى البصرة ، وتقدم الخليفة بغلق باب الأمير حسام الدين غرغلى وضربوا فيها مسامير بحيث لا تفتح ، وكذلك فعلوا بالمحارق من أعلى الدار وضربوا فيها مسامير بحيث لا يصعد أحد إلى سطح الدار ، ووكل أيضا بالدار جماعة من الفراشين .

ذكر

ما تجدد للملك الناصر صلاح الدين من الغزوات والفتوحات والأحوال بمصر والشام فى سنة ثمان وسبعين [وخمسمائة]

ودخلت هذه السنة والسلطان مخيم على البركة[١] من أرض مصر بجميع عساكره ، شديد العزم على قصد الشام ، فكان رحيله[٢] من البركة يوم الاثنين خامس محرم فسار على طريق صدر، وكان نزوله على أيلة بعد خمس ليال، فبلغه حينئذ نزول الفرنج على الكرك بجمع كبير (٤٠ ب) فحين تحقق ذلك قال لأخيه تاج الملوك بورى : «خذ الناس[٣] معك وسر بهم وما معهم من الأثقال والتجارة على طريق يمينة منا »، فامتثل أمره وسار بهم .

وأما السلطان فإنه سار بمن انتخب من عساكره وتوجه بهم إلى الكرك ووصل إليها بعد أيام فوجد بها جمعا عظيما من الفرنج ، فنزلنا قريباً منهم فأذللناهم وضايقناهم حتى لاذوا بالجدار فاستولينا[٤] عليهم فقطعنا أشجارهم ورعينا زروعهم ، وجعلنا نشن الغارات عليهم مدة عشرة أيام ، فلما رأى

---

(١) المقصود بذلك بركة الحبش .

(٢) كان هذا آخر رحيل له عن مصر اذ لم يعد أليها ، انظر ابن الاثير : الكامل ١١/١٩٤

(٣) الوارد فى ابن الاثير نفس المرجع والجزء والصفحة أنه سير « الضعفاء والاثقال» مع اخيه تاج الملوك بورى الى دمشق غير مستبق معه سوى العساكر المقاتلة ، راجع أيضا الروضتين ٢/٢٨ س ٩ — ١٢ .

(٤) يستفاد مما ذكره ابن الاثير ١١/١٩٤ أنه لم يخرج اليه من الفرنج أحد رغم كثرة شنة الغارات فى هذه السفرة على أطـــراف بلادهم لاسيما الكرك والشوبك .

السلطان ذلك أمر الناس بالرحيل خوفاً من قلة أزوادهم وسار من يومه ، فبينا نحن سائرون إذ أتاه نجابون يبشرونه بنصرة عمى عز الدين فرخشاه فى غزوة دبورية[1] .

* * *

ذكر غزوة دبورية

لما تحقق الفرنج رحيلنا من مصر بالعساكر وما انضاف إليها من الناس والتجار اجتمعوا على الكرك كما ذكرنا لقربهم من الطريق، وكان غرضهم فى ذلك إنتهاز فرصة يجدونها ، فلما أذلهم الله تعالى بيأسنا وطال مقامنا عليهم تلك الأيام المعدودة ووصل عمى فرخشاه خبرنا نفر بمن معه من الفرسان وتبعه جماعة كبيرة من الناس ، واغتنم خلوهم من بلادهم فسار إلى دبورية وأهلها غارون، فأغار على ربضها فقتل منهم خلقا كثيراً وأسر نحواً من ألف نفر بين كبير وصغير، وساق أغنامهم وأبقارهم ، وأحرق وخرب ، ونزل على حبيس[2] جلدك ففتحه ، وهو حصن من أعمال طبرية ، وكان اجتماع عمى فرخشاه مع السلطان دون بصرى ، ثم نزلنا بها وسرنا منها متوجهين

---

(١) ضبطها ناشر مراصد الاطلاع بفتح الدال وتشديد الباء المضمومة ، والوارد هناك ٥١٣/٢ فى تعريفها أنها بلد قرب طبرية من أعمال الاردن ، ووردت بصورة Daboura فى كتاب Dussaud: Topographie de la Syrie, p. 382 بأنها واقعة فى شرقى بحيرة حولة .

(٢) لما تم فتحه اسكنه المسلمين وبذلك صار هذا الحصن عينا على الفرنجة ، راجع أبا شامة : الروضتين ٢٨/٢ ، وانظر ايضا Grousset: op. cit., II, p. 717
أما فيما يتعلق بالناحية الجغرافية فقد ذكره مراصد الاطلاع ٣٧٨/١ فقال « الحبس قلعة بالسواد من أعمال دمشق يقال لها حبيس» وياقوت ٢٠١/٢ ، Dussaud: op. cit., p. 363 et seq. حيث عرفه بأنه صخرة تسيطر على الاقاليه الاسلامية ، ويرجح هذا المؤلف أن موقع حبيس جلدك اليوم هو ما يعرف بقصر برويل شمال العال .

إلى دمشق فكان دخولنا إليها يوم الاثنين سابع [1] عشر صفر، فلم يزل السلطان بها تمام الشهر المذكور وأياما قلائل من شهر ربيع الأول ، ثم توجه إلى غزوه طبرية وبيسان .

ذكر غزوة طبرية وبيسان (٢)

ولما وصل السلطان إلى دمشق اجتمعت إليه عساكر الإسلام فسار بهم إلى طبرية وبيسان وذلك يوم الأحد سابع شهر ربيع الأول ، فصبح الفرنج يوم الثلاثاء بطبرية فوجدهم قد وصلوا إليها ونزلوا فيها بجموعهم ، فسيرنا جماعة يتطلعون عليهم فلم يجدوا أحداً منهم راكباً ولا خارجاً ، وكنا نازلين من الأقحوانة [3] [من الأردن] على أحد ثغورهم ، فلما رأيناهم قد أحجموا عن لقائنا وأقاموا في موضعهم اتفقنا على المسير إلى بيسان لاستجرارهم، فسبق عمي عز الدين فملك ربضها ، وكانت العرب — ومن خف معها — قد انحازت نحوها فأوسعوا أهلها [4] قتلا ، ووصل الخبر من اليزك أن الفرنج قد أجلبوا بخيلهم ورجلهم ، فاشتغل السلطان بترتيب الأطلاب وتحريض الناس على الجهاد ، فجعل والدي الملك المظفر في الميمنة ، وعمي عز الدين فرخشاه في الميسرة ، وقرب الفرنج منا فرأوا من العدة والناس ما هالهم [5] ، فلجأوا إلى حصن [6] كوكب ، فسبقت أطلابُ الميسرة

---

(١) يتفق أبو شامة : الروضتين ٢/٢٨ والمتن أعلاه فى هذا التاريخ ، لكن الوارد فى ابن الاثير ١١/١٩٤ هو أن دخول صلاح الدين دمشق كان ١١ صفر من هذه السنة ٥٧٨ هـ وسار على نهجه أيضا التوفيقات الالهامية ص ٢٨٩ .

(٢) الضبط من مراصد الاطلاع ١٤/٢٤١ حيث عرفها بأنها مدينة بالاردن بالغور الشامى

(٣) مراصد الاطلاع ١/١٠٣ حيث ذكرأنها على شاطىء بحيرة طبرية .

(٤) يقصد بذلك أهل جنيين واللجون ، راجع ابن الاثير : الكامل ١١/١٩٥ .

(٥) فى الأصل « أهالهم » .

(٦) عرفه ابن عبد الحق البغدادى : مراصد الاطلاع ، ٣/١١٨٨ بأنه قلعة على الجبل المطل على طبرية وتشرف على الأردن ، وانها من فتوح صلاح الدين وقد خربت بعده ، كما أنها كانت فى وقت هذه الاحداث تابعة للفرسان الاسبتارية ، أنظر فى ذلك ابن واصل : مفرج الكروب ٢/٢٤٦ . راجع أيضا ياقوت : معجم البلدان ٤/٣٢٨ .

وجالت الجاليشية ترميهم بالسهام ، وعطف عليهم والدى بمن معه من الميمنة ، وكنا فى واد صعب ومضيق ، وتواترت على الفرنج الحملات فطحنتهم الأبطال فصاروا بين قتيل وأسير ، وانهزموا على أعقابهم لائذين بالحصن ، وكان ذلك يوم الخميس ثانى عشر ربيع الأول ، وأقمنا باقى يوم الخميس ويوم الجمعة لجمعهم منازلين ، ولخروجهم محاولين ، كانت وقعة شديدة استشهد من المؤمنين فيها جماعة من الأبطال ؛ ورجع الناس بما معهم من الأسارى ، وعاد السلطان من غزوة طبرية رابع عشر شهر ربيع الأول من السنة المذكورة . وكان مخيم السلطان فى هذا الشهر «بالعفر[1] بلا» من أعمال حوران .

ولما (٤١ب) رجع [السلطان] من غزوته تلك أقام بمخيمه وطال مقامه هناك إلى [أن] تجدد عزمه على قصد حلب وعبور الفرات .

* * *

ذكر قصد السلطان الى حلب وعبور الفرات واستيلائه على الموصل وبلاد الجزيرة وغيرها

لما وصل السلطان إلى الشام عزم على قصد حلب وجهاد من بها، وذلك لما بلغه عن المواصلة أنهم قد كاتبوا الفرنج وأنفذوا إليهم الرسل وبذلوا لهم الأموال ورغبوهم فى الخروج إلى الثغور . فقال السلطان : « قد وجب علينا النهوض إليهم والجهاد لهم » ، وكان ذلك عند عودته من غزوة طبرية وبيسان واستقراره بالمخيم . فأمر الناس بالرحيل وسار على سمت[2]

(١) بلد بقرب بيسان وطبرية بالاردن ،مراصد الاطلاع ٩٤٦/٢ ،ياقوت : معجم البلدان ٦٨٨/٣ ، هذا ويلاحظ أن المقريزى : السلوك ٧٨/١ ذكر أن مخيم السلطان كان فى الفوار » من أعمال جوران وليس بالعفربلا ، وقد رسمها ابن الاثير : الكامل ٩٥/١١ بالغين فقال «غفربلا» وهو خطأ .

(٢) راجع الحاشية رقم ١٤٣ .

يلاحظ أن عبارة « على سمت ... بلاد الساحل » فى السطر التالى هى نفس العبارة التي استعملها أبو شامة فى الروضتين ٢٩/٢ س ٢٣ — ٢٤ مع اسقاط كلمة «بعض» فقط .

بعلبك وخيم بالبقاع ، وكان قد وعد أسطول مصر أن يتجهز إلى بعض بلاد الساحل ليوافيه[1] ويسير بعساكره إليه ، فجاء الخبر انه وصل إلى ساحل بيروت ، فبادره السلطان بعسكره جريدة[2] ، فلما رأى ذلك أمراً يطول أعاد عمي عز الدين فرخشاه إلى دمشق ليقوم فى سد ثغورها وترتيب أمورها ، وتوجهنا بعد ذلك إلى بلعبك وخيمنا بمرج عدوسة أياما ، ورحلنا إلى حمص على طريق الزرّاعة[3] فنزلنا بها ، ورحلنا منها فنزلنا بحمص على العاصى ، وجاء[4] الفقيه المهذب عبد الله بن أسعد الموصلى فمدح السلطان بهذه القصيدة :

أعلمتَ بعدك وقفتى فى الأربع[5]
ورضى طلولك عن دموعى الهُمَّع
مطرت غضاً فى منزليك فداوياً
فى أربع ، ومؤججا فى أضلعى
لم يثن غرب الدمع ليلة غرّبوا
ولع العزول بفرط عزل المولع
يلحى الجفون على الدموع لبَيْنهم
والعذل — فرط العذل — إن لم تدمع
(٤٢ ا) دعنى وما شاء التلذّذ والأسى
واقصد بلومك من يطيعك أو يعى

---

(١) فى الاصل « ليوافقه » .

(٢) الجريدة فى الاصطلاح الايوبى والمملوكى بمعنى الفرقة من الخيالة ، انظر : Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٣) لعله يقصد طريق زراعة زقر الذى مراصد الاطلاع ٦٦١/٢ أنه قرب بالس من أرض حلب ، انظر ابن خرداذبة : كتاب المسالك والممالك (المكتبة الجغرافية) ج ٢ ليدن ١٨٧٣ ص ١٦٦ ، وقدامه : كتاب الخراج طبعة ليدن) ص ٢١٨ .

(٤) ازاءها فى هامش المخطوطة عبارة «عبد الله بن أسعد الموصلى الفقيه المهذب » .

(٥) « الاجرع » فى الروضتين ٢٩/٢ ، وقد وردت هذه القصيدة فيمايلى على الترتيب التالى ١ ، ٢ ، ٧ ، ٥ ، ٦ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٦ ، ٤٨ .

لا قلب لى فأعى الملام فإننى
أودَعْتُه بالأمس عنــد مودّعى

هل يعلم المتحمّلون لنجعة
أن المنازل أخضبتْ من مَدمعى

كم غادروا حرضا وكم لوداعهم
بين الجوانح من غرامٍ موجع

أمروا الضحى أن يستحيل لأنهم
قالوا لشمس خدودهم : لا تطلعى

تحمى قبابهمو ظُباً فى كلة
وتذود عنهم أسـهم فى برقع

قل للبخيلة بالسـلام تورّعا
كيف استبحت دمى ولم تتورعى !

وبديعة الحسن التى فى وجهها
دون الوجوه عناية المبدع

بيضاء يدنيها النوى ، ويحلّها
إعواضها فى القلب ألطف موضع

ما دام(١) معتمر بربعك دائباً
يقضى زيارته بغـير تمتُّع

كم قد هجرتِ إذ التواصل مكثب
وضررتِ قادرة على أن تنفعى

ماكان ضرّك لو غمزْت بحاجب
عند التفرّق أو أشرْت بإصبع

---

(١) فى الروضتين ٢/٢٩ « مابال » .

ووعدتنى إن عدتِ عَوْدَ وصالنا
هيهات ما أبقى إلى أن ترجعى
هل تسمحين يبذل أيسر نائل
أنْ أشتكى وجدى إليك وتسمعى
أو شاهدى جسمى ترى أين الهوى
أو فاسألى إن شئت شاهد أدمعى
والسقم آية ما أجن من الجوى
والدمع بيّنة على ما أدّعى
فتيقّنى أنى بحبك مغرم
ثم اصنعى بى ما شئت أن تصنعى
(٤٢ب) ياصاح هل أبصرت برقا خافياً
كالسيف سُلّ على أبارق لعلع
برق إذا لمع استطار فؤاده
وبيت ذا قلق إذا لم يلمع
فسق[٢] الربيعُ الجونُ ربعاً طالما
أبصرت فيه البدر ليلة أربع
ولو استطعت سقيته سَيْل الغنى
من كفّ يوسف بالأدر الأنفع
بندى[٣] فتىً لو أن جود يمينه
للغيث لم يك ممسكا عن موضع
للمعتفين رخاه ريح سجسج
والمعتدين عجاج ريح زعزع

(١) فى الروضتين ٢٩/٢ « مابال » .
(٢) « عفى » فى الروضتين ٣٠/٢ .
(٣) « بيدى » فى شرحه .

ربّ المكارم وُضّحا لم يستتر
بدنيّة يوما ولم يتقنّع
ومديم بذل النفس غير مفرط
وكثير بذل المال غير مضيّع
فإذا تبسّم قال : ياجود اندفق
فيضا وياسحب الندى لا تقلعى
وإذا تنمرّ قال : يا أرض ارجفى
بالصاهلات ، وللجبال تزعزعى
وإذا علا فى المجد أعلى غاية
قالت له الهمم الجسام : ترفّع
ثبت الجنان — إذا القلوب تطايرت
فى الروع — يعدل ألف ألف مدرّع
فَضُل الورى بفضائل لم تتفق
فى غيره ملكا ولم تتجمّع
مارام صعبَ المرتقى متصاعداً
إلاّ وكان عليه سهل المطلع
جمع الجيوش فشَتّ شمل عداته
مافرّق الأعداء مثل مجمّع
لم يثنه عن نصره حلفاؤه
عَدَدُ العدوّ ولا بعاد الموضع
بجحافل مثل السيول تدافعت
وإذا السيول تدافعت لم تدفع
(١٤٣) إنْ يتبع فلكَم له من تابع
أوفى وأوفر عزة من تبّع

من دوحة شاذيةٍ أرِجَتْ لها
الدنيا لطيبِ شـذاً لها متضوع
والناثرين الهـام يبرق بيضه
والخارقين مضاعفات الأذرع
قوم إذا ارتفـع الصريخ تبادروا
نحو الحمام بكل أبلج أروع
والواصلى قُصْر الظبى بخطاهمو
والقاطعين بهـا طوال الأذرع
لا يغرُرَنّ الرومَ بعـدُ ديارهم
إن الخليج عليك أقرب مشرع
لو أن مثل البحر سبعة أبحر
من دونهم وأردْتهم لم تمنع
كم وقفةٍ لك فى الوغى محمودة
أبداً وكم جودٍ حميـد الموقع
والطير من ثقـة بأكلِ مُشْبِعٍ
تبعت جيوشك فوق غاب مُشبِـع
والناس بعدك فى المكارم والعلا
رجلان : إما سارق أو مدّعى
يا غيث منسكب وَماحِــلَ مربعى
بنداك إلا ذا غـدير مترع
راجعْتُ فيك الشعر بعد طلاقه
طمعا بجودك أى موضع مطمع
لولاك لم أرض القنوع وذله
من بعـد طول تعزّز وتقنّع

فسؤال جودك عزةٌ للمجتدى
ونداك تشريف ورفعة موضع
فاسلم على مرّ الزمان ممتعا
بالملك دهراً والمحل الأرفع
فإذا بقيت فلست أحفل من مضى
وإذا حييت فما أبالى من نُعِى

* * *

ثم إن السلطان بقى بحمص أياما قلائل ورحل منها قاصداً إلى حماة فنزل بها، وكانت [حماة] لوالدى(٤٣ب) الملك المظفر وكنا معه، فأمره السلطان أن يرتب أمور حماة ويرتب أحوال ثغرها فعمل ما أمره ، وبقى السلطان بحماة يومين ثم رحل عنها يريد حلب وفى عزمه النزول عليها، فبينا[1] نحن سائرون وإذا قد وصل كتاب مظفر الدين كوكبورى[2] بن [زين الدين] على [بن بكتكين] كوجك ، فأعلم السلطان بوصوله إلى خدمته والدخول تحت أمره وطاعته ، فلم يلبث أن وصل مظفر الدين [كوكبورى] واجتمع بالسلطان وخلى به وأشار عليه بعبور الفرات والاستيلاء على تلك الممالك والولايات، وقال له: «أنا بين يديك وناصح لك ومحب لأيامك، وقد علمت ما المواصلة عليه من نكث إيمانك وعهودك ، وإذا ملكتَ تلك البلاد

---

(١) يستفاد من هذا الكلام ان مظفر الدين كوكبورى وصله وهو سائر الى حلب بعد رحيله عن حماة ، على حين ان رواية ابن الاثير : الكامل ١٩٦/١١ تنص صراحة على أن هذا الكتاب وصله « وهو يحاصر بيروت يعلمه انه معه ، محب لدولته ، ووعده بالنصر اذا عبر الفرات . . فسار صلاح الدين عن بيروت » . يضاف الى هذا ان السبب الذى حدا بمظفر الدين كوكبورى لهذا الموقف هو أن الوحشة كانت قد دبت بينه وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل ، ومجاهد الدين قايماز ، والواقع ان كوكبورى كان فى نفسه أحن من خصاحب الموصل ، ومن ثم فقد ألح على صلاح الدين ان يبدأ بالموصل عقب انتصاره فى نصيبين كما سيلى هنا ص١٠٢ — ١٠٣ راجع أيضا ابن واصل : مفرج الكروب ١١٦/٢ — ١١٩ .

(٢) فى الكامل ١٩٦/١١ « كوكبرى بن زين الدين على بن بكتكين » .

واستوليت عليها يبقى لك من ورائك ذخيرة ونجدة ، وأنت بعد ذلك على أثناء عزمك،وإن قصدتَ حلب فإنها تشغلك عن الأمور ومهماتها والجزيرة وولاياتها ، وقد حصلت لك المحبة العامة والمهابة فى قلوب الناس ، ومتى عبرْتَ الفرات سَلّمَتْ إليك البلاد وأطاعتك العباد، فملكتَ حران والرها والرقة والخابور [١] ونصيبين وسائر المواضع وملكت الموصل لامحالة ، وما هناك فى تلك الجهات أحد يقدر على عصيانك » ، فشكره على ما ظهر منه واستوثق منه وودعه ورجع إلى حران .

وأما السلطان فإنه توجّه نحو ألبيرة ومد الجسر وأمر الناس بالعبور ، وكانت ألبيرة قد طمع فيها صاحب [٢] ماردين فاستولى على مواضع من أعمالها ، فلما سمع بوصولنا إلى الفرات انهزم من كان من أصحابه بتلك الخطة ، فأعدنا إليها شهاب الدين محمد بن إلياس الأرتقى ، وشرعنا فى أمر العبور ، وبدأنا ننقل الأثقال إلى بطون السفن خوفاً من ازدحام الناس على الجسر ، وضرب كل منا خيمة بالجانب الشرقى [و] تحوّل السلطان عنه وتخفف نحوها ثقله (٤٤ ا)، وأمددنا من معاقل الأرمن بسفن كثيرة فعبر الناس كافة ، فلما قطعنا الفرات كاتبْنَا [٣] أصحاب الأطراف ليدخلوا فى الطاعة ، فمن سلم سلمت عليه بلاده ، ومن أبى توجّهْنا إليه ، فأول من وصل إلينا رسول نور الدين محمد بن قرا أرسلان [بن نعمان بن أرتق]

---

(١) اسم لنهر كبير مخرجه من رأس عين يصب الى الفرات من أرض الجزيرة ، وهو يستقبل فى يساره مياه نهر ماردين ويصب فيه أسفل من ذلك نهر الهرماس الاتى من نصيبين ، راجع ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٤٤٤/١ ، لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٧ .

(٢) هو قطب الدين أيلغازى بن نجم الدين ألب بن تمرتاش بن أرتق .

(٣) أورد ابن واصل : مفرج الكروب ١١٧/٢ فقرة من الكتاب الذى أرسله صلاح الدين الى ملوك الاطراف لما نزل على ألبيرة وهى قوله « من جاء مستسلما سلمت بلاده حتى أن يكون من أحباء السلطان وأتباعه ومساعديه على جهاد الكفرة » .

صاحب حصن كَيْفا[١] بذكر وصوله إلى الخدمة السلطانية ويذكر ما سبق إليه من إحسان[٢] البيت الأيوبى .

* * *

ذكر وفاة عمى فرخشاه عز الدين

ولما عبر السلطان الفرات وافاه النعىّ بوفاة[٣] عمى عز الدين فرخشاه فتقدم فى الحال إلى شمس الدين [محمد بن[٤] عبد الملك] بن المقدم بالعود إلى دمشق وكتب له منشوراً[٥] بولايتها ودخول من بها تحت طاعته، فسار من وقته إلى دمشق وتوجه السلطان إلى الرها .

---

(١) الضبط من مراصد الاطلاع ١/٤٠٧ اذ قال فى شأنه انه بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين امد وجزيرة ابن عمر من دياربكر ، وذكر لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٤٤ — ١٤٥ انه سمى عند الروم Kiplas أو كيف Ceple انظر أيضا ياقوت : معجم البلدان ٢/٢٧٧ .

(٢) يقصد المؤلف باحسان البيت الايوبى أن الحال بين صلاح الدين ومحمد بن قرا ارسلان كانت قد استقرت على ان يقوم السلطان بحصار أمد ويمتلكها ثم يسلمها الى ابن قرا أرسلان ، وكان هذا الاتفاق قد تم وقت وجود الاخير لدى صلاح الدين بالشام .

(٣) كانت وفاة الملك المنصور عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب صاحب بعلبك فى جمادى الاولى سنة ٥٧٨ هـ ، انظر ابن الاثير : الكامل ١١/٢٠٠ ، وابن واصل : مفرج الكروب ٢/١٢٤ — ١٢٦ ، والمقريزى : السلوك ١/٧٩ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان وابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب .

(٤) الاضافة من ابن واصل : مفرج الكروب ٢/٢٥٠ — ٢٥١ .

(٥) المنشور اصطلاح خاص بهذا العصر والتالى له فى مصر المملوكية ، وهو أمر سلطانى ويختلف باختلاف مرتبة الصادر اليه ، فان كان من اعلى المراتب من الامراء كتب فى قطع الثلثين من الورق ويكتب فى طرفه من يمين الورق بغير هامش « منشور شريف » ويكون هذا لمقدمى الالوف بالديار المصرية سواء أكانوا من أولاد السلطان أو الخاصكية وكذلك جميع النواب الاكابر بالممالك الاسلامية والمقدمون بدمشق ، أما ان كان الصادر اليه من أمراء الطبلخانات بمصر والشام فيكتب له فى قطع النصف ، وان كان من أمراء العشرات مطلقا بسائر الممالك وكذلك الطبلخانات من التركمان والاكراد فيكتب فى قطع الثلث ، وان كان من جملة المماليك السلطانية أو مقدمى الحلقة أو رجالها فيكتب فى قطع العادة المنصورى ، انظر القلقشندى : صبح الاعشى ١٣/١٥٨ .

ذكر مسيرنا الى الرها وفتحها

ولما وصلنا إلى الرها حصرناها أياما [من شهر جمادى[1] الأولى]، وكان فيها الأمير فخر الدين مسعود بن الزعفرانى ، فأخذ فى الجدّ والتشمير والامتناع ، فخاف عاقبة ذلك فأرسل إلى السلطان بتسليمها[2] طلبا للسلامة ، فأنعم بها السلطان لمظفر الدين [كوكبورى] إضافة مع حران ، ثم توجهنا إلى حران[3] ودخلنا منها إلى الرقة .

ذكر النزول على الرقة وفتحها

ثم إن السلطان توجّه من حرّان إلى الرقة فنزل عليها وحاصرها، وكان فيها الأمير قطب الدين ينال بن حسّان [المنبجى] ، وكانت قد سبقت منه إساءة وسوء تدبير رجع عليه وباله ، فرآى أنه لا طاقة له بعساكرنا فأذعن وسأل الأمان ، وسلم الرقة وعصم نفسه وماله وخرج منها بجميع ما ملكه ماخلا ذخائر عدده ورجاله[4] وفارقناه ومضى لحاله وأحكم السلطان الأمور بها ورتب[5] أحوالها وجعل فيها بعض الخيام ثم مضى منها متوجها

---

(١) الاضافة من ابن الاثير : الكامل ١٩٦/١١ .

(٢) وقد سلمها الى الصلاح الدزدار (الحارس) الموكل بها على مال أخذه منه بناء على رواية ابن الاثير : الكامل ١٩٦/١١ .

(٣) عرفها ابن عبد الحق فى مراصد الاطلاع ٣٨٩/١ بانها مدينة قديمة قصبة ديار مضر ، وقد زارها الرحالة المسلم ابن جبير قرابة هذا التاريخ الذى تدور حوله هذه الاحداث فوصف جامعها وسورها واسواقها المسقفة كلها بالاخشاب ، راجع أيضا المقدسى: أحسن التقاسيم ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، اما الرقة فمن بلاد الجزيرة ، انظر مراصد الاطلاع ٦٦٢/٢ ،
Dussaud: Topographie Historique de la Syrie, pp. 479 et seq.

(٤) كلمة غير مقروءة فى الاصل .

(٥) اكتفى المقريزى : السلوك ٧٨/١ فقال فى شأن حملة صلاح الدين على الرقة « انفصل عن حران الى الرقة فملكها وما حو نها » .

إلى عرابان[١] ، فلما قرب منها خرج (٤٤ ب) للقائنا رجالها ونساؤها واستبشروا بقدومنا وخيمنا على ظاهرها ، فوضع السلطان ما كان عليهم من ضرائب المكوس، وبذل لهم العدل الواسع والإحسان وأزال ما كان من المكوس أيضا بماكسين وسائر المواضع بالخابور ، ثم قطعنا نهر الخابور على قنطرة الشبتير[٢] ، متوجهين إلى نصيبين[٣] فكان نزولنا عليها بعد ثلاث ليال وقد تحصنت وتمنعت ، فالستائر على أسوارها مصفونة ، والمنجنيقات على قلعتها مستديرة ، فأشفقنا فى حصرها من سفك الدماء وهتك الحرم ، فوكلنا بها من يمنع من الدخول والخروج ، وسلطنا ناسنا على القلعة ووالبها ، فعرف أنه لا محيص له من المحاصرة ، فأرسل بعد أيام فى الاستسلام وطلب أماناً من السلطان ، فتسلمها[٤] منه بما فيها من الذخائر ، وأزلنا ما كان فى البلد من الضرائب والمكوس ، وعوّل السلطان فى ولاية نصيبين على الأمير حسام الدين أبى الهيجاء السمين ، وفى ولاية الخابور على جمال الدين خوشترين .

* * *

ذكر الوصول الى الموصل والنزول عليها

ولما رتب السلطان أمور نصيبين وأحوالها توجه منها بجميع عساكره إلى الموصل فنازلها[٥] من أقطارها بجموع العساكر نوقف هو وجماعة

---

(١) وقد تحذف الالف الاولى فى بعض الاحيان ، وعلى هذه الصورة جاءت فى مراصد الاطلاع ٩٢٧/٢ حيث عرفها بانها « بليدة على الخابور من أرض الجزيرة » اما المقدسى راجع بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٢٧) فقد قال عنها « أنها تل حولها بساتين ، والى جنوبها فى نصف الطريق بينها وبين قرقيسياء ماكسين ، وكان القطن يكثر فيها » ، انظر ايضا Dussaud: op. cit., pp. 463 et seq.

(٢) كتب هذا الاسم على رسمه الوارد فى الروضتين ٣٢/٢ .

(٣) مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى الشام ، وكانت تعرف عند الروم باسم Nisibis انظر لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٤ – ١٢٥ والمصادر التى اعتمد عليها فى وصفها فى مختلف العصور .

(٤) أى أنه تسلم منه قلعة نصيبين .

(٥) كانت منازلته اياها يوم الخميس ١١ رجب ٥٧٨ هـ ، راجع ابن واصل : مفرج الكروب ١٢٠/٢ .

حلقته مما يلي باب[١] الروم [محاذى[٢] باب كندة] ، وجعل والدى من جهة الشرق بباب شرقى ، وأخاه تاج الملوك بورى عند باب العمارى فضايق البلد أشد مضايقة ؛ وكان صاحب الموصل حنيئذ أتابك عز الدين مسعود بن مودود ونائبه مجاهد الدين قايماز قد تولى حفظ البلد ، وكان قد كاتب[٣] الديوان العزيز واستشفع إلى المواقف المقدسة الناصرة لدين الله باستصلاح شأنه وكان رسول عز الدين ابن أبى الصاحب أستاذ الدار العزيزة يتولى مهامه فحسّن لأمير (٤٥ ا) المؤمنين — ثبت الله دعوته — إنفاذ شيخ الشيوخ بالشفاعة إلى السلطان .

ذكر وصول رسل الخلافة

ووصل إلى السلطان[٤] الخبر بوصول رسل الخلافة وهم : صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير ومعهما من خواص الديوان[٥] جماعة كبيرة

---

(١) لعله يقصد الناحية المواجهـــة لبلاد الروم ، فقد ورد فى لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٤٠ — ١٤١ عبارة باب ا لروم فى وصف آمد وذكر — نقــلا عن المقدس أن ذلك فى تخوم المسلمين بوجـــه الروم .

(٢) الاضافة من الكامل لابن الاثير ١١/١٩٧ .

(٣) الوارد فى مفرج الكروب ١٢٢/٢ان صاحب الموصل سير القاضى بهاء الدين بن شداد رسولا الى الديوان العزيز ، انظر ايضا الروضتين ٣٣/٢ .

(٤) تفيد العبارة الواردة بالمتن ان الافادة الخليفية جاءت الى صلاح الدين من أجل اصلاح الامور بينه وبين صاحب الموصل على أن ابن شداد كان قد انفذه عز الدين مسعود رسولا الى الخليفة سائلا اياه ان يبذل من رأيه لدى صلاح الدين ما يمنعه من الهجوم على الموصل ، الا ان الديوان العزيز لم يقم بعمل جدى يرضى به صاحب الموصل بل اكتفى بان بعث الى شيخ الشيوخ — وكان فى صحبة صلاح الدين — يطلب منه مفاتحته فى الصلح ، ولقد ورد فى مفرج الكروب ١٢٢/٢ قوله على لسان ابن شداد « أتيت بغداد .. مستنجدا بهم فلم يحصل منهم سوى الانفاذ الى صدر الدين شيخ الشيوخ — وكان فى صـــحبة السلطان — يأمرونه بالحديث فى الصلح » ومن ثم فانه يستدل من قول ابن شداد على أن شيخ الشيوخ كان مع السلطان من قبل ، ومما يؤكد هذه الرواية ما يشير اليه ابن الاثير : الكامل ١١/١٩٨ فى قوله « كان صدر الدين شيخ الشيوخ قد وصل اليه قبل نزوله على الموصل ومعـــه بشير الخادم .. فى الصلح فاقاما معه على الموصل »

(٥) ممن أشار اليهم المقريزى فى السلوك ٨٢/١ القاضى محيى الدين أبو حامد بن كمال الدين الشهرزورى وبهاء الدين بن شداد .

فتلقاهم السلطان بالرحب والإكرام وأنزلهم قريباً منه ، وشاع فى العسكر وصول شيخ الشيوخ فى الصلح وإطفاء نار الحرب ووصل أيضاً حسن الجاندار رسول مظفرالدين قزل أرسلان [صاحب أذربيجان] فى الشفاعة أيضا ، وقال جماعة من الأمراء والأجناد : « هؤلاء غدا يصطلحون ونحن نحظى بالشقاء والحرمان » . لكونهم لم يطلعوا على حقائق الأمور ، والسلطان يصرّح بإباء المصالحة وترك قبول الشفاعة واستفراغ المجهود فى شغل الحصر والناس يقولون : « هذا لا يستتم ولا يدوم » ، وفى كل يوم يناوب القتال ، ووالدى الملك المظفر يحمل من جانبه وينازل القوم ، وكذلك تاج الملوك [بورى] أخو السلطان ، وشيخ الشيوخ ينهى الناس وينكر عليهم ذلك ويصدّهم عن القتال ، وأتى إلى السلطان وقال : « إنما أتيت إليك مستشفعا فى أمر هؤلاء القوم فاعدلوا عما أنتم عليه حتى أرسل إلى القوم وأنظر ما هم عليه » ، فقال له [السلطان] : « سمعا وطاعة » ؛ فأرسل شيخُ الشيوخ إلى القوم صاحبه[١] فشرعوا[٢] يندبون كل يوم رسلهم بالمراسلات الخادعة ، فخرج أول يوم جمال الدين محاسن ومجد الدين الشريف أخو نقيب الطالبيين فحضروا عند شيخ الشيوخ فى خيمته ، وأنفذ [شيخُ الشيوخ] إلى السلطان من عرّفه وصولهم واستدعى منه إنفاذ بعض ثقاته لاستماع كلامهما فتقدّم السلطان إلى الأجلّ الفاضل وإلى الفقيه عيسى أن يحضرا وأن ينهيا إليه ما يسمعانه منهما ، فمضيا وحضرا عند شيخ الشيوخ ، فأذهبا ذلك اليوم بالكلام الذى لا محصول له ولا فائدة فيه ، ثم قالا : « خلنا (٥٤ب) ونخرج غدا بالأمر المعيَّن » .

فلما كان من الغد خرجوا وطلبوا مطالب كثيرة وأشياء متعدّدة[٣] ، واقترحوا إعادة البلاد المأخوذة ، وطال الحديث منهم بما لا فائدة فيه ، وكان غرضهم تمحيض الأوقات . فمكثوا على ذلك قريباً من شهر لا ينتهون

(١) يعنى بذلك بشيرا الخادم .

(٢) فى الاصل « فشرع » والمقصود بذلك المواصلة .

(٣) كلمة يمكن قراءتها ايضا « متعذرة » مما يطابق كذلك الخواتيم التى وصلت اليها هذه الرسلية .

إلى أمر مستقر ويقصدون الخدع والختل، وشيخُ الشيوخ يتوهَّم من السلطان أنه لا يؤثر الصلح، فلمَّا تبيَّن السلطان ذلك منه دخل لهم تحت ما أرادوه، واستقر الأمر على أن يردّوا على السلطان حلب[1] ويردَّ عليهم جميع ما اقترحوه، وكان قد تبيَّن الأجلّ الفاضل فحوى مقالهم وما هم عليه من الخداع والمحال، فانقطع عن الحضور وتعذَّر بعذر ذكره ؛ وكان الفقيه عيسى يحضر لسماع مقالتهم وإنهائها إلى السلطان، ثم انقطع الفقيه عنهم فوجدوا بذلك مهلة، فكانوا فى أثناء ذلك يستنجدون ملوك الأطراف ويظهرون الوفاق حتى تبيَّن للناس ما عليه من الخلاف. واستقر أن يدخل شيخ الشيوخ [إلى المواصلة] ليبْلُوَ ما عندهم.

* * *

ذكر دخول شيخ الشيوخ الموصل

ولما طال الأمر ولم يتحقق من المواصلة ما هم عليه استقرّ أن يدخل إليه شيخ الشيوخ لإبرام العهد وإحكام العقد، فدخل إليهم، فكان عندهم يوماً وليلة، فرآهم متنكّبين عن سلوك النهج وآراءهم مختلفة، فذكر لهم ما قاله رسولهم فأنكروه، وقالوا بعد كلام طويل : « إن أراد صلاح الدين وفاقنا فليرحل عنّا ويردّ بلادنا ونحن نخلى بينه وبين حلب ولا يطلب منا مساعدة، لأن لنا مع عماد الدين زنكى يمينا وعهداً، فإن رضى [صلاح الدين] بهذا وإلا فما سمع الناس، ولا قلنا ».

وكان قد استقر مع الرسل أنهم يسلمون إلى السلطان حلب ويستعهدون منه البلاد فندموا على ما قدَّموه من التقرير، وتبيَّن لهم ما كان المواصلة عليه من الحنث (١٤٦ ا) والمخادعة، فانصرف شيخ الشيوخ من عندهم متوجها إلى بغداد، فجاءوا إليه وتضرَّعوا له وقالوا : « ترجع إليه وتعيد عليه ما سمعته

(١) الواقع ان الاتفاق — كما يشير ابن الاثير : الكامل ١١/١٩٨ — لم يتضمن موافقة المواصلة على تنازلهم لصلاح الدين عن حلب وانجادهم صاحبها عليه .

منا ، وتلطَّفْ به فى الخطاب » ، فلما اجتمع بالسلطان استعفى من التكلم واستوفى حديثَه ما سمعه من الأقسام ، فقال له [صلاح الدين] « هذه أشهر شراف وقد عزمنا على الرحيل ونَتَسَبَّبُ لوصولك الموصل » ، وكان نزول السلطان عليها فى رجب وعشرة أيام من شعبان .

* * *

ذكر رحيل السلطان الى سنجار [1] وحصارها وفتحها

كان[2] مَن بسنجار من المواصلة – مدة مقام السلطان حصار الموصل — يقطعون دونه من أراد الوصول إليه ، فأمر السلطان ابن اخيه — والدى الملك المظفر — أن يمضى بحصر سنجار ، فسار بمن معه من العسكر حتى صبح بأرنجان ، فوافاه عسكر مجرد من المواصلة إليها ، فعبى أصحابه ميمنة وميسرة ، وعطف بهم فأحاط بهم[3] فكبسهم جميعا وأخذ خيولهم وعددهم ، ووكل بهم من ردّهم إلى الموصل رجالة ، واحتبس عنده جماعة من مقدميهم ، وكتب بخبرهم إلى السلطان ، فلما وصله ذلك رحل من الموصل إلى سنجار بجميع عساكره ومعه رسل الخلافة ، ونزل على سنجار بعد ليال فكان نزوله عليها فى العشر الأوسط من شعبان ، فضرب مخيَّمه على عيونها ، واقتسمت عساكره المنازل بأقطارها ، وبدأهم بالمراسلة ، وخوّفهم عواقب المخالفة ، فأبوا إلا الجلاد ولجوا فى العناد ، فأمر السلطان بمضايقتهم ، ونصب عليها منجنيقا . واشتد النزال ودخل شهر رمضان فأمر السلطان بالإحجام عنهم والاحتراز من إراقة الدماء ، وكان فى كل يوم يركب للإرهاب ، وهم مع ذلك يبالغون فى التحفظ ، فجاء إلى السلطان ليلة من الليالى مَن أخبره أن الحراس نيام ، فندب

---

(١) انظر مراصد الاطلاع ٢/٧٤٣ ، وفيما يتعلق بالطرق بينها وبين الموصل ونصيبين وامد والرقة انظر لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٥٧ — ١٥٨ .

(٢) تتشابه هذه العبارة وعبارة ابن الاثير فى الكامل ، ١١/١٩٨ س ١٥ — ١٦ .

(٣) يعنى المواصلة .

إليهم جماعة من أصحابه فقبضوهم (٤٦ ب) جميعا فأصبح الذين بسنجار قد انكسرت شوكتهم وضعف بأسهم، فأنفذ شرف الدين [أمير أميران هندو بن مودود] أخو أتابك [الموصل عز الدين] يطلب أماناً فأجيب إلى ما سأله[١]، وسيرت إليه هدايا وتحف وعطايا، وخرج من سنجار [إلى الموصل[٢]] بكوسه وعلمه وأجناده ونعمه وحرمه، وتسلم السلطان سنجار وقلعتها وخرج إليه أعيانها واستبشروا بقدومه، وأسقط ما كان بها من المكوس والضرائب، وجعل فيها والياً : [هو] الأمير سعد الدين[٣] [مسعود] بن [معين الدين] أنر، وكتب رياستها لأحد بنى يعقوب، وعول[٤] منهم - فى قضائها وتنفيذ أحكامها — على نظام الدين نصر بن المظفر.

* * *

ذكر رحيل السلطان من سنجار وتوجهه الى نصيبين ورجوع شيخ الشيوخ الى بغداد وذلك فى العشر الآخر من شهر رمضان من السنة المذكورة

ولما رتب السلطان الأمور بسنجار أحضر الأمراء وأصحاب المشورة، فأشاروا عليه بالإقامة بمكان يحملهم حتى ينقضى فصل الشتاء، ومع انقضائه يتوجه بهم حيث يشاء من الأماكن والبلدان، فامتثل ما أمروا به، ثم نهض

---

(١) يستفاد من كلام ابن الأثير، الكامل ١١/١٩٨، انه يلوم شرف الدين على تسرعه فى الاستسلام لانه « لو قاتل على تلك الناحية لاخرج العسكر الصلاحى عنها ولو امتنع بالقلعة لحفظها ومنعها ولكنه عجز ».

(٢) الاضافة من مفرج الكروب، ٢/ ١٢٣.

(٣) هو أخو عصمة خاتون زوجة صلاح الدين التى تزوجها بعد وفاة نور الدين عنها سنة ٥٧٢ هـ، وقد زوج صلاح الدين اخته لسعد الدين هذا.

(٤) هذا الخبر غير وارد فى ابن الأثير ١١/١٩٨، ولا فى مفرج الكروب ٢/١٢٣، ١٤٢.

لوداع شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير بعد ما أصحبهما من التحف السنية والهدايا المرضية للمواقف المقدسة الناصر لدين الله صلوات الله عليها ، وكتب على يده[١] كتابا إلى الديوان العزيز بما رأى وشاهد من أحوال المواصلة وما افتعلوه من سوء التدبير والمحال والخداع .

ورحل السلطان إلى نصيبين فحين قدمها شكا أهلها من أبي الهيجاء السمين فأمر بصرفه عنهم واستصحبه معه[٢]، وجعل بها بعض أمرائه ، وخرج منها متوجها إلى دارا[٣] فتلقاه أميرها صمصام الدين بهرام الأرتقي فأكرمه وأنعم عليه وشرّفه ، ورحل من دارا متوجها إلى حران .

ولما وصلنا إلى حران ضرب السلطان مخيمه فى ظاهرها، وأقمنا (٤٧ ا) هناك للاستراحة مشتغلين بشكر الله تعالى على نعمه . فأمر السلطان والدى الملك المظفر بالرجوع إلى حماة بعسكره فرجعنا من هناك ، وأمر جماعة من الأمراء بالرجوع إلى أماكنهم وبلدانهم ، وأقام السلطان بظاهر حران فى خواص أصحابه بقية[٤] شوال وذى القعدة وأياما من ذى الحجة ، فلما رأى المواصلة انفراد السلطان عن أصحابه بحران وتفرقهم عنه فى البلاد حملهم جهلهم على أن اجتمعوا وتحاشدوا ، وقصدوا حربه طلباً لغرّته ووحدته .

ذكر السبب فى ذلك :

لما كان السلطان محاصرا الموصل ووصلت رسل ملوك الأطراف والجوانب إليه شافعين لصاحبها ، وكان فيهم رسول شاه أرمن [صاحب

---

(١) أى على يد شيخ الشيوخ .

(٢) فى الاصل « معهم » ولا يستقيم المعنى تماما بهذه الصورة ، وقد صححت أيضا على ما اورده ابن الاثير : الكامل ، ١٩٨/١١ من أن صلاح الدين استصحب ابا الهيجاء « معه » الى حران بعد صرفه عن سنجار .

(٣) دارا بالقصر بلد بالجزيرة فى لحف جبل ماردين ، بينها وبين نصيبين ، من بلاد الجزيرة ، وهى واقعة على بعد بضعة أميال شرقى دنيسر ، انظر مراصد الاطلاع ٥٠٤/٢ ، لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٦ ، وجدول قدامة فى Dussaud : Topographie Historique de la Syrie, p. 497

(٤) نص ابن الاثير : الكامل ، ١٩٨/١١ ، على أن وصوله الى حران كان فى أوائل ذى القعدة سنة ٥٧٨ هـ .

خلاط[١]] فارتحلنا عنها إظهاراً لقبول[٢] الشفاعة الإمامية الناصرةلدين الله وارتحلنا إلى سنجار ، فلما حصرناها وصل سيف الدين بكتمر[٣] — وكان أعز أصحاب شاه أرمن — وبذل للسلطان فى الشفاعة فى سنجار كل ما أمكنه ، واشترط عليه أشياء ماقبلها ، فكلفه السلطان أموراً استقلها ، فنفر طبعه ، وأراد السلطان تشريفه[٤] فلم يوافق على ذلك وقال قولا غليظا ، وسار إلى صاحبه فأغراه إلى آن خرج بجميع عساكره ، وكان شاه أرمن سكمان خال قطب الدين صاحب ماردين ، وقطب الدين إيلغازى بن ألبى بن تمرتاش خال عز الدين أتابك الموصل، فكتب إليه واستدعاه فخرج، فكان اجتماع شاه أرمن وعسكر المواصلة مع صاحبها بحوزم ، وهى ضيعة من ضياع ماردين ، وأتاهم عسكر حلب والياروقية وكانوا جمعاعظيما ، وبلغ السلطان ذلك فلم يكترث به ، وكتب إلى أمرائه العائدين ، فأول من بادر إليه بالوصول والدى الملك المظفر ، وكان وصولنا من حماة إلى حران فى خمسة أيام (٤٧ ب) وقال للسلطان فى ساعة وصوله : «قم بنا إلى القوم» ، فقال له : « إنهم فى كثرة ولا بأس بالاحتراز ، وهذا عشر شريف[٥]» ، فلم يزل حتى وافقه السلطان على رأيه وسار بمن معه من غير انتظار للعساكر

---

(١) هى من مدن أرمينية واعتبرها ابن عبد الحق البغدادى : مراصد ٤٧٦/٤ قصبة أرمينية الوسطى ، وقد ورد وصفها الجغرافى والعمرانى فى المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٣٧٧ .

(٢) الواقع ان رواية ابن الاثير : الكامل ، ١٩٧/١١ تختلف فى سبب رفع صلاح الدين الحصار عن الموصل عما هو وارد بالمتن فهو عنده لم يغادرها « لقبول الشفاعة الامامية » بل لان صلاح الدين صادف العنف من المواصلة فى الدفاع ، « ورأى السور والفصيل وقد ملئا من الرجال وليس فيها شرافة الا وعليها رجل يقاتل .. فعلم انه لا يقدر على أخذه وانه يعود خائبا » فعاد باللائمة على مظفر الدين وناصر الدين بن شيركوه وقال لهما: «غررتمانى واطمعتمانى فى غير مطمع ، ولو قصدت غيره قبله لكان اسهل أخذا بالاسم والهيبة التى حصلت لنا ومتى نازلناه وعدنا منه ينكسر ناموسنا ويفل حدنا وشوكتنا » .

(٣) وهو الذى ملك خلاط بعد شاه أرمن ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، ١٩٩/١١ .

(٤) أى يخلع عليه خلعة ويدنيه بصلة .

(٥) يعنى انه العشر الاول من شهر ذى الحجة .

فنزل رأس عين ، فطار خبره إلى القوم فولوا منهزمين يتبع بعضهم بعضا ، وذلك يوم عرفة من ذى الحجة ، فرجع شاه أرمن إلى خلاط والمواصلة إلى الموصل ، واعتصم صاحب ماردين بحصنه .

وأما عسكر حلب فإنه لم يقدم على الرجوع إليها ونحن على طريقه فتفرقوا ، فمنهم من مضى إلى الموصل ثم رجع إلى عانة فعبر الفرات وطلب حلب .

وأما السلطان فإنه نزل بحوزم وضرب مخيمه بها ، وكان بها قصر مشيد لصاحب ماردين ، فأقام فيه تاج الملوك [بورى] أخو السلطان برسم النزهة .

* * *

فصل من كتاب الى الديوان العزيز من انشاء الفاضل

« اجتمع المواصلة وشاه أرمن وصاحب ماردين ودولتشاه صاحب أرزن وبدليس وغيرهم على قصد الخادم[١] حين ظنوا أنه تقلل من عسكره وندب إلى الكفار من أمرائه من اكتفى من مغيبه بمحضره ، وقدروا أنه يتم لهم اغتراره ، ويمكنهم عواره ، ويتناصرون عليه قبل أن يجتمع أنصاره ، ونزلوا تحت الجبل ، فلما صح لهم قصد الخادم ظنوا أنه واقع بهم ، فأخذوا أعنة الفرار بقوة ، وذكروا ما فى لقائه من عوائد عندهم مخوفة وعنده مرجوة ، وسار كل فريق على طريق ، بكيد عدو وفعل صديق ، معتقلا مالا يهتز ولا يعتز ، ومتقلداً مالا يرقى ولا يريق ، وأعدى أنفسهم بجمع ليس له تبشير ، وإن كان ما هو جمع سلامة بل هو جمع تكسير » .

* * *

---

(١) يعنى بذلك نفسه ، اى صلاح الدين .

ذكر مسير السلطان الى امد والنزول عليها

ولما رجع السلطان من الموصل كتب إلى المواقف[1] . . . . . .

... ...

... ...

(٤٨ ا) عليه عوضا عن يده ألف دينار ، فحمل ابن الضحاك إلى الديوان العزيز وترك فى التوكيل ، وعجب الناس من تقدم الخليفة فى حق المتصرّفين بالقطع ، فحكى أبو طالب صاحبَ باب المراتب عن أستاذ الدار ابن الصاحب أنه سمع من الخليفة أنه قال : « لما كنت أميراً وكان لى إقطاع فى نهر ملك ، وكان هذا أبو الحسن بن الضحاك عاملاً فى نهر ملك نفذ جماعة من أصحابه وأخذ من إقطاعى رجالاً ، فمضى إليه خالص الخادم وخاطبه فى معناهم ، وسأله أن يطلقهم أو يقتصر على البعض فلم يقبل ، فجاء إليه وهو فى دار ابن العطار وكرّر السؤال عليه فقال له :

« والله ما أطلق منهم رجلا واحداً ، وتقول لسيّدك أبى العباس أحمد : الأميرُ إذا صار خليفة يقطع يدى ، ولقبّه بكل قبيح .

« فلما صار الأمر إلىّ وكتب صاحب الديوان أنه قبض عليه ، ذكرت هذه الحال وتقدّمت بقطع يده كما كان قد سأل ، فكتب إلىّ هذا الكلب يقول لى : إننى قد قرّرت عليه ألف دينار ، والله لابد أن أقطع يده كما كان قد سأل »، وبقى ابن الضحاك فى التوكيل إلى أن استوفى ألف دينار ومايقدر أحد أن يسأل فيه .

وحكى أن صاحب الديوان كان له مطبخ وكان لا يطبخ فيه شىء ، بل جميع ما كان يحتاج إليه من عند الناظر ، وكان فى طريق خراسان كاتب يعرف بابن جميل ، فكتب رقعة وعلّقها على باب المطبخ فيها أبيات لمرجا شاعر بنى أبى الجيرومى :

---

(١) هنا تنتهى ورقة ٤٧ ب من المخطوطة ، ويبدو ان بقيتها ضائعة اذ لا رابط بين هذا الكلام وما يليه .

رأيت مضرب شعر فقلتُ : ماذا السوادُ ؟
فقيل مطبخ نصر فقلت : أين الرماد ؟
فقيل لى : فيه بن وكامخ وجـــراد
وليس فيه سوى ذا ومجـــــال يراد

(٤٨ ب) فخرج صاحب الديوان أبو على نصر بن الوكيل راكباً ومعه جماعة وأصحابه ، فرآى الرقعة على باب المطبخ فأخذها وقرأها ، فقال له احد أصحابه : « هذا فعل ابن جميل الكاتب » فقصده وكتب إلى الخليفة فى حقه، وصرفه من خدمته؛ ودخل صاحب الديوان إلى بغداد وهو مريض ، فما مضى عليه إلا أيام قلائل وتوفى ، وكان الخليفة — أدام الله أيامه — كبير الميل إليه والمحبة له . وكان أحسن أرباب الدولة خلقة ، وذكر أن الخليفة لما أنفذ به إلى واسط وأنفذ منها مائة ألف دينار حملا واحدا قال : « إننى أريد أن أجعل هذا — ابن الوكيل — وزيرا فإنه مليح الصورة ، وقد عرف قواعد الديوان » فنقل ذلك إلى أستاذ الدار ابن الصاحب ، فنفذ إلى طريق خراسان من أطمعه . فلما مات كان جماعة ممن كانوا ينبسطون بمجلس أستاذ الدار يهنئونه بموت ابن الوكيل ، فلما مضت أيام قلائل أنفذ أستاذ الدار فأحضر داود الذى كان مشرف ديوان الزمام أيام المستضىء بأمر الله — رضوان الله عليه — وكان قد تصوف وانقطع فى رباط شيخ الشيوخ فأحضره، واستأذن له بأن يرتب صاحب ديوان ، فبرز الأمر الشريف بذلك ، وكان لقبه « مجد الدين » فغير لقبه لأن أستاذ الدار كان يلقب بمجد الدين ولقب داود « بكمال الدين » ، ونقل إلى دار فى القرية المعروفة بقصر الخلافة . وكان مالك الدار يعرف بجلال الدين بن جعفر الذى كان صاحب ديوان فى الأيام المستنجدية ، ورُتب عليه مشرفاً صفىّ الدين أبو غالب بن الجلال وكان نصرانيا وأسلم ، وسنذكر قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى .

* * *

وفيها أشار أستاذ الدار إلى جماعة من أهل بغداد من العوام بأن يتقولوا[1] إذا ركب ابن زيادة إلى الديوان :

« ياغيث مالى بالغرام يد »

(٤٩ ا) وكانت هذه الأبيات قد ذكرت فى أيام ابن زيادة ، وكان أستاذ الدار بقصره ويريد صرفه من الديوان العزيز ، وكان يقبح ذكره ويقصده ، فكان ابن زيادة إذا ركب سمع فى السوق ضجة عظيمة من العوام « ياغيث مالى بالغرام يد » ، ليلا كان أو نهاراً .

ثم إن أستاذ الدار حسن للخليفة عزل ابن زيادة والقبض عليه ، فبلغه ذلك فخرج هارباً ، فنزل فى رباط شيخ الشيوخ وسأل أن يتصدق عليه بنفسه وأن يؤذن له بالمضى إلى واسـط ، فأذن له فى ذلك فمضى إلى واسط ولزم داره .

وأحضر أستاذ الدار عز الدين صدقة بن صدقة وأخذ خطه بألف دينار ، ورتبه صاحب ديوان موضع ابن زيادة ، وخلع عليه فى الديوان العزيز ، وتقدم أستاذ الدار إلى ابن البخارى النائب أن يوقع إلى ابن فطيرا ناظر الأعمال الواسطية أن يعترض أملاك ابن زيادة ويضيق عليه ويقصد تقبيح ذكره ، وكان سبب ذلك علمهم بحسن رأى الخليفة فيه ، وكان أوحد الزمان فى الكتابة والترسل لا تلد النساء قبله ، وكان محسوداً لفضائله ، وأقام بواسط على نهاية من الضر حتى تناهت به الحاجة ، حتى نقل عنه أنه كان ينسخ بأجرة .

* * *

وفيها ضرب سكلية بن إيلاجك أمير البصرة دراهم صغاراً وسماها ايلاجكية ، كان ذلك بعد موت أبيه إيلاجك بسنة ، ثم إن ابن فطيرا ضمن

---

(١) « يتقولون » فى الاصل .

البلاد البصرية على أن يكون ابن ايلاجك شحنة فحسب ، وكان ابن ايلاجك المذكور على غاية من البخل والشح ، ثم لم تزل أموره تتناقص إلى أن صرف من البصرة وأصعد إلى بغداد ، فلما وصل إلى بغداد أنعم الخليفة عليه بالرازان .

* * *

وفيها تقدم الخليفة بإحضار طغرل الخاص — وكان أكبر مملوك رومى — بين يديه إلى الديوان العزيز ، وأن يخلع عليه قباء أسود وعمامة سوداء ، وأخرجت له من (٤٩ ب) الدار معممة ، وأعطى فرساً وسيفاً ، وخوطب « بعماد الدين » ، وأقطع البصرة ، وجعل فى خدمته خمس مائة مملوك وكبر أمره . وذكر عن ابن الأنبارى — كاتب الإنشاء — أنه سمع من أستاذ الدار ابن الصاحب يقول : « قال الخليفة ما لأحد علينا فى هذه الدولة حق إلا لهذا — طغرل — الذى قد أعطيناه البصرة » ، وكان الخليفة يعلن بهذا القول ويكرره ، وسبب ذلك أن طغرل كان يمضى إلى الأمراء فى السر ويستحلفهم للخليفة ، وقد ألبس منهم جماعة ثياب النساء وأدخلهم إلى الخليفة قبل ولايته وهو أمير[١] ، منهم الشطرنجى وقيطرمش الشحنة وسيف الدين طغلو وجماعة من المماليك .

* * *

وفيها التجأ جمال الدين بن الحصين إلى رباط شيخ الشيوخ خوفاً من آل تنبه الشطرنجى صاحب واسط لأنه كان قد ضمن منه الأعمال الواسطية ، وحضر عنده جماعة من أهل واسط يتألمون منه ويذكرون أنه قد خرب الأعمال ، وقد أخذ جملة من الأموال للرعايا ، فكثر غضب الشطرنجى عليه لذلك ، وكان قد عمل ضمانه وانكسر عليه عشرون ألف دينار .

---

(١) يعنى بذلك الخليفة نفسه قبل توليه الخلافة .

وأما صدر الدين شيخ الشيوخ فإنه خاطب الخليفة فى معنى ابن الحصين فقال : « ماله معنا شغل ، بينه وبين خصمه الشرع » ، فتحقق ابن الحصين أنه لا منجى له من الشطرنجى، وكان(١) ذا سطوة وشدة وأكثر الناس قساوة وأشدهم تجبرا، وكان مع ذلك كريما جواداً ، وكان معطاء لاسيما إذا شرب، فلما شاهد ابن الحصين هذه الأحوال لم يجد بداً من الهرب إلى الشام والاعتصام بجناب الملك الناصر صلاح الدين .

وفيها تقدم الخليفة بنقل عماد الدين إلى البدرية ، فلما انتقل وسكن بها كان الخليفة لا يزال (١٥٠) معه إن خرج أو دخل ولا يفارقه فى سائر الأوقات.

وفيها كثر الخليفة — أدام الله أيامه — ليلا يمشى فى الأسواق ومعه جماعة، منهم نجاح الشرابى وأبو الحسن بن الكرخى وأبو العز ومحمد بن يحيى الفراش ، وكان يمضى متنكرا مرة فى زى العجم ومرة فى زى الترك ومرة فى زى الفقهاء ، وكان يعتقد أن أمره يخفى على أهل بغداد ، وكان لا يخفى مكانه للذين معه لأنهم كانوا معروفين عند الناس ، فكان كالعلم إذا اجتاز فى موضع عُرف بمن هم معه ، فكان الناس يلحون بالنظر إليه ويقفون أثره ويمضون خلفه ، ورأى أن السكوت عنهم يوجب تكدير الوقت ، وخاف على نفسه فأطلق القتل فى كل من يتوهم أنه ينظر إليه أو يقصد أن يمضى فى طريقه إلى أن انحسمت المادة ، فكان أهل بغداد إذا غلب على ظنونهم أنه فى طريق هربوا عنها الى أخرى ، وإذا صادفه أحد فى طريق ورآه بغير اختياره كاد أن يهلك من شدة الخوف ؛ وإن استغاث إليه أحد وهو فى الصيد فإن خاطبه « بمولانا » أو دعى له وعرف أنه قد عرفه ما يخلو أمره من [أحد] أمرين : إما أن يقتله أو يعرض عنه؛ ولا يقضى له حاجة ليزيل من قلبه أنه أمير المؤمنين ، إلى أن هرب الناس كافة وهان عنده سفك الدم .

* * *

---

(١) يعنى بذلك الشطرنجى .

وفيها ظهر ببغداد التشيع والإعلان بولاء أهل البيت عليهم السلام ، وكان أستاذ الدار ابن الصاحب معروفاً بذلك [هو] وبيته يرثه عن آبائه ، وأعلن بالتظاهر بلعنه معاوية ويزيد ، بحيث أن رضى الدين القزويني[1] - مدرس النظامية - كان إذا جلس بمدرسة النظامية مجلس الوعظ يسؤل عن ذلك فلا يرد جواباً ، فقام إليه رجل فى بعض الأيام وهو يعظ الناس وسأله أن يلعن يزيد فلم يفعل ، فثار الناس عليه فى المجلس (٥٠ ب) وهمّوا بقتله ، وقام جماعة من أهل بغداد وفى أيديهم العصى ورجفوا إلى المنبر ، واتصل ذلك بحاجب الباب ابن صدقة فأنفذ نائبه عطاف بن بختيار ومعه جماعة فمنعوا الناس من الفتنة ، وحملوا الشيخ رضى الدين القزوينى المدرس إلى بيت من بيوت الفقهاء مما يلى خزانة الكتب التى بالمدرسة المذكورة وغلقوا عليه الباب ووقف النائب والجماعة والذين معه إلى أن جاء الليل وأخرجوه إلى داره ، وسكنت تلك الغوغاء ومنع الناس من أذيته .

ثم تقدم إلى رضى الدين القزوينى أن يجلس بباب بدر ويكون الخليفة هناك ، فجلس وكان ذلك اليوم يوم السبت ، وقام إليه جماعة وكلّفوه بأن يلعن يزيد بن معاوية ، وكان معه ولده الملقّب بالرفيع ، فأشار إليه بلعن يزيد فصرّح بسبّه ولم يسمع أباه شيئاً[2] ، وكان الموضع فيه جماعة من مماليك الخليفة فلم يقدر أحد من الناس أن يتعرّض بنفسه بل سكت الناس ، ورأى رضى الدين القزوينى أن هذه الحال لا مندوحة لأهل بغداد عنها ، وأنه لا يقدر على المقام دون التظاهر بسب يزيد ، وأنه متى فعل ذلك هلك جميع من يتعلق به بقزوين وأخذت أمواله وأملاكه ، فمضت عليه أشهر وطلب الإذن بالمضى إلى بلده لينظر أهله ، فاستأذن له فى ذلك أستاذ الدار ابن الصاحب فأذن له من شدة بغضهم له ، وأنفذوه فى رسالة فى طريقه إلى قزل رسلان ، فمضى وأسرع

---

(١) هو الامام المفسر الفقيه احمد بن اسماعيل بن يوسف القزوينى ، المتوفى سنة ٥٩٠ هـ . انظر النجوم ، ٦/١٣٤ .

(٢) عبارة غير مقروءة فى الاصل واضطراب الناسخ فى صحة العبارة من ناحية النحو يزيد المعنى غموضا .

فى الخروج ، فعند ذلك ندم الخليفة لخروجه ، وعلموا بعد ذلك أنه لم يخرج إلا المذهب ، وخشوا من التشنيع عليهم فى البلاد .

فلما وصل إلى قزل وبلغه رسالة الديوان العزيز قال له :

« أنفذ أنت الجواب فإنى غير راجع إلى بغداد ، وإنى قد شاهدت الموت الأحمر » ، وتوجه إلى قزوين ، فكان الناس فى تلك الخطة بأسرها من الملوك وغيرهم يقصدون رضى الدين القزوينى يتبركون به ويهنئونه بسلامته .

وبقيت النظامية خالية (١٥١) من مدرس ، وفيها جماعة من المعيدين والفقهاء يذكرون الدروس ويقرءون الربعة فى كل يوم ، وهم يعتقدون أن رضى الدين يرجع ، إلى أن وقع الأياس منه .

وكان الفقيه التوقانى يعتقد أنه ربما أنعم عليه بالنظامية ، وكان كثير الخطاب والقول والاستشفاع بالناس من أرباب الدولة لأجلها ، وكان مستحقا للتدريس والتصدر بمجلسها ، غير أن الأمور بيد الله تعالى ، جارية بتقديره .

* * *

وفيها استأذن شهاب الدين الفقيه الطوسى فى الحج فأذن له فخرج من بغداد ومضى إلى مصر . وكان قد جعل الحج حجة لخروجه ، ولو عُرف منه ذلك لما مكّن من الخروج ، ولم يؤذن من بعده لأحد فى المضىّ إلى الحج إلا إذا علموا عوده إلى العراق ، وكانت معه ابنة الثقفى وماتت ، وأخذ جميع ما كان لها ، وسبب ذلك أن أستاذ الدار ابن الصاحب كان يبغضه ويقصده ، ولو بقى فى العراق لهلك[1] لأنه كان صاحب ابن العطار ،

(١) فى الاصل « هلك » .

وكان قد حضر ذات يوم فى دار أستاذ الدار وقيل له إن على بن أبى طالب عليه السلام مامللك من الدنيا شيئاً وكان فقيراً حتى إنه كان يأكل خبز الشعير فقال له الطوسى :

« هذا ما يقوله إلا من لايعرف ، وإلا على قد نقل عنه أنه أدّى زكاة أربعين ألف دينار ، وكان كثير المال وله نعمه . وإنما المبغضون له يقولون هذا » ، فقال له أستاذ الدار : « فكيف مدح على بإيثاره بخبز الشعير وبصدقته بالخاتم ؟ » فقال : « هذا كان فى ابتداء حاله وإلا بعد ذلك ملك وصار له » فقال له أستاذ الدار : « أريد أقف على هذا النقل من قاله وعمن ينقله » ، فقال له سمنديار الواعظ . « إن هذا ما سُمع » ، فقال ابن الطوسى : « يجوز أنك أنت ما سمعته » ، وطولب [ابن الطوسى] بإحضار الحجة ، فخرج حينئذ وهو يعتقد أنه يبرهن عن شىء له فيه مصلحة .

فلما خرج عرف أنه قد خاطر بدمه وأن هذه تكون من أعظم الحجج عليه، فادعى أنه قد مرض وبقى أياما (٥١ ب) وأنساهم هذه الحال ، فأنكر على أستاذ الدار كيف سمع منه هذا وسكت ، وكيف ما كلفه أن يحضر الحجة فيما ذكره عن أمير المؤمنين على عليه السلام ، وصار الأمر أكثر من أن يوصف، وصار الناس يتقولون بالأخبار عن أهل البيت عليهم السلام ويذكرون أشياء من أمور الصحابة مالا يفيد ذكره لو ذكرناه ، حتى نقل عن ابن الجوزى الواعظ [أنه] قال: « ما أكثر ما يسألون الناس عن معاوية ويزيد ويكلفونى شرح أحوالهم ، ما يكتفون منى فى هذه الأيام أنى أرجم لهم أبا بكر وعمر وأنا مخاطر » ؛ وكان الناس فى يوم عاشوراء يهجرون الأسواق ويعلنون بالنوح على أهل البيت عليهم السلام والإنشاد، لا سيما فى ناحية المختارة ومحلة الكرخ ، وهذا غلط من ابن المارستانية ، وكانت واقعته فى سنة ثلاث وثمانين سنذكرها إن شاء الله تعالى .

* * *

وفيها بذل مسعود بن جابر – الذى كان خازن المخزن وحاجبا بين يدى ابن العطار – عشرة آلاف دينار ليكون صاحب المخزن المعمور ، وكان أستاذ الدار قد تغير على ابن شبيب صاحب المخزن ، فتقدم بالقبض على ابن شبيب والتوكيل به فى داره ، وترتيب مسعود بن جابر صاحب المخزن، ولقب فخر الدين، وتقدم إليه أن يسكن فى دار ابن العطار التى [هى] مقابلة لباب الحرم الشريف ، وخلع عليه فى دار أستاذ الدار ، والمشرف عليه ابن رزين ، وكان يومئذ وكيل الخدمة الشريفة. يشهد عليه فى بيع الأملاك وشرائها، ويستأذن فى تزويج المماليك الخواص، ويشهد عليه فى العتق : كل ذلك عن الخدمة الشريفة النبوية الإمامية الناصرة لدين الله تعالى .

* * *

وفيها مات الأمير أبو منصور أخو الناصر لدين الله وغسله العدل ابن الحرانى وأخذ سلبه يحيى الفراش ، فكان من جملة ما أخذ منه أثاث وقماش وفضة يساوى عشرة ألف دينار ، وكان من جملة ذلك (٥٢ أ) مسند زركش وطراحة زركش بألف دينار وجميع ما استعمل فى غسله من طاسة فضة وطست فضة وغير ذلك ، وكان يوم موته يوما مشهوداً عظيما ، ولم يتأخر أحد من أرباب الدولة وغيرهم من كبار أهل بغداد إلا وحضر إلى الدار العزيزة .

وكانت أيضا ماتت العباسة إحدى جهات المستضىء بأمر الله وخلفت أموالا كثيرة ، وبيع ما كان لها من جهاز وأثاث بديوان الأبنية ، وأخرج لها ثوب كبير الأكمام بلؤلؤ كبار وقبقاب أيضا عليه لؤلؤ ومداس لؤلؤ ، وكان المتولى لهذه الأموال أستاذ الدار ابن الصاحب لم يشاركه أحد فى ذلك سوى يحيى الفراش ، فيأخذ [ابن الصاحب] ما يريد ويعطى ليحيى ما يريد والخليفة مشغول بمتنزهاته وصيده ، وكان ابن يونس أبو المظفر هبة الله نائب أستاذ الدار [ابن الصاحب] فى ديوان الأبنية ، وجميع هذه الحال يعلمها

وهو يكتبها عنده، ويعدّه لوقت الحاجة ويجعله طريقا إلى قتل أستاذ الدار، وأستاذ الدار لا يعلم بذلك .

* * *

وفيها تقدم أستاذ الدار ابن الصاحب إلى قاضى القضاة ابن الدامغانى أن يطالب عماد الدين بن رئيس الرؤساء بمال إخوته الأيتام ، فطالبه وأحضره وحبسه ، ثم سأل [العمادُ] أن يُنظر مدة شهرين إلى أن يحصل المال ، وكان أستاذ الدار العزيزة يريد هلاكه ، فنفذ إليه ابن البخارى نائب الوزارة ابن التعاويذى الشاعر وكان يومئذ ينوب عن ابن البخارى فى إقطاعه وهو صاحبه قبل الولاية ؛ وكان ابن التعاويذى غلام بيت رئيس الرؤساء وشاعرهم وبهم عُرِف ، وقال له : « قل لعماد الدين يقول لك ابن البخارى خذ لنفسك، وأبصر لأمرك، فأنت هالك. فإن أستاذ الدار ما قصده إلا نفسك وقد جعل المطالعة بمال الأيتام طريقاً إلى إتلاف نفسك ، وقد نصحتك » .

فاعتقد عماد الدين بن رئيس الرؤساء أن ابن البخارى (٥٢ب) قد نصحه بذلك ولم يكن ذلك نصحاً ، بل نفذ أستاذ الدار إلى ابن البخارى وقال له : « راسل عماد الدين بكذا وكذا بحيث يهرب إلى جهة من الجهات ، ويعرف الخليفة أنهم ما يقدرون يرون زمانا هو فيه خليفة ، وأنه متى هرب واحد منهم انقلع البيت[1] جميعه .

وأن ابن رئيس الرؤساء أخذ هذا الكلام بظاهره ورآه نصحاً فخرج على وجه هاربا وعليه صدرة خام وتحته أتان ، وفى رجليه نعلان من صوف، ومعه رجل صوفى يخدمه ، ولم يعلم به أحد حتى صار فى بلاد الشام ، واعتصم بالملك الناصر صلاح الدين .

* * *

(١) يعنى بذلك البيت العباسى .

وفيها هرب جمال الدين خشترين من الموصل وجاء إلى بغداد ومعه حدود ثلاثمائة فارس ببرك جميل وتجمل زائد، فوقف عند الكشك الجديد عند ظاهر السور، ونفذ صاحباً له يطلب رجلا متفقها من أهل حماة كان يلوذ فى تلك الأيام بأستاذ الدار ابن الصاحب ، فلما جاء إليه عرّفه « أن جمال الدين خشترين قد هرب من أهل الموصل وقد التجأ بالعتبة الشريفة النبوية وهو يطلبك » ، فقال الحموى : « ما أقدر أمضى معك إلا بإذن من أستاذ الدار » فقال له : «افعل» ، ومضى وعرّفه وصول المذكور واستأذنه فى الخروج إليه ، فخرج إليه .

فلما رأى المذكور ترجل له ، وترجل له خشترين وسلم عليه وسأله كيف كان الموجب ، فقال : « إننى كنت فى السنة الخالية — يعنى سنة ثمان وسبعين — قد وصلت إلى بغداد فى خدمة أتابك صاحب الموصل لما توجهت إلى الحج ومعى جماعة من الأمراء ، وكنت كثير الاجتماع بك ، وكتب الأمراء الذين كانوا معى إلى الموصل يقولون لمجاهد الدين الخادم الذى فى الموصل أن خشترين قد قرر أمره فى بغداد ، وأن الواسطة بينه وبين أستاذ الدار رجل من أهل حماة ، فأرادوا القبض على وأخذ مالى فهربت منه ، وقد (٥٣ ا) أتيت إلى هاهنا على عزم الخدمة بالديوان العزيز » . فمضى الحموى إلى أستاذ الدار وعرفه بهذه الحال ، فتقدم أستاذ الدار إلى الحموى بأن يمضى إلى خشترين ويقول له : « قد رسم أن تضرب خيمك ظاهر سور بغداد على شاطىء دجلة حتى يعين لك موضع، ونستأذن الخليفة فى معناك » ، فأنزل عند[1] جامع السلطان ظاهر السور ، وتقدم لحمل إقامة كبيرة إليه فحملت على يد الحموى .

فلما مضى ثلاثة أيام سأل خشترين أن يدخل البلد وأن يقبل الأرض بباب النوبى وأن يدخل إلى الديوان العزيز ، فأخرج إليه الحاجب على صاحب

---

(١) فى الاصل « عن » .

شمس الدين الركاب سلار صاحب الخليفة والمتولى لديوان البريد وحديث من يصل من الجوانب، فقال له الصاحب مجد الدين : « أستاذ يسلم عليك ويقول قد أذن لك أن تحضر إلى الديوان فى غداة غد ، وأمّا تقبيل العتبة الشريفة فما لك بذلك حاجة، لأن الرسل يقبّلون الباب الشريف نيابة عن مرسليهم ، [و] أنت عمّن تقبل هذه العتبة ؟ قد أعفيناك عن هذا » ، ثم مضى من عنده وأصبح فى ذلك اليوم الذى تقدم إليه فيه أن يحضر ولبس قباء أحمر باولى نسيج من ثياب أتابك صاحب الموصل ، وركب معه جماعته بالأعلام المنشورة والبيارق ومعه خادمان ، ودخل فى جماعة ومعه الحموى إلى الديوان العزيز ، وفيه النائب ابن البخارى .

فلما وصل إلى الديوان ودخل تقدّم إليه « أن اجلس على طرف الإيوان الذى فيه مسند الوزارة ساعة» . ثم أذن له بالدخول إلى نائب الوزارة، فقام ودخل إلى الستر الأول فمنع جميع من كان معه، ودخل هو والحموى فحسب ، وكان النائب جالساً فى الديوان فى حجرة الصلاة التى على باب بيت الجيش وعنده صاحب الحجاب شمس الدين بن جعفر ، فجـــذبه جمال الدين بيده إلى الأرض ثلاث مرات ، فلما قارب أن يصعدوا للصفة قال له النائب: « مرحبا بجمال (٥٣ب) الدين » ، وتحرّك إليه فتحول ، وجلس جمال الدين خشترين فقال له النائب : « كيف كنت فى هذه الحركة ؟ » فقام وخدم ، فقال له : « طب نفسا» ، ثم أخلاله المجلس ولم يبق معه سواه فحسب، وخرج الحموى مع الجماعة ثم قال له : « مايريد الأمير ؟ » فذكر له حاله مع أهل الموصل وأنهم[1] أرادوا قبضه ، « ولم يكن السبب إلا محبتى للديوان العزيز مجده الله تعالى » .

فقال له النائب : « هذا قد عرفناه ؟ نريد أن تعرفنا كم كان لك عند صلاح الدين ؟ ولم فارقته ؟ » وكيف تريد تكون عندنا بحيث نطالع

(١) فى الاصل « وانه » .

الخليفة — خلد الله ملكه ، ومهما تقدم به[١] عمل » ، فقال له خشترين : « لما كنت مع صلاح الدين كان لى عنده إقطاع بمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار صورية » فقال له ابن البخارى : « أيتم أو يصح » فقال له : « يصح أكثر من هذا الاعتداد » فقال له : « يا أمير لأى سبب فارقت هذ الحال ، هذا مبلغ كبير؟ » ، فقال : « غضبت وسببه أنى طلبت منه موضعا ما أعطانى ، فحلفت أننى لا أخدم معه وأنا ما أريد من الخليفة هذا بل ينعم ويتقدم إلىّ أن أمنع خفاجة من هذه الديار ، وآخذ ما تأخذونه ، وأحمل إلى الديوان منه والباقى آخذه أنا وجماعتى ، وما أريد أن أقول كنت ولا كان لى ، والإنسان ابن ساعته ، وأنا الساعة قد جئت » فقال له النائب : « هذا القدر كبير ، ها هنا مماليك الخليفة أرزاقهم مقررة بقدر حاجتهم حتى إننا نعطيهم من المخزن الخبز واللحم وثياب الصيف والشتاء بقدر ما يحتاجون إليه من النفقة ، وهذا القدر ما يمكن أن يعطى لأحد عندنا ، ولو أن جمال الدين قد رُبّى عندنا ما كنا نجد بحقه لصلاح الدين أكثر من أن يحمله إليه يجاهد الكفار ، ومع هذا طيّب نفسك . نذكر هذا كله للخليفة ومهما تقدم به عرّفتك (٥٤ ا) على لسان الحموى ، قم الله معك » .

فقام ولم يتحرك له .

فلما خرج قال للحموى : « أما رأيت إلى هذه الأفعال ؟ نجىء إلى صاحب عمامة لا يقوم لنا ؟ » فقال : « هذا نائب الخلافة لا يقدر يقوم لأحد إلا بإذن ، فلا تغضب من هذا ولا تتحدث به » ، ثم خرج من الديوان وأتى إلى دار أستاذ الدار فجلس على بابه ساعة ، ثم خرج الحاجب أبو الرضا فاستدعاه ، فدخل هو والحموى ، فقام أستاذ الدار قائما واعتنقه وقال له : « كيف بت وقلبى إليك وإلى تعبك ؟ » فقال له : « يامولانا قد ضاق صدرى من النائب وقد قال لى ما يُتْحَف صلاح الدين بأكثر منك » فقال له : « لا تقف عند هذا ، لو أنك عند صلاح الدين

(١) أى أمر به الخليفة .

نفذنا أخذناك منه ، أنت قد جئت إلى بلدك ودارك فلا تقف مع هذا القول » ، ثم أمره بالرجوع إلى مخيمه وقال . « أنا أكفيك المؤونة فى هذا كله » ، فخرج وهو فرحان طيب القلب من قول أستاذ الدار ، واغترّ بقوله وكلامه كما قال الحريرى : « هذا كلام كالصهباء وفعل كالحصباء » ، وأتى خشترين إلى مخيمه وهو كبير الفرح والسرور بقول أستاذ الدار ، فلم يزل فى مخيمه أياماً ولا يرى لذلك القول فائدة ولا ثمرة ، ولم يخاطب له بقليل وكثير .

ولما كان بعد أيام نفّذ أستاذ الدار إلى الحموى أحضره بين يديه وأحضر الحاجب عليّا صاحب الركاب سلاّر صاحب ديوان البريد وقال له : « تمضى أنت وهذا وتقولان لهذا الكردى أنت تعرف إشفاقى عليك ، وأنى أريد مصلحتك ، وأنى قد رأيت لك من المصلحة أن نكتب معك مكتوباً عن الخليفة يكون مضمونه أنّا سألناه[1] أن يخدم الديوان العزيز فلم يفعل وطلب العود إليك[2] والشفاعة فى حقه ، وقد تقدّم الخليفة بأن تشرّف وينعم عليك » ، فمضى الحموى والحاجب علىّ إلى عند خشترين وعرّفاه بقول أستاذ الدار ، فضاق صدره لذلك وقال : « مبارك » .

فلما مضى الحاجب [٥٤ ب] علىّ قال خشترين للحموى : ما أريد منهم كتاباً[3] ولا شفاعة إلى صلاح الدين ، [إنّ] أحَبّ ما إليه أن أعود إلى خدمته ، ولكن أريد أن تمضى إلى أستاذ الدار وتقول له : « ينعم علىّ ويسأل الخليفة أن يقبل هديتى حتّى أقدّم له قميص زرد وثياباً وخيلاً وخادمين » ، وذكر أشياء .

فمضى وعرّف أستاذ الدار ذلك ، فكتب بذلك إلى الخليفة فكتب[4] إلى أستاذ الدار يقول له : « هذا رجل غريب وضيف مايجوز أن تثقل عليه فلا تقبل منه شيئاً » ، فمضى الحموىَ وعرّف خشترين ذلك فقال : « مبارك ، أنا أبذل خمسة ألف دينار وأن ينعم علىّ بخلعة سوداء وعمامة سوداء ، وأن ينعم علىّ

---

(١) اى خشترين .
(٢) اى الى صلاح الدين .
(٣) فى الاصل « كتاب » .
(٤) اى الخليفة .

بكوسات » ، فمضى الحموى وذكر ذلك لأستاذ الدار فضحك وقال : « تقول له إن الذى تريد أن تمضى إليه ويُشفع إليه فى حقك إذا رأى أن قد أعطيناك مثل ما أعطيناه ما يطيب له ذلك » ثم قال للحموى : « أنكر عليه هذه الحالة وعرّفه الواجب » .

فمضى الحموى وعرّفه الحال فجعل يوبّخ نفسه ويلومها كيف أتى إلى بغداد وقال : « ما أقدر أرجع إلى الموصل وهذه طريق لا أعرفها » ، فقال الحموى : « اطلب من أستاذ الدار أن ينفذ معك جماعة من خفاجة يعرّفونك الطريق ويمضون معك إلى البلاد الشامية » ، فقال له : « حبا وكرامة » ، فمضى الحموى إلى أستاذ الدار وعرّفه الحال ، ثم نفذ بعد أيام إليه بالحاجب على صاحب شمس الدين الركاب سلار ، ومعه حاجب من حجاب الديوان العزيز يعرف بتاج الدولة بن أبى حرب ومعهما كتاب مختوم لا يعلم ما فيه ، سوى أنهما قالا « إنه شفاعة من الديوان العزيز إلى صلاح الدين فى حقك فقم وقبّل الأرض » ، فقام وقبّل الأرض ثم قال له الحاجب : « خذ هذا الكتاب وقبّله واتركه على رأسك » ففعل .

ثم أخرج له من خرقة قباءً [٥٥ ا] أطلس أحمر وقلنسوة زركش ، فقام ولبسهما ، ثم أعطوه نفقة مبلغها مائة دينار ، وخمس خلع لأصحابه وقيل له : « هذا برسم نفقة الطريق ، وقد تقدّمنا إلى ثلاثة[1] أمراء من خفاجة يمضون فى خدمتك إلى موضع تختار ، وتكتب معهم تعرّفنا إلى أين وصلوا معك » ؛ ثم أمر له بسفن عبر بها إلى الجانب الغربى فأقام أياماً ، ثم جاءت الأمراء من خفاجة ورحل من بغداد على طريق البريّة ، وكان حيث وصل إلى بغداد معه طير يسمى الزاع وهو الغراب الصغير ، وكان خشترين إذا مدّ الطبق ينزل هذا الطير من رأس الخيمة ، وكان قد ربّاه خشترين وألفه ، فكان معهم يطير على رءوس الأجناد ، وإذا تعب نزل على بعض الجمال .

---

(١) فى الأصل « ثلث » .

فلما توجّه إلى الشام ومعه أمراء خفاجة أوصلوه قريباً من حمص وفارقوه بعد ما خلع عليهم وأكرمهم ، وسألوه أن يعطيهم الغراب فأعطاهم إياه، فجعلوه فى قفص ، فلما رجعوا إلى جهة العراق طار الطائر من القفص ومضى ، فلما وصل خشترين إلى ثنيّة[1] العُقاب ما أحسّ إلا والطائر قد سقط عليه ونزل على بعض جمال الرحل ، فتعجب من ذلك ، وكتب بهذه الحال إلى الحموى فأعرض[2] كتابه على أستاذ الدار ، فتعجّب من ذلك .

وفيها مات فخر الدولة بن المطلب ، وكان رجلاً صالحا أوحد زمانه ، وكان مع ذلك زاهداً كثير العبادة ، وكان يعتكف نصف السنة لا يخرج إلى أحد ولا يجتمع بأحد ، وكان كثير المال والأملاك والضياع ، وعمّر مدرسته المعروفة بدار الذهب وسلمها إلى جمال الدين بن نضلان الشافعى ، وأوقف عليها وقفاً حراً ما يكون محصوله فى كل سنة ألفا وخمسمائة دينار إمامية ، وعمر رباطاً للصوفية مجاوراً لمدرسته ، وأوقف عليه جملة كثيرة ، (٥د ب)وعمّر جامعاً كبيراً فى الجانب الغربى من مدينة السلام وغرم عليه حدوداً من ثلاثين ألف دينار ، وأوقف عليه وقوفاً كبيرة ، وجعل الولاية والوصية إلى جلال الدين بن البخارى نائب الوزارة ، وأوقف عدة نواحى وبساتين على ابنته ولم يكن له ولد سواها ، وشرط عليها إن تزوجت لا تستحق شيئاً من هذا الوقف ، وأكد الوصية إلى نائب الوزارة بذلك ، وحُمل إلى جامع القصر ، وتقدم الخليفة بفتحه له لأن جامع القصر لا يفتح لميت إلا بإذن شريف ، وحضر جميع أرباب الدولة ونائب الوزارة وأستاذ الدار إلى المقصورة الشريفة التى يصلى فيها الوزير ، وكان أستاذ الدار واقفاً فوقة

---

(١) عرفهـا ياقوت : معجم البلدان ٩٣٦/١ بأنها واقعة فى الطريق الواصل بين دمشق وحمص ، أما ابن عبد الحق البغدادى : مراصد الاطلاع ٣٠١/١ فقد ذكر ناحيتين بهذا الاسم احداهما مشرفة على غوطة دمشق يطؤها القاصد الى دمشق من حمص ، واخرى قرب الصيصة ، انظر ايضا : Dussaud: Topographie Hist. de la Syrie, p. 277. حيث يذكر المحطات الواقعة على الطريق بين دمشق وحمص .

(٢) اى عرض .

من النائب، وهذه الحال لم تكن لأحد ممن تقدم من أستاذية الدار أن يترفع على نائب وزارة إلا هذا ؛ لكون المذكور كان غلامه واختياره ونائبه ، وصلى عليه الشيخ أبو طالب [المبارك صاحب] ابن الخل وحمل إلى الجانب الغربي من بغداد، ودفن في جامعه على الطريق من وراء شباك الجامع المذكور .

وكان الناس ببغداد يتأسفون عليه شاكرين لطريقته وحسن سيرته وإعراضه عن الدنيا بعد أن أقبلت عليه لأنه كلف أن يكون وزيراً مراراً، وكان رحمه الله حسن الاعتقاد ،كبير الإمدادات لأرباب البيوتات ، وكان كبير . . . .[١] والخشونة في الخطاب لأرباب الدولة، حتى إنه حكى عنه أنه كان عنده يوماً وقد دخل إليه نقيب النقباء على الهاشميين يقال له « ابن الروال » ، وكان يلقب بأمين الدين ، فعثر في ثوبه . فقال له فخر الدولة : « أرض داري تأبى أن تدوسها أو تجيء إليها، وأنت ما تنقطع »؛ وكان يعرف ذلك منه ويحتمله .

وذكر أيضاً أنه كان عنده وقد حضر زعيم الدين بن الناقد وهو حينئذ ناظر الخاص ، وكان قبل ذلك حاجب الباب ، فسلم عليه وأخذ يشكو من الوقت (٥٦ ا) وضيقته فقال له :

« والله لو أن الخيوط التي في رأسك تُعمل سلسلة في الجسر لبقي ألفي سنة من شدة حماقتك ، وإلا لو بعت هذا المقيار الذهب والثياب الذي عليك والمماليك والخيل ولبست جبة صوف وقنعت وأزلت هذا الحمق عنك ما كنت تحتاج إلى هذه الشكوى ، ولكن دخان المشاعل ورائحة الشمع إذا تعلق بأم الدماغ لا يزيله إلا ما تعلم » ، وكان هذا بمحضر من جماعة .

وكان ابن الناقد هذا زعيم الدين ذا منزلة عظيمة وصار صاحب مخزن ،

---

(١) فراغ في المخطوطة بقدر كلمتين .

وولده هو الموجود شرف الدين[و]هو صاحب المخزن يومئذ، وما كان يقدر أحد من أرباب الدولة ولا غيرهم يقول له هذا القول من شدة تكبره على أهل بغداد ، وكان يقول فى فخر الدولة أضعاف هذا ولا يثقل عليه .

وكان فخر الدولة مقبول القول ذا حرمة عظيمة ، وكان الخليفة — أدام الله ظله — يقعده بين يديه ويحدثه ولا يجلس عنده أحد ، وكان يكتب على رأس رقعته إليه « الخادم الداعى » ، ويكتب على رأس رقعة أستاذ الدار « والده » ، وكان لا يمضى إلى أحد جملة إلا إلى الخليفة فحسب ، وما كان يتخلف عن خدمته أحد من أرباب الدولة وكذلك جميع أرباب العلم والأدب والتصوف وسائر طبقات الناس.

* * *

وفيها تقدم الخليفة بإحضار شيخ الشيوخ بين يديه إلى التاج الشريف فلما حضر قال له: « اقعد نخدّم » ، ولم يفعل، فقال له أمير المؤمنين : « ياشيخ لو قلت لك وأنت قاعد قم كان يجوز لك أن لا تفعل » فخدم وجلس بين يديه ، فأشار إليه أن يمضى رسولا إلى صلاح الدين ، وكانت هذه الحال من جانب أستاذ الدار ليتشفع إليه فى حق صاحب الموصل والكف عنهم ، لأن أستاذ الدار كان كبير الميل إلى صاحب الموصل ، فقال (٥٦ب) شيخ الشيوخ: «السمع الطاعة » .

فلما انفصل من عنده خدم، وخرج فنفذ إليه كل ما يحتاج إليه من خيم وخيل وبرك وبغال وفراشين وغلمان ومحفة ، وأطلق له ذهباً كثيراً للنفقة، فكتب يستعفى من ذلك ، فتقدم إليه بالتوجه ، وتقدم أيضاً إلى بشير[1] الخادم أن يمضى فى خدمته ، فتوجه ومعه جماعة من أصحابه الصوفية وولده عز الدين ، وكان حاجبه زين الدين القزوينى ، واستخلف بالرباط ولده الأسن ناصر الدين ، وكان أحسن الناس صورة ، ومضى على ذلك مدة يسيرة ثم رجع ، فأمر الخليفة بإخراج الموكب إلى خدمته

(١) فى الأصل : « شريف » وفوقها « بشير » .

وتلقيه. وأن يخرج إليه قاضى القضاة ويلقاه أين كان ، ولا يراعى معه قاعدة فالمقصود إكرامه ، فنفذ نائب الوزارة إلى قاضى القضاة وعرفه ذلك، وأن يركب معه صندل الخادم وجمال الدولة إقبال وجميع الحجاب ، وخرج مع قاضى القضاة جماعة من العدول عليهم اللباس الأسود.

وسار الموكب الشريف ومعهم المماليك الخاص وجماعة الأمراء الكبار، وعبر العسكر أيضاً معهم إلى الجانب الغربى إلى قرية الشحنة، فلما وصلوا إلى رأس السويقة وقف قاضى القضاة فقال له عماد الدين صندل : « ما هذا الوقوف هاهنا ؟ نحن قد رسم لنا أن نمضى إلى خدمة الرجل أين كان » ، فقال : « أنا ما أتجاوز هذا الموضع خطوة ، وهاهنا العادة لتلقى الرسل، وموكب الخليفة — دام ظله — لا يجوز أن يتجاوز أكثر من هذا الموضع» ، فقال له : « ياسيدنا، أنت تقول هذا والخليفة هو صاحب الأمر قد تقدّم إلى نائب الوزارة بهذا ؟ » ، فقال : «أنا ما أتجاوز هذا» فبينما هما فى المحاورة والتجاذب وإذا بشيخ الشيوخ قد أقبل فتحدّر (٧٠ ا) إليه من المكان الذى كانوا فيه لأنهم كانوا على نشز من الأرض، فسلّم على شيخ الشيوخ: الأول فالأول ، إلى أن جاء جمال الدولة إقبال فسلم عليه وتعانقا على الخيل ثم تأخّر عنه ، وجاء صندل ففعل كذلك ، وجاء قاضى القضاة فسلّم أيضا واعتنقه؛ وعاد راجعاً إلى بغداد ، فقال له صندل : « إلى أين ؟ » ، فقال : « نمضى . رُسِم لنا أن نتلقّاه وقد لاقيناه وسلمنا عليه » ، فقال : « إيش هذا الفعل ؟ أنت تعرّضنا للهلاك ، هذا هو العادة فى تلقّى الرسل وكذا عادة الموكب الشريف تريد تترك وتقول كلمات [ما] جرت بمثلها العادة، وتكون أنت واقفا[1] والرجل على الأرض ؟ » ، فقال له قاضى القضاة : « أنا ما يجرى مجراى أحد ولا يجوز لى أن أقول إلا ما يقال لى ، وإنما

---

(١) فى الأصل « واقف » .

ماقيل لى شىء ، إنما قيل لى : تلقَّ شيخ الشيوخ ؛ وقد لقيته» ، فقال الجماعة : «لا تفعل تهلك . هذا ما يرضى به الخليفة» .

وكثر القول فى ذلك والناس على طبقاتهم قيام ، فقال قاضى القضاة : «مبارك . أنزل إليه وأقول له كما جرت العادة أن يقال ، فقل له ينزل قبلى حتى أنزل إليه» ، فمضى ابن السلماسى الحاجب وجماعة من الحجاب الكبار ، فقال لشيخ الشيوخ : «قد استقر أن تنزل حتى ينزل قاضى القضاة» ، فقال له : أنا ما أنزل ، وما تقدم بإخراج الموكب الشريف إلا لأجلى وإكراما لى ، ماكنت أنا أريد هذا ، وما ينزل إلا هو» ، فجاء ابن المعتمد الحاجب وقال لقاضى القضاة ما ذكره شيخ الشيوخ وقال : «أنا ما أنزل» ، وكثر الحديث فمضى إلى شيخ الشيوخ وقال : «قد افتضحنا والناس يضحكون علينا ، وأنتما صدرا هذه الأمة من جانب الشرع والدين ، كيف يسمع هذا عنكما ؟» ، وبالغ فى القول وقرّر أن ينزلا معا من غير أن يتقدم أحدهما على الآخر .

ومضى ابن السلماسى الحاجب إلى عند شيخ الشيوخ يعضّده وينزله ، ومضى ابن المعتمد إلى (٥٧ ب) قاضى القضاة يعضّده ، والناس ينظرون إليهما والخدم أيضا والمماليك والأمراء معا .

فلما نزل شيخ الشيوخ وسار على الأرض رجع قاضى القضاة وترك رجله فى الركاب واستوى راكبا ، فرآه شيخ الشيوخ فقال : «هذه كانت حيلة ، مبارك ، حسن أنا أمضى إلى بين يدى مركوبه» ، وجاء مسرعا إلى بين يدى بغلة قاضى القضاة ووقف هو وشيخ الشيوخ والناس ينظرون ما يقول قاضى القضاة فقال : «أمِر بإخراج الموكب الشريف لتلقّيك ياشيخ الشيوخ إكراما لك ، فتقابل ما شملك من الإنعام بتقبيل الرغام ، والله الموفق للإتمام» ، ولم يذكر سوى هذا ، وركب والناس بأسرهم ركبوا تبعا لهما ، وجاء الموكب إلى باب الحجرة الشريفة واستأذن الخليفة ، فخرج إليه مجاهد الدين خالص فأذن له ، وكان أستاذ الدار هناك فدخل وجلس على كرسى بين يدى

الخليفة وشرح له جميع ماجرى فى رسالته وأطال ، والناس يترقبون خروجه ويرجفون على قاضى القضاة ابن الدامغانى بالعزل لكونه عرّض الموكب الشريف إلى ضحك العوام ، وكيف أنه آذى قلب شيخ الشيوخ مع مكانته من الخليفة ، نخرج شيخ الشيوخ ومضى إلى رباطه ولم يجر شىء ، فنفّذ ابن البخارى وأنكر على قاضى القضاة فعله ، فركب قاضى القضاة بعد يوم وجاء إلى شيخ الشيوخ وهو فى رباطه وهنأه بمقدمه ، وقال له « إن أستاذ الدار والنائب قد اتفقا على عزلى ، ويريدون أن يجعلوا لى حجة وتقوّلوا للخليفة . فلما خرجت إلى خدمتك كنت كثير الخوف من أن أعمل مالا يجوز فيكون هو الطريق لهم ، ولا بدّ من إنعامك فى أن تعرّف الخليفة هذه الحال ولا يكون عندك منها شىء » فقال : « لا والله أنت عندى معذور » ، وحضر أرباب الدولة يهنئون شيخ الشيوخ بمقدمه سوى أستاذ الدار وابن البخارى (١٥٨) فإنهما لا يقدران أن يمضيا إلى أحد جملة . وكان الخليفة قد أمر بأن لا يُعترض أحد اعتصم برباط شيخ الشيوخ ولو كان عليه المال والدم ، وكان قد اعتصم به جماعة من أولاد رئيس الرؤساء وجماعة من أولاد ابن العطار وابن القبيى حاجب ابن رئيس الرؤساء الوزير .

* * *

وفيها مات سديد الدولة ابن الأنبارى كاتب الإنشاء ، وفتح له جامع القصر للصلاة عليه ، وما تخلّف أحد من أرباب الدولة خدمةً لأستاذ الدار ، وصلى عليه الشيخ أبو طالب [بن الخل] وحمل إلى مشهد موسى بن جعفر على ساكنه السلام ، وتقدم إلى أبى غالب بن الخلال مشرف الديوان أن يكتب إلى الأطراف ، ولم يكن عالما بالإنشاء بل كان خطه جيداً ، وتقدم إلى ابن البخارى وإلى شمس الدين بن السرخسى أن يتفقا على نسخ الكتب إلى الأطراف وتنفّذ إلى ابن الخلاّل ليكتبها ولا يكلف سوى الخط

ولا يتصرّف فى حرف واحد ، فتقدم إليه بذلك .

وكان موت سديد الدولة ابن الأنبارى فى ذى الحجة من السنة .

* * *

ذكر

ما تجدد للملك الناصر صلاح الدين بمصر والشام وغيرهما من البلاد من الفتوحات والغزوات فى هذه السنة

ودخلت هذه السنة[١] والسلطان نازل على آمد[٢] محاصر لها مضايق على أهلها ، وكان قد نصب عليها مجانيق عدة وستائر ومنع الناس من أن يبدءوا بقتل رجل من المسلمين ، وكان غرضه أن يستأمنوا ، فداخلهم الطمع حتى أحرقوا بعض الستائر ، فنازلهم السلطان ذات يوم بنفسه ، وكان والدى فى ذلك اليوم قد هجم على كل من كان قد طلع منهم فردّهم على أعقابهم ، وهجم الناس فى إثره بالسلالم ، فصعد فيها الرجال وملكوا بين السورين وشرعوا فى (٥٨ ب) النقب ، و[مسعود بن أبى على] بن نيسان[٣] يحرّض أصحابه على القتال ، ورمى الناس بالقوارير ، فلما رأى السلطان ذلك أمر الناس بالمنازلة وحرّضهم على القتال ، وأمر بعض أصحابه أن يكتب فصولاً على عيدان النشاب بالإرهاب لمن بآمد من العوام يتوعدهم فيها تارة ويعدهم أخرى ، ففترت عنه مساعدة أهل المدينة وخافوا على أنفسهم ، وكان [مسعود] بن نيسان فيما بينهم مذموم السيرة ، فتقاصروا عن الاستطالة

---

(١) يعنى بذلك سنة ٥٧٩ .

(٢) كان وصوله الى امد فى السابع عشر من ذى الحجة سنة ٥٧٨ هـ ، هذا وقد تسلم صلاح الدين البلد فى العاشر من المحرم سنة ٥٧٩ هـ راجع فى تثبيت تاريخ دخولها تحقيق الدكتور الشيال فى مفرج الكروب ، ١٣٤/٢ حاشية رقم ٢ .

(٣) كان صاحب آمد هو محمود بن ايكلدى وكان شيخا عجوزا ليس له من السلطة غير الاسم ، اما واقع الامر والتصرف فيها فكان بيد ابن نيسان .

واشتطّ أصحابه عليه وتقبضوا عنه، فبدا له وجه الخذلان وخاف على نفسه، فراسل السلطان فى السلم والاستعطاف له قبل الأمان، فأصبح السلطان ذات يوم والناس على ماهم عليه من المنازلة فى الحصار إذ خرج من المدينة جماعة من النساء فقصدن سرادقه مستجيرات بكرمه يسألن الصفح ، وكنّ نسوة أمير المدينة ورئيسها ، وطلعن سحرة ذلك اليوم وقصدْن خيمة الأجلّ القاضى الفاضل [وزير صلاح الدين]، فآواهنّ إلى فناء خيمته ، وسعى فى الشفاعة لهنّ إلى السلطان فى طلب الأمان ، فتشفعن فيما طلبته وأعطين الأمان على أنهم إن أقاموا توفرت عليهم الأموال والأملاك ، وإن تحوّلوا سهّل عليهم الانتقال ، ولم يسألن فى البلد لعلمهن أنه لايخلى على من به ، وإنما سألن إذا تسلمّ المدينة أن يخرجوا نفائس أموالهم ، فأعطين الأمان أن يخرجوا بكل مايقدرون عليه من نفائس أموالهم مدة ثلاثة أيام .

وتقدّم السلطان بردّ النساء بالإكرام والاحترام ، ونفذ ابن نيسان يذكر أن غلمانه وأصحابه خرجوا عن طاعته وأنه لايقدر على نقل أمواله، فندب [السلطان] لهمن خواصه من يعينه ويراعى أمواله، وأخرج له دواب كثيرة من اصطبلاته لإعانته ، فخرج ابن نيسان من آمد وضرب خيمته فى ظاهرها وجعل ينقل مايقدر عليه من درهمه وديناره ونفائس جواهره وأمواله ، ونقل أيضاً ماقدر عليه (١٥٩) من أوانى الذهب والفضة . ولم يقدر فى تلك الثلاثة أيام إلا على تحويل الأمتعة الكريمة الثمينة ، وفاز جماعة من أصحابه بما أصابوه من أمواله ، وكان يخرج من داره عشرة أحمال من المال فيذهب فى الطريق بعضها ، فلما انقضى الأجل المضروب وقد عجز [ابن نيسان] عن نقل سائر ذخائره ترك أخاير الذخائر ، وكانت أبراج المدينة ودورها ومساكنها[1] قد ملئت من أجناس الغلات وأجناس

---

(١) « ماكنها » فى الاصل .

آلات الحروب وغير ذلك من الأموال ، فترك ذلك جميعه ومضى لسبيله ، ولو رشد لكان آوى إلى ظل السلطان ولم يبعد عن جنابه .

* * *

ذكر تسليم آمد الى نور الدين (١) محمد بن قرا ارسلان

ولما تسلم(٢) السلطان مدينة آمد نصب على سورها أعلامه أول يوم فتحها وذلك فى العشر الأول من المحرم من السنة المذكورة ، وأمر بتسليمها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان ، وكتب له بها وبأعمالها تقليداً ، وكان قد سبق له منه الوعد بذلك ، فتسلمها بما فيها من الذخائر من الأمتعة والأسلحة وآلات الحروب وأجناس الغلات والحبوب مالا يحصره العدد ، وسلم إليه دساتير(٣) الخارن سائرها .

وكان فى المدينة برج يحتوى على ثمانين ألف شمعة ، فقيل للسلطان : « هذه آمد فيها ذخائر تربى قيمتها على ألف ألف دينار ، وما دخلت عند الوعد بآمد فى شرط ولاقرار نخذها لمهامك ، ونور الدين محمد [بن قرا أرسلان] يقنع بآمد فارغة » فقال [صلاح الدين] : « لاسبيل إلى أخذ شىء من ذلك ، فإن نور الدين صار من أشياعنا وأصحابنا ، ولا نضن(٤) عليه بهذه الأشياء ، وهبنا أنا وهبنا له الأصل وبخلنا عليه بالفرع(٥) فما يليق ذلك بكرمنا »

---

(١) كانت وفاته فى سنة ٥٨٠ هـ ، انظر النجوم ٩٨/٦ .

(٢) أضاف الدكتور الشيال فى نشره لمفرج الكروب ، ١٣٦/٢ ، س ٦ — ٩ عن نسخة اخرى رجع اليها عبارة خلت منهـــا المراجع المتعلقة بهذه الفترة نوردها فيما يلى لتكتمل الصورة « ولما تسلم السلطان آمـــد أحضر بين يديه محمد ايكلدى الذى كان فى الظاهر صاحب البلد فرآه شيخا كبيرا فاكرمه واحسن اليه وأمر نور الدين بالاحسان اليه وان يقيم عليه ما يكفيه له ولاصحابه ففعل ذلك ، ولم يزل عند نور الدين مكرما حتى مات ، رحمه الله » .

(٣) راجع عنها : Dozy: Supp. Dict. Arabes.

(٤) « تطن » فى الاصل .

(٥) راجع مفرج الكروب ، ١٣٦/٢ .

فذكر لنا أنه باع من ذخائرها من الغلات والحبوب والفرش المستعملات الآمدية والبسط والخيام سبع سنين . وإنما ذكرنا ذلك ليعلم (٥٩ ب) أن الدنيا بأمرها لم يكن لها عند السلطان قدر .

ودخل السلطان إلى مدينة آمد يوم الجمعة وأحضر نور الدين محمد بن قرا أرسلان ووكد عليه المواثيق برعاية العهد والمتابعة له والمسارعة إلى مايدعوه[١]. واشترط[٢] عليه إقامة العدل وإظهار السيرة الجميلة المحمودة فى الرعية .

* * *

ذكر بعض الأمثلة بفتح آمد ، كتبها السلطان إلى بعض الأمراء :

«صدرت المكاتبة مشعرة بفتح آمد وذلك بقتال أعمل السيف فيه أعمال المستبق، واستعمل فيه العزم استعمال المترفق ، فلما رأى صاحبها غير ماظنه، وسوى مايعهده، لم ير الغنيمة إلا نفسه وماله وولده، فاستام الصلح فأرخصناه، واستأمن فأمنّاه مما أخاف وخلصناه ، وأغمدنا ما كان مجرداً ، وأجزانا الله من نصره على مالم يزل معودًا ، ورفعنا عنه من القتال يدا ، وأولیناه للإحسان يدًا ، وكتابنا هذا والمدينة قد فتحت أبوابها ، وعذقت بدولتنا أسبابها ، وتحكّم لسان علمنا فى فم قلعتها ، ويسّرها عدل نشرها بحصب نجعتها، وبعد أن لبستها دولتنا وقّيناها وعد خاعتها ، والحمد لله الذى تم النعمة بحمده ، ويسبح الأمل بقصده ، ما يفتح[٣] الله للناس من نعمة فلا ممسك لها ، ومايمسك فلا مرسل له من بعده » .

---

(١) واجع الروضتين ، ٤١/٢ .

(٢) « اشريط » فى الاصل .

(٣) منظور فى هذا للاية الكريمة « مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، ومايمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » سورة فاطر ٣٥ : ٢ .

فصل آخر

« وقد رُفعت على قلعتها أعلامُنا ، ونفذت فى مدينتها أحكامنا ، ونال صاحبها صلحنا ، وعمّ أهلها صفحنا ، ووفى فيها موعدنا ، ونجح - والحمد لله - مقصدنا ، والآن الله صحبتها ، وحطم فى ثلاثة أيام صعدتها ، ونحن نستعيذ الله من أن يُظن أن لنا فى هذا الصنع صنعاً ، وأن نعتقد أنا نملك لأنفسنا ضراً أو نفعاً » .

فصل آخر

« .... نزلنا عليها ولم يكن إلا (١٦٠) رياضتها ثلاثة أيام ريثما فتح الحصن عن فضله ، واستيقظ صاحبها بجدّ القتال من هزله ، واستأمن فأومن على نفسه وماله وأهله ، وكتابنا هذا ولواء النصر قد مدّ باعه معانقاً لقلعتها ، وخطيب منبرها قائم باسمنا ساعة تسلمها للموافقة لساعة جُمعتها ، ثم أوصلنا نور الدين إلى عقيلةٍ طالما واعدها أبوه وخطبها[١] ، وقبلنا منه مهرها بمعونة فى سبيل الله أوجبها » .

* * *

وكتب بذلك إلى الديوان العزيز بدار السلام كتاباً مستوفى الأقسام ، وأمر الناس بعد ذلك بالرحيل إلى حلب وأعمالها .

وتوجه السلطان من آمد قاصداً إلى الفرات فوصلها فى مراحل ، وعبر الفرات بجميع عساكره وجيوشه ، فلما استكمل عبور الناس رحل[٢] متوجها إلى عين تاب ، وكان بها الأمير ناصح الدين محمد بن خمارتكين ،

(١) يتضمن هذا الكلام الاشارة الى ان قرا أرسلان بن سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا حاول مرارا عدة الاستيلاء على آمد فلم يتمكن من ذلك .

(٢) فى الأصل « عبر » وفوقها « رحل » .

فنزل [ابن خمارتكين] منها وجاء إلى السلطان متبرعا إليه بطاعته ، وحمل من الهدايا والتحف أشياء كثيرة فصار من جملة أصحابه وأسبابه ، فنزل [السلطان] بعين تاب ليلة واحدة ، ثم رحل منها إلى حلب .

* * *

ذكر وصول السلطان الى حلب والنزول عليها فى محرم من السنة

ولما نزلنا على حلب ضرب السلطان مخيمه فى الميدان الأخضر وجميع حلقته ، ونزلت العساكر بين قريب منه وبعيد ، وكان الناس كل يوم فى زحف وقتال وطراد ونزال ، وكان تاج الملوك أخو السلطان شجاعا مقداما يركب كل يوم بجماعته وينازل القوم ، وكان السلطان ينهاه عن الإقدام ويكفه من النزال، وينهى الناس عن الزحف ويقول : « إنما مقصودنا البلد ولا حاجة لنا بقتل أحد المسلمين » ، فأصابت تاج الملوك ضربة فى[1] فخذه فحمل إلى مضربه جريحاً وكان موته فيها وذلك عند تسليم حلب ، وكان السلطان (٦٠ب) على وليمة قد أعدها لعماد الدين زنكى بن مودود فلم يتضعضع له ولمصابه به . رضوان الله عليه .

وسأذكر[2] منقبة للسلطان وما رزقه الله من الحلم والصبر فى ذلك اليوم فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ولما جرح تاج الملوك أمر السلطان عساكره بالرحيل من الميدان الأخضر والنزول على جبل جوشن فضرب مخيمه عليه ، وأظهر نية المقام، وأمر بإحضار بنائين وصناع ومهندسين، وأمر بحفر أساس قصر يبنيه وقال:

---

(١) انفردت النجوم ، ٩٥/٦ ، بالقول بان تاج الملوك بورى أصابه سهم فى عينه فمات منه بعد ايام على حين ان ابن الاثير ، الكامل ٢٠٢/١١ ذكر ان سهما طعنه فى ركبته فانفكت فمات منها ، انظر بعض اخباره فى Blochet: Hist. de Makrizi, p. 157, No. 4.

(٢) راجع فيما بعد ص ١٤٤ ، س ٧ — ١٠ .

«إن كان البلد منزلا[١] لمن نيه فهذا منزلنا، ونحن نتصرف فى البلاد والأعمال ونقطعها لرجالنا ونترك حلب على ما بها».

وكان العسكر يركب فى كل يوم ويقف بإزاء البلد صفوفاً من غير زحف ولا قتال، وطال ذلك ودام، ورسلُهم تتواتر إلى السلطان بكل كلام قبيح وهو يحمل ويحلم ويعيد إليهم القول الجميل، فلم يزالوا على إصرارهم حتى ضرع عماد الدين إلى السلم.

* * *

ذكر رغبة عماد الدين زنكى فى الصلح والعوض عن حلب

كان عماد الدين [زنكى] بن مودود راغباً فى الصلح عارفاً بعواقب الأمور ففكر فى أمره، ووجد عليه فى كل شهر مما يفرقه على الأجناد ثلاثين ألف دينار، وخشى على نفسه إن طال الحصار أن ينفد ما فى خزانته، وكان يعتمد على رأى الأمير حسام الدين طمان[٢] [الأرتقى] فأحضره واستشار به فيما يدبره من أمر حلب، فأشار عليه طمان بالدخول تحت طاعة السلطان، واقترح عماد الدين أن يعوض[٣] عن حلب سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، فضمن له طمان ذلك، ونزل[٤] من باب السر ليلا فدخل

(١) « منزل » فى الأصل .

(٢) كان الامير حسام الدين طمان ممن يميلون الى صلاح الدين ، انظر فى ذلك Blochet: op. cit., p. 197 ، هذا وقد مات فى شعبان سنة ٥٨٥ هـ .

(٣) عيب على عماد الدين زنكى بن مودود تنازله عن حلب لقاء اخذه سنجار ، ويذكر ابن الاثير ، الكامل ٢٠٢/١١ ، أن بعض عامة حلب احضر اجانة وماء وناداه : « انت لا يصح لك الملك وانما يصلح لك أن تغسل الثياب » ، وعنه نقلها ابن واصل فى مفرج الكروب ، ١٤٢/٢ ، وان زاد على ذلك ان العامة كانوا اذا رأوه صاحوا به : « ياحمار يامن باع حلب بسنجار » ، كذلك ذكر ابو المحاسن فى النجوم ، ٩٥/٦ ، ان البعض عملوا فى ذم ذلك العمل من جانبه اشعارا كثيرة منها قول بعضهم :

وبعت بسنجار خير القلاع
ثكلتك من بائع مشترى

(٤) المقصود هنا « طمان » .

على والدى الملك المظفر رضوان الله عليه وشرح له جميع ما ذكره عماد الدين، فمضى والدى (١٦١) إلى السلطان وشرح له ما ذكره طمان، فقال له [صلاح الدين] : «إن هذه المواضع التى ذكرها عماد الدين قد جعلناها لك مع ما قطع للفرات من الشرق من بلاد الجزيرة، وأنعمنا بها عليك ولا سبيل إلى أخذها منك»، فقال [المظفر تقى الدين عمر] : «يا مولانا إمض هذا الأمر فإنما غرضنا صلاح البيت» فقال السلطان : «إذا رضيت بأخذ هذه المواضع منك نعوضك عنها حلب وقلعتها وأعمالها».

ثم أحضر[1] السلطان الأمير طمان وكتب له خطه الكريم بالمواضع المذكورة وحلف له على ذلك، ثم مضى[2] من عنده تمام ليلته فسلم خطه إلى عماد الدين وعرفه إنعام السلطان فى حقه، فطابت نفسه بذلك وأمر بفتح أبواب حلب ففتحت، فعرف الأمراء بذلك والمقدمون منهم ذلك، فمنهم من خجل ومنهم من ندم، فأرسل السلطان إليهم وطيب نفوسهم وبذل لهم من إحسانه ما استرقهم به.

وكان تسليم حلب يوم السبت[3] ثامن عشر صفر من سنة تسع وسبعين، وسأذكر نكتة عجيبة تدل على ذكر منقبة للسلطان ومكرمة نطق بها سر الغيب المكنون على لسان القاضى محي الدين بن الزكى قاضى دمشق، وذلك أنه مدح السلطان بأبيات منها :

وفتحكم حلباً بالسيف فى صفر
مبشر بفتوح القدس فى رجب

---

(١) جرت مفاوضات تسليم حلب بين عماد الدين مودود والسلطان صلاح الدين فى جو من السرية والكتمان فلم يعلم بها سواهما وسوى الامير حسام الدين طمان ، حتى اذا تمت الامور على النحو المذكور بالمتن افضى عماد الدين بخبر الاتفاق الى أمرائه ، فانفذوا منهم وعن الرعية عز الدين جورديك وزين الدين بلك .

(٢) أى مضى طمان .

(٣) الوارد فى ابن واصل : مفرج الكروب ١٤٢/٢ « سابع عشر صفر » ويلاحظ أن فتح صلاح الدين لحلب كان من الامور الخطيرة ، وقد ادرك اهميته وما يترتب عليه من نتائج المؤرخ الصليبى المعاصر وليم الصورى ، راجع
Guillaume de Tyre, op. cit., pp. 1113-1114.

فوافق فتح حلب كما ذكره فى صفر من سنة تسع وسبعين كما ذكرناه ، وفتح القدس فى رجب من سنة ثلاث وثمانين .

* * *

ذكر وفاة تاج الملوك بورى رضى الله عنه

كان السلطان قد عين يوماً لضيافة عماد الدين زنكى بن مودود ، وأعدّ له من الألطاف والهدايا والتحف أشياء كثيرة ، وكان ذلك فى المخيم قبل انتقاله إلى حلب واستقراره بالقلعة ، فمد السماط واستدعى بعماد الدين فجلس إلى جنب السلطان ، فبينا الناس فى (٦١ ب) أسرّ سرور إذ جاءه بعض حجابه فأسرّ إليه بنعى أخيه تاج الملوك ، فما تضعضع لذلك ولم يتغير بشره وبشاشته وطلاقة وجهه، وأمر سراً بتجهيزه ودفنه، وأعطى تلك الضيافة حقّها، فانظر إلى حلم هذا السلطان وحسن صبره على بلائه واختبار الله تعالى إياه .

وأما عماد الدين زنكى بن مودود فإنه أخذ خط السلطان بالمواضع المذكورة[1] بعد عهده وميثاقه ، وخرج بعد وداعه متوجهاً إلى سنجار ، وأقر مظفر الدين بن على كوجك على مابيده من حران والرها .

ذكر دخول السلطان الى حلب ومقامه فى قلعتها

كان دخول السلطان إلى قلعة حلب يوم تسليمها إليه وذلك يوم السبت ثامن عشر صفر ، وحين استقر بها أفاض العدل ورفع الضرائب وأسقط المكوس ، وتم له حينئذ ملك الشام ، وكتب إلى الأطراف والجوانب لاجتماع العساكر إلى الجهاد ، وعوّل فى الحكم والقضاء بحلب على القاضى محيى الدين

---

(١) وهى سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج : راجع ما سبق ص ١٧٤ ص ١١ .

أبي المعالي محمد بن الزكي[١] عليّ القرشي قاضي دمشق فقضى وحكم ، ورتب له فيها نائباً القاضي زين الدين نبا[٢] بن الفضل بن سليمان المعروف بابن البانياسي .

* * *

ذكر فتح حارم (٣) وسبب تسليم حصنها

ولما فتح السلطان حلب واستولى على ما حولها من الحصون والمعاقل والأعمال بقيت قلعة حارم مع أحد[٤] المماليك النورية، فجعل السلطان يراسله وهو يشترط عليه ويغالي في سومه ، وكان نقيبها حينئذ مستوليا عليها ومعه جماعة ، فخرج مملوك نور الدين عنها — كما جرت عادته — راكبا ، فغلق نقيبها دونه الباب ،وشنع عليه بمصالحة الفرنج وأعلن من فيها باسم السلطان، فبلغ السلطان ذلك فركب من وقته (١٦٢) وسار إلى حارم فتسلمها، وحضر النقيب الذى كان بها وجماعته ليطلبوا من السلطان أن ينعم عليهم عوضا عما فعلوا .

وكان بدر الدين حسن بن الداية[٥] حاضراً عن السلطان فقال : « يامولانا، هؤلاء القوم فعلوا فى حق كذا وكذا، وخربوا بيتى،ونقلوا عنى

---

(١) كانت وفاته سنة ٦٦٩ هـ ، ويلاحظ انه اصبح أثيرا عند التتار عامة وهولاكو خاصة راجع المقريزى السلوك ، ص ٤٣٩ ، ٥٨٩ .راجع ترجمته فى ابن طولون : قضاة دمشق، ص ٥٢ — ٥٥ .

(٢) ذكره المقريزى : السلوك ، ٨١/١ باسم « ندا » ولكنه وارد بالصورة اعلاه فى ابن الاثير : الكامل وابن واصل : مفرج الكروب ١٤٧/٢ ، انظر ايضا الروضتين ٤٧/٢ .

(٣) حارم حصن حصين وكورة تجاه انطاكية من اعمال حلب ، انظر ابن عبدالحق: مراصد الاطلاع ٣٧١/١ ، Dussaud: op. cit., p. 231.

(٤) واسمه « سرخك » ، انظر شفاء القلوب ، ورقة ٢٨ ب ، وابن الاثير الكامل ٢٠٢/١١ .

(٥) هو صاحب حارم وعينتاب واعزاز .

كل كلام قبيح ، وقد علمت مافعلوا فى حق هذا المسكين وأغلقوا دونه باب القلعة وشنعوا عنه ماذكروه من مصالحة الفرنج ولم يكن كذلك ، فإن رأى مولانا السلطان استخدامهم على هذا الشرط فليستحفظ بهم » ، فضحك السلطان وأمر بطردهم وسلمها إلى أحد خواصه .

. . .

وأما حديث صاحب أنطاكية فإن السلطان حين تسلم حارم اضطرب أمره، ووافق ذلك أوان انقضاء الهدنة، فجاءت رسله بالخضوع والضراعة إلى السلطان ، وسير معهم من أسارى المسلمين جماعة كبيرة إليه ، وانخذل الفرنج فى جانب القدس خوفا منه ، وبدأ السلطان فى تقرير الأماكن والقلاع وترتيب أحوالها .

. . .

ذكر القلاع ومن رتب فيها

أما قلعة حلب فإنه جعل فيها سيف الدين يازكوج واليا ، وولى الديوان العميد ناصح الدين اسماعيل بن العميد .

وأما عين تاب[1] فإنه أبقاها على صاحبها ، وأنعم على بدر الدين دلورم الياروقى بتل خالد[2] مضافا إلى تل باشر قضاءً لحق مسابقته إلى الخدمة .

وأما عزاز فإن عماد الدين زنكى كان قد أخربها لتتوفر قوته على حفظ حلب ، فإنه[3] أقطعها للأمير علم الدين سليمان بن جندر[4] ، وشرع

---

(١) عرفها ابن عبد الحق البغدادى : مراصد الاطلاع ٩٧٧/٢ بأنها قلعة حصينة ووستاق قرب حلب وأن رستاقها دلوك .

(٢) تل خالد قلعة من نواحى حلب ، مراصد الاطلاع ٢٧٠/١ .

(٣) الضمير هنا عائد على صلاح الدين .

(٤) أبو شامة : الروضتين ٤٧/٢ .

[صلاح الدين] فى إظهار العدل وإزالة المظالم، وكتب المناشير لأهل حلب برفع الضرائب والمكوس ، وجاءته كتبُ الأطراف والجوانب بالتهنئة له بفتح حلب .

* * *

ذكر (٦٢ ب) فصول مختصرة من كتب أصدرها السلطان الى الأمصار والجوانب مبشرا بفتح (١) حلب وتملكها

فصل من كتاب إلى خطلبا والى زبيد يذكر فيه فتح حلب ، من إنشاء العماد الكاتب الأصفهانى :

« وأما أحوالنا فقد تناسقت فى النصر ، وتناسبت فى حمد الله تعالى والشكر ، وقد سبقت المكاتبات إليك فى شرح ماشــاء الله من الفتوح وسبَّبه ، وقرَّبه لنــا من الأمور وهذبه ، فبلاد الجزيرة قد استقرت فى خدمتنا عساكرها ، ودانت لطاعتنا أكابرها ؛ وأمر فيها أمراؤنا ؛ وولى بها أولياؤنا ، وأصبح ربضها إرضاء أصحابنا ، وانصرفت نوابها بتصرف نوابنا ، وعنى ذوو عنادها ؛ وساد ذوو ســدادها ، وجدّدنا كرامها ؛ وأكرمنا أمجادها ؛ وروّضنا بآلائنا مواحلها فما ضرها أخلفها الحيا أم جادها، وديار بكر لما قصر آمد أمدها ؛ وطالت يد أيّدْنا بالطول فى معاهدة تعهدها وفتحت سوداؤها ؛ واخضرت ببركات أقدامنا فى الإقدام غبراؤها ؛ بعد ما اغبرّت من مثار النقع عند نزولنا عليها خضراؤها، وسكنت دهماؤها؛ وانكشفت غمّاؤها، وصحت سماؤها، وصحّت أسماؤها، ووطىء بساط الخدمة ملوكها الصيد ، وأقرَّ بالعبودية لنا أحرارها الصناديد، وجئنا إلى حلب [ف] أسرجت لنا وألجمت شهباؤها ، وزينت لتزف علينا حسناؤها ، وأقامت بعذر خفرها فى تمنّعها عذاؤها ، ودانت لأرضنا

---

(١) فيما يتعلق بأهمية فتح حلب وتقدير وليم الصورى له وخطـورته على موقف الفرنجة عامة وتأييد القوى الصلاحية انظر
Runciman: Hist. of the Crusades, II, p. 435 & note 3.

فى أرجائها سماؤها ، وتحقق فى عرفنا رجاؤها ، وأرجت بعرفنا أرجاؤها ، وظهر حقها ، وخفى باطلها ، وتروّض ماحلها ، وتحلّى (١٦٣ ا) عاطلها ، وعقل جاهلها ، وغنم عاقلها ، وانتظمت فى سلك الممالك حصونها ومعاقلها ، وانضمت إلينا عساكرها ؛ واستفاضت بنا مفاخرها ، وأطاعت عواصى عواصمها ، وامتلأت المغانى بغانمها ؛ وظهرت المعالى فى معالمها ؛ ولم يبق إلا التوفر فى الجهاد من سائر الجهات ، وانحاز غزات الله فى النصر على العداة ، والسعى فى تملك القدس وافتتاحه ، وتحصيل مراد الإسلام والنزول على اقتراحه » .

* * *

فصل من كتاب آخر

« ولما تسلمنا حلب وتسنّمنا قلعتها وفرعنا شهباءها ، وسكّنا دهماءها ، وباكرناها بالإيلاف فألفيناها على البكارة ، واجتليناعروسها أنفقية الإنارة ، روضية النضارة ، وزُفت إلينا حسناء لم [يغلها] المهر ، وعقيلة ألا تها لنا الدّهر ، فقرّ بنا سرير السرور ، وصفى لأهلها حبير الحبور ، وتأصلت فيها أروقة الأمور ، وتوالت النعم من الله عزّ وجل فى وفود الوقور ، وتبلج صبح اليُسر وَوجهُ البشر بالإسفار والسفور ، وغضّ الظلم طرفه ، وكفّ العسف كفّه ، وقبض الجور يده ، وأوضح العدل جدّه ، وحطّ الحظ لثامه ، وأخذ الأمر نظامه ، ووجد الشرع أحكامه ، وانجابت الظلماء وطلعت الشموس ، وانفرجت الغماء وطابت النفوس ، وأسقطت المظالم وأطلقت المكوس ، واهتزت الأعطاف من سكر الشكر حين طافت من ألطاف الله على الأمة الكئوس » .

* * *

فصل من كتاب آخر

« صدرت المكاتبة مبشّرة بما من الله به من الفتح العزيز ، والنصر الوجيز ، والنجح الحريز ، والموهبة الواهبة قوة الاستظهار ، والعارفة المعرفة زيادة الاستبصار ، والنعمة التى جلّت النعماء لجلت ، وحلّت فى مذاق

الشكر وحلّت ، وعلت بإعلاء كلمة (٦٣ب) الدين فأنهلّت وعلّت » وطالت يدها بالطول وبأياديها أطلّت ، وذلك فتح حلب الذى در حلبه، ونجح طلبه،وبلغ أمد الفلح غلبه،ووضح لحبّ هذه الدولة القاهرة لَحَبُه، فإنه قد سكنت الدهماء مذ سكنت الشهباء ،ونشرت بها بالأمس أختها السوداء ، لما كان لنا فى فتحها اليد البيضاء ، فاخضرّت الغبراء ، وآلت ألا نعبر بعدها إلا فى سبيل الله الخضراء؛وتلاها فتح حارم الذى انجلت به الداهية الحمراء ، وعلت بالعواصم لقمع بنى الأصفر رايتنا الصفراء ، واهتزت طرباً إلى الجهاد فى أيدى شائميها ومعتقليها البيضاءُ والسمراء ، فقد زال الشغب ، وأسفر عن الراحة التعب ، وخمد اللهب، وأخذت الغزاة الأهبْ ، وشفّت غيمة الرأى بالمدى حلب ، وقد اتحدت كلمة الإسلام وعساكره، وصدقت زواجره ، وربحت بالتنقل فى الأسفار متاجره ، والحمد لله الذى ضاعف المنن؛ وأضعف عن شكرها المـِنن ، وشمل بالألفة الشمل ، وأفضل بظهورنا وأظهر الفضل » .

. . .

فصل من كتاب عن السلطان الى بعض أمرائه بانشاء الفاضل

« صدر إليك هذا الكتاب والأوامر بحلب نافذة ، والرايات بأطواق قلعتها آخذة ، وجاء أهل المدينة يستبشرون ، وقد بلغوا ما كانوا يؤملون ، وأمنوا ما كانوا يحذرون ، والحمد لله على هذا المصير ، وعلى ما منّ به من هذا الطول الطويل فى الزمان القصير ، ونحن نستنصر بالله مولانا فنعم المولى ونعم النصير » .

. . .

فصل من كتاب آخر من انشائه

« إن الله سبحانه يسوق مقاديره إلى مواقيتها ، ويؤلف من قلوب أهل طاعته على طواغى الكفر وطواغيتها ، ويتم ما سبق فى مشيئته من جمع كلمة هذه الملة وتأليف مشيئتها ، ومن ذلك ما أنعم الله تعالى به (٦٤ا) من فتح

مدينة حلب سلماً سفر فيها وجه الإسلام ، ورقى قلعتها سلما بمشيئة الله تعالى إلى دار السلام » .

. . .

ذكر ورود بشارة الى السلطان وهو بحلب وردت عليه من مصر تبشره بظفر أخيه الملك العادل ابى بكر بطائفتين من الفرنج : بحرية وبرية

اتفق ورود هذه البشارة من مصر إلى السلطان عند فتح حلب تبشره بظفر الأسطول البحرى وظفره بطسة من الفرنج ، وذلك أنه نهض[١] مغيراً فعاد بعد تسعة أيام وقد ظفر ببطسة من الفرنج فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون علجاً من الفرنج، فأسروهم جميعا وأتوا بهم إلى مصر . وكان ذلك فى اليوم الخامس عشر من محرم من السنة المذكورة .

وأما الظفر الثانى البرّى وذلك أن عصبة من الفرنج الذين كانوا بالداروم[٢] وكانوا لا يزالون ينهضون إلى أماكن بعيدة ومواضع شاسعة يرومون غفلة من بها لأمنهم وبعدهم عن ديار الشرك ، فنهضت منهم طائفة مغيرة ، فاتصل خبرهم بالملك العادل سيف الدين أبى بكر أيضا ، فأنهض إليهم جماعة من أبطال المسلمين وجماعة من أصحابه ، وقدّم عليهم سعد الدين كمشبه وعلم الدين قيصر وسيَّرهم نحوهم ، فتوافى الفريقان إلى ماءٍ يعرف بالعسيلة سبق الفرنج إليه فملكوه ، فلما أقبل المسلمون — وقد اشتدّ بهم العطش — ترجَّل الفرنج وآووا إلى جبل هناك يعتصمون به، فحمل المسلمون عليهم جملة واحدة فقتلوهم عن آخرهم ، ولم ينْجُ منهم إلا رجلان ، ورجع

---

(١) كان ذلك فى سنة ٥٧٩ هـ ، ولم يحدد السلوك ١/٨٠ موضع هذا اللقاء الحربى على ان جعل قدوم المنتصرين بالاسرى الفرنج الخامس من المحرم ، ولعل قول المخطوطة « الخامس عشر من محرم » اشارة الى ورود الخبر على صلاح الدين .

(٢) الداروم قلعة بعد غزة للقاصد الى مصر وقريبة من البحر ، انظر ياقوت : معجم البلدان ٢/٥٢٥ ، ٥٣٧ ، ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٢/٥٠٨ .

المسلمون برءوس عدوّهم إلى مصر ، وكان ذلك فى اليوم الرابع والعشرين من محرم من السنة المذكورة [١] .

* * *

ذكر رحيل السلطان من حلب الى دمشق

ولما رتب السلطان أمور حلب وأعمالها وذلك (٦٤ ب) بعد مهادنة صاحب أنطاكية ودخوله تحت أوامر السلطان وضراعته ، لذلك أمر عساكره بالرحيل ، وكان فى جمع جمّ وعسكر كثيف ، واستصحب معه عساكر الجزيرة وحلب ، فكان أول منزلة نزلها بحاضر قنسرين [٢] حتى تكاملت العساكر ، ثم رحل إلى تل السلطان ومنه إلى الجهاب .

ثم رحل الناس متفرقين ، منهم على طريق المعشرية ومنهم على طريق يمنع.

ولما وصلنا إلى حماة أمر والدى الملكُ المظفر بإحضار سماط لضيافة السلطان، وأسبغ من إحسانه على جماعة من الأمراء والأجناد ، ورتَّبنا أحوال حماة ورحلْنا منها فنزلنا الرستن [٣] ، ثم [رحلنا] إلى حمص فضرب السلطان مخيمه على عاصيها ، ورحل منها فنزل الزراعة ثم إلى اللبوة ،ورحلنا منها فنزلنا بعلبك ، ثم رحلنا منها متوجهين إلى دمشق فنزلنا قريبا منها ثم توجهنا إليها وخرج أهلها للقائنا ، ودخلنا إلى دمشق وقد استبشر الناس لقدومنا، فلم يلبث السلطان بدمشق سوى يومين، وأمر الناس بالخروج إلى الجهاد لغزاة بيسان .

---

(١) أورد المقريزى : السلوك ١/٨٠ — ٨١ خبر التقاء المسلمين بالفرنج عند الداروم فى أقل من سطرين ، وعبارة المقريز رغم قصرها — تكاد تكون عبارة المؤلف فى المتن .

(٢) بكسر القاف وفتح النون أو كسرها مع التشديد ، وهى مدينة بينها وبين حلب مرحلة ، وقد ذكر ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ١١٢٦/٣ أن الروم لما غلبوا على حلب فى سنة احدى وخمسين وثلاثمائة خاف أهل قنسرين وجلوا عنها ، ولم يبق بها الا خان تنزله القوافل ، انظر أيضا ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، (ط . دى خويه) ص ٧٤ ، والمقدسى : شرحه ، ص ١٩٠ ، Gaudefroy-Demonbynes : La Syrie à l'époque des Mamelouks, p. 10, n. I.

(٣) بليدة بين حمص وحماة ، كانت على نهر العاصى ، انظر ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٦١٥/٢ . وانظر أيضا Dussaud : Topographie de la Syrie, p. 146, note 3

ذكر غزاة بيسان

كان سبب رحيل السلطان من دمشق اغتناما لمن كان معه من العساكر ، فسار بعساكره مجداً فى سيره منزلاً منزلاً إلى أن قطع الأردن[١] ، وكان عبورنا فى مخاضة الحسينية[٢] وذلك يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة، فلما وصلنا إلى بَيْسَان[٣] وجدناها وقد أخلاها أهلها وخرجوا منها خوفاً منا ، وكان قد تقدمت مقدّمتنا فوقعت على خيل ورجل من الفرنج ، وكان مقدمهم ابن هنفرى فأوقعوا بهم ، فقتلوا راجلهم وأسروا جماعة من فرسانهم، وفر ابن هنفرى .

ووصل الخبر بأن الفرنج الملاعين قد جمعوا فرسانهم وأنهم ناهضون إلينا ، فبينا نحن كذلك وإذا جموعهم قد أقبلت ، وكانوا (١٦٥) فى ألف وخمسمائة رمح ومثلهم تُرْكبلى[٤] وخمسة عشر ألف راجل بالعُدد الكاملة ، فلما قربوا منا رجفوا كالأسود الضوارى، فنبذنا إليهم الجاليشية[٥] فجالت أمامهم وعبَّيْنا الأطلاب .

فلما رأى الفرنج عساكر الإسلام داخلهم الرعب وأخلدوا إلى الأرض، والتجأوا إلى الجبل وجعلوه ظهرهم، وخندقوا حوله خندقا، وأقاموا على ذلك

---

(١) وذلك فى تاسع جمادى الاخرة ، راجع ابن الاثير : الكامل ٢٠٤/١١ .

(٢) الارجح ان المقصود بها مخاضة الحسينية على نهر بردى ، راجع Sauvaire: Description de Damas, II, p. 60.

(٣) بفتح الباء وسكون الياء ، مدينة بالاردن بالغور الشامى ، وبها عين فيها ملوحة يسيرة تعرف بعين الفلوس ، راجع : ياقوت معجم البلدان ٧٧٨/١ وابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ٢٤١/١ ، وانظر Dussaud : op. cit., p. 348, et n. 6; Blochet: Hist. d'Egypte de Makrizi (R.O.L.) p. 158, note 3.

(٤) الضبط من مفرج الكروب ، ١٤٩/٢ وتتضح من تحقيق الدكتور الشيال شرحه حاشية رقم ١ ، ان التركبلى مصطلح بيزنطى كانوا يطلقونه على أفراد فرقة تركية الاب او عربيته يونانية الام ، راجع أيضا حبشى : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس .

(٥) اى مقدمة الجيش .

خمسة أيام آخرها يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الآخرة فى أضيق حال يتوقعون نزول الهلاك بهم ، ونحن نتوقع فى كل يوم منهم الحملة التى هى عادتهم ، والمغيرون من أصحابنا فى كل يوم يشنّون الغارة فى بلادهم فيغنمون ويسْبُونَ ويقتلون ويأسِرون . فلما رأيناهم لا يبرحون ولا يحملون رحلنا عنهم ، فاشتد راجلهم لكى يحملوا فرجع عليهم ، وكان ذلك يوم الخميس سادس عشر الشهر المذكور ، فما صدقوا حتى خرجوا من موضعهم منهزمين على أعقابهم يتبع بعضهم بعضاً ، ورجعنا ظافرين بغنائمهم ومن أُسِرَ منهم ، وشرع السلطان من وقته ذلك فى غزاة الكرك .

* * *

ذكر غزاة الكرك

ولما رجع السلطان من غزاة بيسان منصوراً غانما جعل طريقه إلى جهة باب من أعمال الشراة[1] ونزل بأذرعات ، واستأمن إليه أهلها المسلمون فأمّنهم ، وكان ساكنو تلك الديار مسلمين من قديم الزمان وتربى أولادهم مع الفرنج .

ثم خيّمنا على البرية ، وضاقت تلك الأودية بالعساكر ، ثم نزلنا على حصار الكرك وأمر السلطان بنصب المجانيق فنصبت ، فرمينا من بها بالحجارة وطال ذلك ؛ ثم تحول السلطان إلى الربض فنزل بدار الرئيس وحرّض الناس على الجهاد ، وكان غرضه بالانتقال إلى هنا ليقرب من

---

(١) اكتفى ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٧٨٨/٢ فى تعريفها وتحديدها بقوله « صقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول » ، أما اذرعات (بفتح الهمزة وسكون الذال وكسر الراء) فقد عرفها ايضا بانها « بلد فى طرف الشام وتجاور ارض البلقاء » على حين اسهب Dussaud: op. cit., p. 325 فى وصف موقعها على الخرائط الجغرافيـــة القديمة وأهميتها التاريخية .

المنجنيقات (٦٥ ب) المنصوبة ليشاهد مواقع النكاية فى القلعة ، ورتب السلطان مع ذلك نوبة الرماة ، فما كان أحد يقدر أن يخرج رأسه من بين الشراريف ، فبينا نحن كذلك إذ وصل الخبر باجتماع الفرنج فى الموضع المعروف بالواله ، فقال السلطان : « هذا حصن بطول ، وقد ضايقنا الحصن ومن فيه وسلبنا أعماله ، وهذه نوبة لا يخشى فواتها ، ومانزال بعون الله تعالى نعاود هذا الحصن ونزوره حتى يسّر الله فتحه ، والآن فإن الفرنج قد تحاشدوا واجتمعوا فلا يفرقُ جمعهم إلا جمعنا» . وبقى الحصار دائماً إلى انقضاء شهر الله الأصب رجب ، والسلطان مع ذلك مشتغل بعمارة البلاد وتدبير الممالك، وذلك عند وروده إلى الكرك استدعى أخاه الملك العادل سيف الدين أبا بكر من مصر ليعول عليه بولاية حلب ، ويقلد والدى الملك المظفر — ابن أخيه — ولاية البلاد المصرية .

* * *

ذكر ولاية والدى الملك المظفر — رضوان الله عليه مصر وأعمالها وتقليده اياها

ولما وصل الملك العادل من مصر إلى الكرك طلب من السلطان ولاية حلب[1] وأعمالها وقد سبق وعدُ السلطان بها لوالدى فأنعم السلطان لأخيه بحلب وأعمالها ، وأنعم لوالدى — ابنِ أخيه — بولاية الديار المصرية وحكمه فيها ، والذى أعطى والدى الملك المظفر — رحمه الله — بمصر ، فمن ذلك : البحيرة جميعها بمصر وهى بأربع مائة ألف دينار، والفيوم وهو بثلاثمائة ألف دينار ، وقاى وقايات وبوش وهى بسبعين ألف دينار،

(١) راجع رواية ابن ابى طى فى الرو صتين بشأن رغبة العادل فى ولاية حلب .

ثم عُوّض[1] عن بوش بسمنود والواحات وهى بستين ألف دينار ، وفوة والمزاحمتين وهى بأربعين ألف دينار ، وحوف رمسيس وهو بثلاثين ألف دينار ، وكان له فى كل شهر على الاسكندرية ألف وخمس مائة دينار ، وحكمه على جميع مصر (١٦٦) والولاية بأسرْها وصرّفه فيها تصرف المُلاك ، وكتب له بذلك تقليدًا ، وذلك فى شعبان من السنة .

وهذه نسخة المنشور :

« الحمد لله المتعالى جلاله ، المتوالى أفضاله ، القديم كماله ، العديم مثاله ، نحمده على إحسانه : العظيم نواله ، العميم اتصاله ، ونسأله أن يصلى على سيدنا نبيه محمد المصطفى الفصيح مقالهُ ، الفسيح فى الشرع مجاله ، الشفيع المقبول فى الأمة سؤاله ، وعلى آله وصحبه الذين هم نجومُ الهدى ، وأنصارُ الحق ورجاله . أما بعد فإنا منذ استودَعنا اللهُ ملكَ بلاده ، واسترعانا أمر عباده ، ومكن لنا فى الأرض . وبسط أيدينا بالبسط والقبض ، وأقْدرنا فى ممالكه على العقد والحل والإبرام والنقض ، وملّكنا زمام الزمان بالأمر والنهى ؛ ونهج لنا وبنا سبيل الرشاد وعفى طرق الغى ؛ وناط الهدى بتوفيقنا ؛ وأماط الضلالة عن ملكنا ، فهو للإحكام وهى للوهى ؛ وأعز بنصرنا الإسلام وأداله ، وأذل الكفر وأزاله ؛ وثبت الحق ومكنه ونفى الباطل وأزاله ؛ نفترض أداء شكر نعمته وإن كنا معترفين بالقصور عن أدائه ؛ ونرعى له فى بلاده وعباده حق ما خصنا به من عموم استرعائه ؛ فلا يسترعيها من

---

(١) الوارد فى ابن واصل : مفرج الكروب ، ١٥٢/٢ ، ان صلاح الدين زاد فى اقطاع تقى الدين ابن اخيه : « القايات وبوش » على أن رواية الروضتين تتفق مع النص أعلاه فيما يتعلق ببوش فقط . هذا ويلاحظ ان العبارة من « البحيرة جميعها .. » الى .. حوف رمسيس وهو ثلاثين ألف دينار » واردة فى هامش على ورقة منفصلة فى احدى نسخ السلوك التى رجع اليها الدكتور زيادة فى نشره للسلوك ، ٩١/١ ، هامش رقم ٢ وهى مطابقة فى الفاظها لعبارة المتن مما يحمل على الظن بان المقريزى استعمل نسخة المضمار دون الاشارة اليه .

الولاة إلا أولاهم برعاية الرعية ؛ وأكرمهم للتقوى التى تقوى بها المكارم وتوقى المكاره ، وأحكمهم فى الرأى الذى يصح ويصح به فى الأمور المحكم والمتشابه ، وأقومهم على سنتنا على إقامة فروض العدل وسننه ، وأعرضهم بحق إنعامنا فى تقبل منحه وتقلد منته ؛ وأطولهم فى الطول باعا ؛ وأفضلهم اتساقاً فى المنائح واتساعا ، وأسماهم فى بقاع العلى ارتفاعا ، وأولاهم لأبكار المحامد والمفاخر افتراعا ، وأجلاهم فى مشارق السعادة طلوعا (٦٦ب) وأجلهم على واجباتها اطلاعا ، وأبذلهم فى الجهاد اجتهاداً ، وأكثرهم فى سداد الثغور الإسلامية سداداً ، حتى تعود الولاية بإيالته منتظمة العقود ، والمملكة ببهجته مبتسمة السعود ؛ والسياسة بنضرة نظره مورقة العود ؛ والمصالح بصوب صوابه مصوبة المعاهد ، وتصل النصر بمضاء مضاربه مغموداً فى مفارق الأعداء مفارقا للغمود ؛ وتمحو أيامنا البيض بتوليته سيئات الليالى السود ؛ ولما كان ولدنا الأجل الملك المظفر تقى الدين — أدام الله علوه وضاعف رفعته وسموه — ذا المجد الشامخ ، والجد الباذخ والرأى الراجح الراسخ ؛ والعدل المجير المجيب استصراخ الصارخ ، والإصابة التى تقصر عنها خطى الخطوب الخاطية ، والقدرة المتوالية التى لديها العظائم ذوات الأقدار المتواطية ، والشيمة الزكية الذكية التى تضوع نشرها المتأرج ، وتوضح نشرها المتبلج ، وشيم عارض كرمها المتوج ، ورجى بحر سماحها المتموج ، والمناقب التى أشرقت زواهرها فى سماء السمو ، وألقت أزهارها فى رياض النمو ، وتليت آيات مدائحها بلسان العدو ، وجليت عرائس محاسنها فى مطالع العلو ، والبسالة التى فرق جموع الأعداء بأسها الشديد ، وثلم حدّ الكفر حدها الحديد ، وأعلى جدّ الإسلام جدُّها الجديد ، وهد ركنَ المنكر ركنُ عرفها المشيد ، وهو مقتد بسنتنا العادلة فى إحياء سنة العدل ، وتقوية بنية الفضل ، ورفع منار الشرع المنير ، وأعلى معالم المجد الأثيل الأثير ، وخفض جناح الرحمة للصغير والكبير ، وإسعاف العاف وإعانة العانى وإغاثة المستجير ، وقلدناه ولاية (١٦٧) الممالك والبلاد والثغور والديار المصرية ، وعدقناها

بكفايته ، وأوليناها النظام بولايته ، حليناها بحلية إيالته ، وعوّلنا عليه سياسة مملكتها ، وحماية حوزتها ، والذب عن بيضتها ، وفوضنا إلى نظره أمورها ، وجلونا فى آفاق تدبيراته الموافقة الموفقة نورها .

«وأمرنا كافة الأمراء والنواب والعساكر المنصورة المصرية على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم بامتثال أمره والانقياد لحكمه ، والتصرف على رسمه ، والحضور إذا طلبهم، والهبوب إذا ندبهم ، فإنا عضّدْنا به سلطاننا، وأمضينا سيفه — إذا اقتضتْه حدود الله تعالى — فى الآجال، وأطلقْنا قلمه فى الأرزاق التى يجيزها الله تعالى لكافة الأولياء والرجال ، وفوّضنا إليه هذه البلاد تفويضاً ماضية أحكامه ، متسق نظامه ، موصولة بمشيئة الله تعالى أيامه ، ووليناه إياه تولية من قد عرف قيامه بحق الولاية ، وانتهاءه فى مصالح الإسلام إلى الغاية ، وانتظام خلاله الكريمة بشروط الكفاية والكفالة ، وإضاءته فى قضاء الفضائل بالحسن والحسنى من الحلية والحالة ، وتوفره على الجهاد فى سبيل الله عزّ وجلّ بحراً وبراً بتجهيز أساطيله وكتائبه ، واعتماد كل ما يدلّ منه على مزيد الشكر فى استمداد مزيد مواهبه، وقيامه بتوفيق الله المعدّ له ، وكشفه بالرأى الثاقب مهمات الخطوب المشكلة ، وبسط اليد والقول فى العارفة والعاطفة للأولياء بالنبل والّلين ، وانتضاء سيفه وسوطه فى السطو على الأعداء لاقتضاء دَيْن الدين ، حتى تعلو كلمة الإسلام وتثبت ، وحتى تنبَتَّ عروق الكفر من أرض الله وتنبت ، وحتى تكتب المذلة على العداة فتُكْبت ، وحتى تجمع القلوب والألسنة على محبته (٦٧ ب) وشكره ، وتتفق الكافة على الائتمار لطاعة أمره ، ونحن نسأل الله تعالى أن يوفقه ويسدّده ، وأن يعضّدنا به ويعضده ، ويؤيدنا بحسن تدبيره ويؤيده ، والمستقر له من إقطاعه ما أثبت فى الديوان ذكره، وبُيّن فى هذا المنشور قدره، وهو ماسبق ذكره، فليتول نعمة الله تعالى بالشكر الذى يرتبطها ، وبسط اليد الذى ينشر عليه ويبسطها ، ونشاط الهمة الذى يطلقها من عقال التوقف وينشطها ،مستمسكا

من التقوى بأوثق عروة ، عاقداً بها من حب بذل الحباء أصدق حبوة ، فائزاً من النصر بالنجح فى مغازيه ومساعيه بأوفق خطوة ، ساميا من العز والجلالة والمهابة على أسمق ذروة ، مؤيداً من الله بالتسديد فى صرف كل حطب وتصريف كل خطوة » .

. . .

ثم توجهنا إلى مصر بالعسكر المصرى وذلك فى شعبان بمقتضى المنشور فسار فيها أحسن[1] سيرة محمودة ، وأقام فيها منار العدل بأتم سياسة .

* * *

ذكر ولاية الملك العادل سيف الدين حلب قلعتها وأعمالها

وكتب له أيضاً منشور وذلك فى شعبان من السنة ونسخته .

« الحمدلله ذى السلطان القاهر ، والإحسان الظاهر ، والامتنان الوافر ، والبرهان الباهر ، نحمده على إنعامه المتضاعف المتظاهر ، وإفضاله المتوافد المتوافر ، حمداً يؤذن بالمزيد للشاكر ، ونسأله أن يصلى على سيدنا نبيه محمد المصطفى ذى الشرع الطاهر[2] ، والنور الزاهر ، وآله الأكارم الأكابر ، ذوى المفاخر والمآثر ، ونسلم تسليما كثيراً . أما بعد فإن لله عندنا نعماً إن نعدها لا نحصيها ، ومنناً قد جمع الله لنا بشمولها الدائم شمل أعمها وأخصها[3]... ومواهب واضحة المذاهب فى التواصل والتناصر ، ومنائح متظاهرة العوادى والروائح (١٦٨) فى التوافد والتوافر ، وأيادى ملأت الأيدى والآمال نجـــاة ونجاحاً ، وعوارف عمّرت منا ومن أوليائنا الصدور والقلوب انشراحاً وارتياحا ، ولقد أتانا من الملك ماقامت لنا بالحق حجته ، ووضحت فى نهج السعادة بنجح الإرادة محجته ، وأيدنا عليه بالنصر الماضى النصل ، والعز الجامع

(١) فى الاصل « حسن » .
(٢) فى الاصل « الظاهر » .
(٣) فراغ فى المخطوطة بقدر كلمة واحد .

الشمل، حتى أذل لنا رقاب الأعداء، ومهد لنا وبنا أسباب الولاء، وملكنا قياد العباد، وكفّ عنا وبنا عنان ذوى العناد، وجعل سيوفنا وأقلامنا الأقاليم أقاليد، وفرق جموع الكفر بأسنا أشتاتاً عناديد، بالفتوح الأبكار بصوارمنا الذكور افتضاضها واقتضاؤها، والحتوف نحو الكفار بعزائمنا المصيبة المضارب فى ضرب الهام وطعن النحور انتهاضها وانتهاؤها، وثغور الإسلام عن ثنايا الثناء علينا ضاحكة الثغور، وأوامرنا فى إعلاء أعلام الدين منتظمة الأمور، والجهاد من جميع جهات ممالكنا براً وبحراً متسق الجموع، والتوحيد لقمع أهل التثليث ثابت الأصول نامى الفروع، والحمد لله عوداً بعد بداء على ما والاه من نعمه وأولاه، وأعاده من منحه بعد ما أبداه، «ربِّ[1] أوْزِعنى أن أشكرَ نعمتك التى أنعمتَ عَلىَّ وعَلى وَالدىّ وأنْ أعملَ صالحاً تَرْضاه». ومن جملة نعم الله سبحانه وأجلها وقوعاً، وأجلاها فى الجلالة طلوعاً، وأجدرها منا بالإخلاص والحمد، وأشرفها لنا فى مطالع السعد، وأوجبها لفرض الشكر، وأحراها بدوام الإشاعة والنشر، أنه سبحانه وتعالى شد أزرنا بأخينا الملك العادل سيف الدين ناصر الإسلام أبى بكر، أدام الله علوه ورفعته، وسموه ونعمته، وبسط يده وأيدَّ بسطته، ذى الباع الطويل، والطول الجزيل، والصدر الرحيب، والرأى الراجح المصيب، والجد المنيف المنير، والأناة والحزم والثبات (٦٧ب) والقبول؛ الذى وفر له فى القلوب مواد المودات؛ والجود الذى ينهل جودُه بإسعاف العافين من سماء السماح؛ والعاطفة التى تلحق الراجين جناح النجاح؛ والعارفة الفارعة، والمعرفة الصادعة، والهمة الصادقة، والمهابة الرائعة الرائقة، والسياسة الجامعة المانعة، والبسالة التى زلزل الكفر بأسُها، وتقوضت بها قواعد البدعة وأساسها، والتدبير الموافق فى حفظ الممالك ونظم عقودها، والنظر الصائب الصادق فى ترتيب المصالح وصون حقوقها

---

(١) قرآن كريم، سورة النمل ٢٧ : ١٩ .

وحدودها ، والعدل الذى أوضح سنته ، وأقام بين الرعية فروضه وسننه ، والسيرة التى تحلى التواريخ بأيامن أيامها ، وترد بها الدولة مرامى مرامها ، والاعتقاد الذى أنارت آفاقه من التوفيق بأنوار الخلوص ، وتوفر حظه من عموم تأييد الله عز وجل إياه على الخصوص ، فالملك بإيالته محكم القواعد ، مبرم المعاقد ، مستهل العهاد آهل المعاهد ، والدولة بإيالته شديدة السواعد ، سديدة المساعد ، صافية الموارد ، صادقة المواعد ، والدين بنصرته سامى القدر ، عالى الأمر ، نامى النشر ، والإسلام منه بناصره زاهٍ ، والكفر من بأسه بقامعه واهٍ ، والقدَر بقضاء الله تعالى على موافقة أمره آمرٌ ناهٍ ، والشرع بمحافظته على أحكامه وملاحظته أسباب نظامه مفاخر مُباهٍ ، فهو الشقيق الشفيق الذى لإيثارنا يؤثر ، ولرضانا يقصد وعلى مرادنا يجرى ، وهو كما قال الله تعالى عن موسى عليه السلام (واجْعَل[1] لِى وَزِيراً مِنْ أهلِى، هرُونَ أخِى، أشدُدْ بِه أزْرِى، وأشرِكهُ فى أمْرِى) والحمد لله الذى عضدنا بمساعدته ، وأسعدنا بمعاهدته ، وأظهرنا بنجدته ، وأنجدنا بمظاهرته ، وأظفرنا بموافقته ، ووفقنا لمظافرته .

«ولما أنعم الله تعالى علينا فى هذه (٦٩ ١) السنة بالفتوح المستفاضة والممالك المستضافة ، وحكم لنا فى توسيع دائرة المملكة بالزيادة[2] والأنافة . وفتح لنا البلاد ، وملك من كل ما رمناه القياد ، جرينا على أحسن الشيم ، فى إحياء سنة الكرم ، فما فتحنا معقلاً إلا ويدنا له مالكة واهبة ، والحازم من يكون ذا هبةٍ للدنيا فإنها ذاهبه ، وقد جعلنا لأخينا الملك العادل من الممالك التى تملكناها ، والبلاد التى فتحناها ، والمعاقل التى استضفناها ، أوفى نصيب ، وأصبح النجح منا لداعى رجائه أسرع مجيب ، ورأيناه أحق من كل بعيد وقريب ، وقلدناه أمور البلاد والمعاقل والثغور ، وفوضنا إليه فيها جميع الأمور ، فبيده الحل والعقد ، والبسط والقبض ، وإليـــه

(١) قرآن كريم ، سورة طه ٢٠ : ٢٩ — ٣٢ .
(٢) فى الأصل « بالزيادة على » .

الولاية والعزل و الإبرام والنقض ، وله القول الثابت والأمر النافذ ، وإلى فضله يرجع العابد ، و بعدّله يلوذ العائذ ، ونحن نرغب الله عز وجل فى أن يوفقه ويؤيده ويسدّده ، وسبيل الأمراء والولاة والنواب والأعيان والرعية والأصحاب الانقياد لأمره المطاع ، ومقابلة مراسمه بالامتثال والاتباع ، والرجوع إلى بابه ، والجرى على حكم نوابه ، والنهوض إلى الغزوات فى خدمة ركابه ، والوفود فى حالة الضراء إلى المربع المهرع والمنبع المنيع من جنابه ، فإنه فسيح الأولياء بالآلاء ، والأعداء بالأعداء ، ولديه كشف الغماء بالنعماء، وفى مهاب المحاب منه يضوع أرج الرجاء ، ومن شيمته الاقتداء بسنتنا فى بسط العدل والإحسان، وقبض أيدى الظلم والعدوان، وإسداء المعروف ، وإبعاد[1] الملهوف، وإعلاء معالم المعالى، وتكثير حسنات أيامه لتكفير سيئات الليالى ، والمجاهدة فى سبيل الله رابط الجأش لتأليف الإيلاف من جيوش (٦٩ب) الرباط ، وعمارة البلاد بحسن سيرته التى لم تزل مستقيمة على الحدود فى الإسقاط ، ومشايعة الشريعة المطهرة فى جميع أحواله أخذاً بالاحتياط، مؤيداً بالنصر من الله والتأييد والتمكين، حتى تنسى فى تلك الثغور غزوات سيف الدولة غزوات سيف الدين . ويحقق لجميع المسلمين قمع [المرتدين[2]]، ويعلى كلمة الإسلام بما يوليه من النصر الظاهر والفتح المبين .

وكتب له فى آخر المنشور تفصيل ما أنعم عليه به من حلب ومعاقلها . ثم توجه إلى حلب فى شهر رمضان من السنة .

• • •

ذكر الرحيل من الكرك الى دمشق

ولما رأى السلطان أن أمر الكرك يطول ، وأن شهر الصيام قد أظله ، وأن العسكر قد تعب وليس معه من آلات [الحرب] ما يكفى انصرف

(١) فى الاصل « وامعدا » .

(٢) كلمة ضائعة فى الاصل ، وقد اضيف ما بين الحاصرتين اجتهادا ليستقيم المعنى .

بعسكره راجعاً إلى دمشق فدخلها بعد أيام ، واستبشر الناس بقدومه .

* * *

ذكر وصول صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير من الديوان العزيز ووصول محيى الدين [ابو حامد محمد بن القاضى كمال الدين] بن الشهر زورى معهما رسولا عن صاحب الموصل
وذلك فى ذى القعدة :

ذكر السبب فى ذلك :

ولما عرف صاحب الموصل ما تسنى للسلطان من فتح آمد وحلب وغير ذلك من البلاد خاف على نفسه وبلاده ومال إلى الاستعطاف ، فاستدعى من الديوان العزيز إرسال شيخ الشيوخ للشفاعة إلى السلطان ، فوصل ومعه بشير [الخادم] ، وندب صاحب الموصل معهما القاضى محي الدين أبا حامد محمد بن محمد الشهرزورى ، وكان قدومهم إلى السلطان فى دمشق ، ولما علم بقدومهم استقبلهم بالإكرام والإجلال والاحترام ، فلما قرب بعضهم من بعض نزل ونزلوا له ثم ركبوا جميعاً ، فأنزل شيخ الشيوخ بالرباط على المنيبع ، وأنزل القاضى محي (١٧٠ ا) الدين فى جوسق بستان الخلخال ، ونزل شهاب الدين بشير جوسق صاحب بصرى على الميدان .

ثم أحضر السلطان شيخ الشيوخ وجرى بينه وبينه أحاديث شتى فى معنى صاحب الموصل واستخلاف السلطان على موصله ومراده ، فجرى من ابن الشهرزورى كلام فيه لشتطاط[1] واشترط أشياء ، وكان السلطان فاتر العزم فى العود إلى الموصل فهاجه على المسير إليها ، ثم أمر لهم بالإكرام والتشريفات والنفقات والعطايا السنية ، ورحلوا فنزلوا على القصير فراجع

---

(١) أورد ابن واصل : مفرج الكروب ٢/١٥٦ صورة لبعض ما قاله الشهرزورى من كلام احنق صلاح الدين .

نفسه الشريفة وقال : « قد استحيينا من مسير شيخ الشيوخ إلينا مرة بعد أخرى ، ولابد من رضاء المواقف الشريفة المقدسة » ، فركب فى خواص عسكره وأتى القصير ، فنزل فى خيمة صدر الدين [شيخ الشيوخ] ثم كشف له عن حاله وما جاء به ، وأنه قد أتى ليحوز مراضى الديوان العزيز ويكتب نسخة اليمين فى الصلح ، ففرح بذلك شيخ الشيوخ فرحا عظيما ، وأرسل إلى محيي الدين [بن الشهر زورى] يعلمه بالأمر ووصول السلطان لإصلاح ذات البين بجواب الرسالة الإمامية .

فلما رأى محيي الدين بن الشهرزورى تواضع السلطان ترفّع وقال : « أنا بعد ما جرى من الحال لا رغبة لى فى الحضور ، ولعلكم اعتقدتم أنه ليس لنا مُظاهر ولا مؤازر » ، وأشار إلى سلطان العجم وبهلوان .

فلما سمع السلطان ذلك تبسّم وقام بعد وداع صدر الدين ورجع إلى دمشق ، فكان بها بقية ذى القعدة وذى الحجة ، وكان قد عزم على الجهاد والمسير إلى حصار الكرك عند دخول سنة ثمانين .

ووصلنا كتاب السلطان إلى مصر بتحريض والدى الملك المظفر وحثه على إنفاذ العساكر المصرية للجهاد . وذلك فى العشر الآخر من ذى الحجة من السنة المذكورة .

• • •

فصل من (٧١-) مصدرة :

« قد تقدمت المكاتبة إلى مجلس الملك المظفر لازالت أيامه بالملك والظفر منعوتة ، وصلاة صلاته بالحمد والإخلاص موقوتة ، وولاة ولائه مرموقة ، وعداة آلائه ممقوتة ، ومنايا مناوئيه مكتوبة ، وشناة شانه مكبوتة ، وعرفناه ما شمل من نعم الله وفاض ، واستنار من لألاء آلائه واستفاض ، وأن الله أغاث بغيوث رحمته وبغوث نعمته حتى سالت أوديتها ، وسفكت دماء المحول بسيوف البوارق فلا يقال قودها أو ديتها ، فدم الحرب مطلول ، وسيف البارق مسلول » .

ومنها :

« وقد كاتبنا أمراء الأطراف باستعدادهم لاستدعائهم ، وأن يحزموا بجمع العساكر أوامرهم لأمرائهم ، فما منهم إلا من يسابق إلى تلبية النداء ، ويسارع إلى إجابة الدعاء ، ويعشق ولا عشق لقاء الأحبة لقاء الأعداء ، وهم الآن ينتظرون شتات شمل الشتاء ، وإذا رأوا آذار مقبلاً أقبلوا ، فإنهم مذ شاهدوا ضرع العارض حافلاً احتفلوا ، وأجمعوا أمرهم قبل الاجتماع بأمرنا فعلوا بما فعلوا ، والله عز وجل يمد الإسلام بفتوح تفوح أرجاؤها بأريج العز ، ويسمى للمجاهد فى سبيله ما وعدهم من درج الفوز ، وقد عزمنا — مع خروج شباط — [على] المسير إلى حلب ، لأن هناك العساكر يقرب اجتماعها ، والغنائم يتحقق اتساعها ، والمشاورات الصائبة يتدانى استماعها ، والهيبة فى النفوس تفخم ، والصيت فى الآفاق يعظم » .

* * *

ذكر وقعة قراقوش المكى المظفرى فى هذه السنة (١)

وفيها سار شرف الدين من جبل نفوسة إلى قابس فى يومين وليلتين وذلك مسيرة ثمانية أيام ، واعتقد أنه يقابض قابس أو يهجمها ، فلما وصلها لم يقدر على ذلك ، وأخذ (٧١ ا) القصد الذى لها على الساحل ، وفيه يبيع الروم ويشترون ، وأخذ منه أشياء كثيرة من أمتعة وفضة وغلة وغير ذلك . وأقام عليها على قرية من قراها سبعة أيام ، ووصله فى اليوم الثامن الثقل الذى له ، ورحل من القصر المذكور ، ونزل على قلعة حسن فأقام عليها شهراً يدبر الحيلة فى أخذها إلى أن كان فى بعض الليالى ساهراً ،

(١) خلى ابن الاثير من أحداث هذه الواقعة .

فأحضر خواصه ومن يشير عليه وقال : « قد رأيت أن أعمل لهذه القلعة الليلة عملا أرجو أن آخذها بمشيئة الله تعالى » ، فقالوا : « وما ذلك العمل الذى يكون ؟ » ، فقال : « إن هؤلاء ينزلون فى كل يوم يقاتلون أسفل الوطاء ، وأريد أن أكمن الليلة ثلاثمائة فارس من خلف هذا المنشار(١) وأكون فى الصبح راجعاً نحو القتال ، ويكون بينى وبين الكمين إشارة من دق كوس أو ضرب بوق ، فإذا رجعت ونزل القوم يقاتلون استجررناهم وانكسرنا قدامهم فيطمعوا فينا ، فإذا بعدوا عن الموضع وهم لايشعرون أن خلفهم كميناً (٢) ضربنا حينئذ البوقات دفعة واحدة ، فيركض أصحابنا من موضعهم ، فلا يكون لهم عمل إلا أنهم إذا وصلوا إلى رأس المنشار الذى يتصل بعقبة المطلع ترجلوا عن خيلهم وطلعوا إلى القلعة لا يبقى فيها من يقاتلهم ، وإذا رأى المقاتلة ذلك انخذلوا ، فإذا رجعوا منهزمين ركبنا أكتافهم ، وقاتلهم أولئك الذين صعدوا الطريق ومنعوهم من الطلوع فقتلناهم عن آخرهم أو أكثرهم وملكنا القلعة » ، ثم قال : « يروح فلان وفلان » حتى عدّ ثلاثمائة وأمرهم أن يكمنوا بحيث قال .

فلما أصبح ركب وزحف فكان ما اعتقده من نزول أهل القلعة وقتالهم فى الوطاء ، واستجرهم وانكسر لهم ، فلما أبعدوا ضربَ الكوسات والبوقات ، فأقبل الكمين من موضعه فسبق إلى الطريق إلى القلعة ، وأقبل المقاتلون فوجدوا الطريق قد ملكت عليهم فانخذلوا ووقع فيهم السيف (٧١ ب) ، فملك أولئك القلعة وما احتاجوا إلى مساعد ، فكان عدة من قتل فى ذلك اليوم ألفين وثمان [مائة](٣) رجل من البربر ، وترك الباقين واحتوى على القلعة وما فيها ، وغنم منها أموالا عظيمة جمة فرّقها على أصحابه ، ووجد فيها

(١) المنشار حصن قريب من الفرات وقيل جبل ، مراصد الاطلاع ١٣٢٠/٣ .
(٢) فى الاصل « كمين » .
(٣) ما بين الحاصرتين ضائع فى الاصل .

من الغلات شيئاً عظيما ، وكان عندهم بنفوسة غلاء ، فأعطى الأجناد منها ما أقام بهم بقية سنتهم ، ورحل عنها ونزل على قلعة يقال لها « أم أدوت » وهى لا يطمع فى قتالها ، فأقام عليها أياما وراسل أهلها وقال لهم : « أعطيكم الأمان على أنفسكم وأموالكم وأعطيكم من الضياع ما تريدون » ، فأبوا عليه ولم يعيدوا عليه جوابا ، فأقام أياما لا يكلمهم ولا يراسلهم ، فأرسلوا إليه : « إننا نفعل ما أمرتنا به ، وأعطنا الأمان على أنفسنا وأموالنا ، وأعطنا ما نريده من الضياع كما بذلت لنا » ، فقال : « قد كان ذلك ، وأما الآن فما عندى لكم أمان إلا على أنفسكم وأموالكم دون عطاء ضياع » ، فأمسكوا عنه أياما ما أجابوه ، ثم طلبوا منه الأمان على الأنفس والأموال لا غير [1] ، ثم لم يشعر بهم إلا وقد نزلوا إليه بأجمعهم بكرة يوم من غير أمان ولا كلام ، فعجب من عقولهم وقال : « كيف نزلتم ؟ » فقالوا : « أبيت أن تعطينا الأمان إلا على أنفسنا ، وما نحن كفار نخاف الأسر وقد نزلنا » ، فقال : « ما منعكم [2] أن تقبلوا ما أعطيتكم إياه أولا وثانياً ؟ » ، فقالوا : « سعادتك ، فإنا تجلدنا فى الأول ورجونا رحيلك ، وما كان عندنا ماء يكفينا ، فلما امتنعنا وأقمنا أياماً وما رحلت رجونا أنك تعطينا ما تعطينا فى الأول ، فلما امتنعت منه طمعنا فى الرحيل أيضا مثل الدفعة الأولى ، فلما لم ترحل طلبنا الأمان الثانى فأبيت ، فلم يبق إلا النزول عند فراغ الماء » ، فأخذ القلعة وما فيها ، وما كان فيها حاصل مثل قلعة حسن ، وجعل بها نائبا ، ولم تزل فى يده إلى أن أخذها من نائبه المايرقى (١٧٢) ، وأخذها المايرقى بالعطش أيضا ، إلا أن المايرقى ما رتب فيها أحداً بل تركها لأهلها الأولين .

رجعنا إلى الحديث :

ثم رحل شرف الدين [قراقوش] عنها وعاد إلى نفوسة ، وهذه

---

(١) بعدها فى الاصل عبارة « فأبوا ، وما أجابوه أياما » ووجودها يجعل السياق مضطربا .

(٢) فى الاصل « امنعكم » .

القلعة بالقرب من جهة مطماطة ومن نفزاوة[١] ، فأما الحامة فإن الذى يكون نازلا عليها يشاهد بساتين الحامة ، وأما نفزاوة فبينها وبين القلعة جبل يسمى اللوح .

ونفزاوة بين بلاد كثيرة يكون فيها ما يزيد على أربع عشرة مدينة ، ولها نحو من مائتى ضيعة ، وكلها نخيل وزروع على العيون ، وكان فيها مدينة تسمى « طرة » ، وإلى جانبها مدينة تسمى « بيامن » ولها مقدم يقال له « سيد الناس » وله أخ يقال له المنصور ، وكان بينه وبين أهل بشترى[٢] (مدينة عظيمة من مدائن نفزاوة) عداوة .

ولما سمع بقوة شرف الدين وتدويخه البلاد التى إلى جانبه أراد أن يجعل عنده يداً ويبلغ غرضه من أهل بشترى بيد شرف الدين فكاتبه وراسله وحلف أن يسلّم إليه طرّة وبلمن وما لهما من ضياع ويعينه على ملك ما فى نفزاوة .

فلما تحقق شرف الدين منه ذلك علم أنه يملك ذلك إذا دخل سيد الناس فى طاعته ، وكان الحديث بينهما فى أيام الربيع ، وكان شرف الدين ذلك الوقت نازلا بالساحل : ساحل طرابلس ، وكان قد وصل إليه من الديار المصرية جماعة فيهم شجاع الدين بن شكل ، وقد فرح بهم وزاد عسكره فصار نحواً من ثمانى مائة فارس من الأتراك والأكراد ، فأعطى ابن شكل شجاع الدين قصوراً ما بين كندة والسويقة يكون فيه أربعون ضيعة جُعل له خاصاً ، ولمماليكه معه ثمانية ، ودخْلُ الموضع يكون قريباً من أربعين ألف

---

(١) بكسر النون وسكون الفاء مدينة هامة من أعمال افريقية ، بينها وبين قفصة مرحلتان ، راجع ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٣/١٣٨٢ .

(٢) ضبطها مراصد الاطلاع ١/١٩٦ بفتح الباء وسكون الشين وفتح التاء والراء واكتفى فى التعريف بها بانها مدينة بافريقية .

دينار مأمونية ، وقال : « إذا فتح الله البلاد وملكناها أعطيك ما هو أكثر من هذا وأعظم » ؛ هذا بعد أن خلع عليه وأعطاه خمسين جملا وعشرة من الخيل وثمانية ألف دينار .

وسار شجاع الدين بن (٧٣ ب) شكل معه فاستغل الموضع الذى أعطاه وزاد فى استغلاله بخرابه ومصادرة أهله ومطالبتهم بما لا يقدرون عليه، فرفع ذلك إلى شرف الدين فقال : « هذا الموضع قد أعطي [ته له][1] فلا أنكّده عليه ، إن شاء أن يعمّره وإن شاء أن يخرّبه » .

ولم يزل شرف الدين فى تلك الخطة إلى آخر السنة المذكورة .

* * *

سنة ثمانين وخمس مائة

فيها تقدم الخليفة إلى داود صاحب الديوان أن يخرج إلى الكوفة ويعدّ نخيلها ويحقق عدده ويستوفى الخراج من أهلها ويعتبر معاملاتها ، فتوجه [داود] وأقام بها مدة يسيرة . فخرج أهلها من بين يديه ، وجاء جماعة منهم إلى بغداد يستغيثون من يده ويلازمون الخطيب كل يوم جمعة ويبالغون فى الاستغاثة ، وكثر ذلك منهم . فبرز الأمر بإحضار صاحب الديوان ، وكان قد نقل إلى أستاذ الدار ونائب الوزارة ابن البخارى أن شيخ الشيوخ يعرض على الخليفة مكتوبات سرًّا ، فنسب ذلك إليه فأخذ كل منهما يقبح فعله .

وأما صاحب الديوان فإنه حُمِلَ إلى ديوان الزمام فجلس فى الخزانة

---

(١) ما بين الحاصرتين ضائع من الاصل .

التي في دهليز بيت الجيش ، ونفذ إليه ابن البخاري وطالبه بألف دينار .

وكانت بنت العطار أخت ظهير الدين زوجة صاحب الديوان واعتقد أستاذ الدار أنه قد حصل له منها شيء ، فنفذّ إليه وضيقّ عليه ، فكتب شيخ الشيوخ إلى الخليفة — ثبت الله دعوته — قصة يذكر فيها أن « هذا داود كان عندي في رباطي على قاعدة الصوفية تقدم باستخدامه في الديوان العزيز ، وقد استغنى عنه ، وقد صُرف ، وقد وكلّ به في الديوان العزيز ، والمملوك يسأل مالك الرق أن ينعم عليه به ويتقدم باستيفاء ما قرر عليه من مالي » ، فتقدم الخليفة بأن يسلم داود إلى (١٧٤) شيخ الشيوخ فسلمّ إليه ، فأسكنه في دار قريب من رباطه ، فكان لايزال ملازما للرباط ليلا ونهاراً ولايخرج منه خوفا من أستاذ الدار .

وفيها بذل أبو السعود بن جعفر ألفاً وخمسمائة دينار على أن يكون حاجب الحجاب فأذن له في ذلك ، وكان حاجب الحجاب يومئذ بهاء الدين أبو الفتح ابن الدارنج ، وكان ابن البخاري يتعصّب لابن الدارنج ، فسأل أن يرتب ابن الدارنج عارض الجيش المنصور على أن يؤخذ منه قرية للديوان المعمور ألف وخمسمائة دينار ، فأذن له في ذلك قريب ابن جعفر حاجب الحجاب وابن الدارنج عارض الجيش ، وكان ذلك على غير اختيار ابن البخاري لأنه كان يبغض ابن جعفر لأنه كان مفسداً كثير الشر ، فلما استقل بالحجبة تقدم إليه أن يكتب في كل يوم مطالعة إلى أستاذ الدار بجميع ما يجرى في المجلس من قليل وكثير ، فكان حاجب حجاب وصاحب خبر ، وكان أستاذ الدار قد تغيرّ على ابن البخاري النائب لكونه كان يسمع عنه أنه يخلو بابن الكرخي ويحدّثه وأنه يذكر له أشياء يقولها للخليفة ، وكان ابن الكرخي يقول للخليفة : « ليس لك نائب وزارة مثله ولكن ماله حكم ، وإنما هو غلام بين يدي أستاذ الدار ، ولو كشف عن باطنه رؤي قلبه قد دوّد من شدة ماهو عليه ، ولو مكنته كنت ترى العجب»

وكان ذلك يُنقل إلى أستاذ الدار ابن الصاحب من حضرة الخليفة ، وأستاذ الدار لا يُشعر أحداً أنه يعلم ذلك .

وفيها مات الشيخ يونس ، وكان ابنه نائب أستاذ الدار فى ديوان الأبنية المعمورة ، وكان موته فى الدار التى برأس درب الدواب ، واجتمع له الناس لأجل ولده وفتح له جامع القصر وحضر أرباب الدولة للصلاة على جنازته ، وحمل إلى قبر سلمان الفارسى بالمدائن فدفنوه هناك على حذيفة بن اليمان ، وذكر ابن يونس أن لهم بحذيفة وصلة (٧٤ ب) نسب ؛ وبنى عليه قبة حسنة .

* * *

وفيها دخل الخليفة — ثبت الله دعوته — المدرسة النظامية ليلة سبع وعشرين من رمضان وكانت ليلة الختمة ، فرأى المدرسة شعثة ، ورأى الإيوان الذى بها شعثا وأرضها كثيرة التراب غير مطبقة ، فلما خرج منها تقدم إلى أستاذ الدار ابن الصاحب أن يعمرّ النظامية من ديوان الأبنية المعمور ويطلق لها جميع ما يحتاج إليه ، فتقدم إلى ابن يونس أن يتولى عمارتها وإصلاحها ، فنفذ إليها الصناع وجميع الآلات وجميع مايحتاج إليه من حُصُر وغيره ، ورتب فيها جماعة من غلمان ديوان الأبنية يحثون على العمل ، فغرم عليها مبلغ كبير .

وفيها خلع آل تنبه الشطرنجى أمير واسط على جميع عسكره : كل واحد قباء لونين ، فكانت قبيحة فى أعين الناس ، فكان أهل بغداد يعيبون عليه ذلك ويقبحونه ، وكان مفرطاً فى الشرب ذا سيرة قبيحة ، وكان شرب ذات ليلة فبلغ الخليفة — ثبت الله دعوته — ما هو عليه من الفحش والبطالة فقال لابن يحيى ولأبى العز ولنجاح الشرابى وابن الكرخى : « قوموا بنا نمضى إلى عند الشطرنجى ننظر ما هو عليه من سوء حاله وتدبيره » ، وكان

[الشطرنجى] فى دار حسنة فى درب[1] الدواب ، فدخلوا عليه وهو يشرب فقام وخدمه وجلس بين يديه ، فأخذ منه غفلة وضربه بالسيف ، فقام إليه وقبض عليه وأراد أن يهلكه ، وكان الشطرنجى أقوى منه فقام أقش مملوك الشطرنجى وساعد أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — وخلصه منه ، فضربه ضربة أخرى فقتله فى وسط الدرب ، وتقدم إلى بعض الخدم أن يؤخذ ويرمى من ساعته فى دجلة ، وبقى الدم فى موضع قتله ، فكان أهل بغداد فى صبيحة ذلك اليوم يأتون (١٧٥) مرا إلى باب الشطرنجى وينظرون موضع قتله .

وجاء جماعة من الجباة إلى باب النوبى نصف الليل فقام المستخدم الموكل به وقال : «ما الخبر» ؟ فقالوا : «خذ هذه الرقعة وسلمها إلى أستاذ الدار» ، فأخذ الرقعة وحملها إلى أستاذ الدار فوقف عليها فضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال : «لاحول ولاقوة» ، وانزعج ، واستعظم الناس هذه الحال وصاروا يخافون الخليفة ، وحصلت له الهيبة فى قلوب الناس .

ولما أصبح الخليفة تقــــدم إلى أستاذ الدار بالقبض على جميع أصحاب الشطرنجى وأسبابه وأخذ جميع ماكان فى داره ، وأمر بإحضار أقش مملوك آل تنبه الشطرنجى ، فأعطى خمس مائة دينار وخلع عليه ورسم أن تكون هذه جاريةً عليه مستمرة فى كل سنة يأخذها من الديوان .

ثم برز الأمر بأن تعطى واسط وأعمالها وبلادها لمجاهد الدين خالص الخادم ، وأن يكون فيها على ماكان آل تنبه الشطرنجى فوقع بها له . وكان لآل تنبه أخ مملوك يقال له آق سنقر من جملة مماليك الخليفة وكان مستحسناً ، فتقدم الخليفة بأن يخلع عليه وأن يعطى الدار التى فى درب نصير ، وكانت

---

(١) فى الأصل « رب » .

تعرف بفالك الدين أمير البصرة ، وكانت داراً جميلة ، وتقدّم إليه أن يكون ملازما للبدرية ، وأن لايمضى إلى موضع إلاّ بإذن .

* * *

وفيها رتب ابنُ يونس وكيلَ الباب الشريف عوضا عن أبيه ، وكانت له مطالعة تعرض بين يدى الدواة الشريفة .

* * *

وفيها رتب ابن حمدون مشرفاً فى ديوان الأبنية .

* * *

وفيها كثر قـــول ابن يونس فى أستاذ الدار ابن الصاحب وكذلك عز الدين الشرابى وجماعة ممن تحضر الخدمة الشريفة ، وكانوا يرون أن متى أستاذ الدار رجع رجع الأمر إليهم ، وكان الخليفة شديد الخوف من أستاذ الدار ، وكان (٧٥ ب) قد أثر فى نفسه قول أولئك الذين ذكرناهم ، وكان يرى نفسه أنه محجوز عليه ، وكان لا يجسر أحد أن يتظاهر إلا بمتابعة أستاذ الدار .

وفيها خرج الخليفة ومعه جماعة منهم أبو الحسن بن الكرخى وأبو العز ومحمد بن يحيى وعلى بن أبى الكتائب والمقرب على بن ذبابة الفراش ويحيى القواس إلى قرية تعرف بالحسنة من أعمال طريق خراسان فنزل فى دار رئيسها ابن سرخاب ، وكان أيضاً ينزل فى ناحية توهرت فى دار رئيسها ابن معالى . وكان ابن معالى حينئذ ناظراً فى طريق خراسان ، فخرج بتلك الجماعة المذكورة لرمى الطير بالبندق وتقدم إلى الجماعة أن يرموا[1] له، وإن كان هو

---

(١) فى الأصل « يرمون » .

أصل هذا الأمر . ومن أقوال رماة البندق أن بزر جمهر — وزير كسرى أنو شروان — كان [له] أصل فى هذا الأمر [و] ميل عظيم [له]، وتكاثر الناس ذلك وصار لهم فيه قول مضبوط محفوظ واحتراز من الكذب ، فصرع أستاذ الدار أبو الفضل بن الصاحب فى ذلك المقام طيراً ورمى للخليفة وتابعه جماعة من الأمراء وغيرهم من الناس .

وفيها حضر أمير المؤمنين الناصر لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه فى بستان تاج الدين بن رئيس الرؤساء الذى [هو] ملاصق للبيمارستان (١) العضدى فاستحسنه، فتقدم إلى أستاذ الدار بأن يشتريه من أولاد تاج الدين، فنفذ أستاذ الدار إليهم وعرفهم الحال وأحضر إليهم الشهود واشترى منهم الموضع بثلاثمائة دينار ، فكان أولاد تاج الدين يرون هذه الواقعة أنها من أستاذ الدار . وكان فى الموضع دار مستحسنة فأمر الخليفة بهدمها وأمر بعمارة دار أحسن منها فعمرت على أحسن ما تكون من العمارة .

وكان الخليفة (١٧٦ا) يخرج بعض الأوقات إلى ذلك البستان للتفرج والتنزه، لأن الموضع كان على شاطىء دجلة .

* * *

وفيها توفيت أم أبى الفضل بن الصاحب أستاذ الدار العزيزة ، وكان يوم موتها يوماً مشهوداً . وحضر لموتها جميع أرباب الدولة، وأراد أن يخرجها أستاذ الدار ليلا فلم يمكن من ذلك وأمر بإخراجها نهاراً ، وبرز

(١) كان هذا البيمارستان فى الجانب الغربى من بغداد ، وهو منسوب الى عضد الدولة بن بويه ، وقد درس فيه — حين انشائه — جمع غفير من اعلام الطب العربى فى ذلك الوقت انظر ابن ابى اصيبعة : طبقات الاطباء ٣١٠/١، ورسوم دار الخلافة لابى الحسين الصابى ص ١٤ حاشية رقم ٨ .

الإذن بالتقدم إلى أرباب الدولة بحضور جنازتها والمضى خلفها، فحضر جميع أرباب الدولة وأكابر بغداد ، ونفذ ابن البخارى نائب الوزارة وسأل أن يؤذن له بالحضور فلم يؤذن له فى ذلك ، وحضر جميع الأمراء والمماليك الخواص ، وحضر جماعة القراء إلى الديوان العزيز ، وصلى عليها الشيخ أبو طالب بن الخل وجميع من فى الدار ، وأرادوا أن يخرجوا التابوت من الدار فلم يقدروا على إخراجه من كبره ، فنقض حائط الإيوان مما يلى الباب وأخرج منه التابوت ، وركب أستاذ الدار ، وأرباب الدولة مشاة بين يديه وجميع الناس .

وكان فى ركابه حدود من خمسمائة سيف مشهورة إلى أن أشرف على دجلة ، فنزل فى سمارية خفيفة وعليها قبة سوداء ومشدة فى رأس القبة ، وركب بعض الناس فى السفن وبعضهم على الطريق وكان يوما لم يذكر لأحد بمثله، فساروا فى دجلة إلى مشرعة مشهد باب التبن وهو مشهد موسى بن جعفر — على ساكنه أفضل الصلاة والسلام - ومشى ، ومشى الناس بين يدى أستاذ الدار من مشرعة المشهد إلى الحفرة ، وكان شمس الدين الركاب سلار[1] بين يديه قابضاً على عنان المركوب، ثم حملت الجنازة إلى قبر موسى بن جعفر ودفنت فى الحضرة .

وكان الخليفة هو وجماعة من المماليك الخاص فى دار للشرابى مشرفة على شاطىء دجلة وكان عند مدرسة السلطان مسعود يشاهد (٧٦ ب) تلك الأحوال سائرها . ورجع أستاذ الدار إلى دار الخلافة وأمر الناس أن لا يأتى منهم أحد للعزاء .

ولما رجع أستاذ الدار إلى منزله أرسل إليه الخليفة بأطباق من طعام

---

(١) لعله يقصد بذلك ما يسمى — وان كان متأخرا عن زمن هذه الاحداث — بالركاب دار ، وهو الذى عرفه القلقشندى : صبح الأعشى ٤/٧ — حين تعريفه بالغاشية — بانه الشخص الذى يحملها رافعا لها على يديه يلفتها يمينا وشمالا .

وأنفذ له خلعة وتشريفاً جميلا ، وقال له : « اركب حتى تمضى إلى الصيد ولا تجلس للعزاء » .

وفيها توفى ناصر الدين بن شيخ الشيوخ ، وكان شاباً جميلا مستحسناً، — وكان أكبر بنيه — وذلك فى شهر رمضان من السنة .

ذكر مكرمة شيخ الشيوخ

كان [شيخ الشيوخ] جالساً على الطبق مع الصوفية وقت الإفطار فجاءه بعض الصوفية وسارَّه فى أذنه على الطعام ، فسجد سجدة طويلة ثم رفع رأسه وأكل مع الصوفية إلى أن استوفوا الطعام على جارى عادتهم، ثم تقدم إلى خادم الصوفية بإحضار حلوى فأحضرت ، فلما علم أن الناس قد قضوا حاجتهم من الطعام والحلوى قال : «عن إذنكم، فإن ولدى قد مات » . فلما كان صبيحة ذلك اليوم شرع فى تجهيزه وغسله وتكفينه وهو جالس فى وسط الناس يتحدث على جارى عادته ويضحك مع الناس ، وتعجب الناس من صبره وحسن طريقته .

وتقدم الخليفة إلى أستاذ الدار بإنفاذ جميع القراء إلى رباط شيخ الشيوخ لحضور موت ولده ، وأن يمضوا مع الأمراء والمماليك الخاص، وكان يوما مشهوداً .

وفيها تقدم الخليفة بعمارة دار الفلك، وكان الفلك رجلا(١) ضريراً معنى، وكان قدمات فى أيام الدولة المستضيئة سقى الله عهودها الرضوان ، وكان يلقب بالفلك، وكان ممن يحاضر الإمام المستضىء بأمر الله ، فلما مات لم يكن له وارث إلا بيت المال ، فأمر الخليفة — صلوات الله عليه — فى أيامه بعمارة دار الفلك الضرير ، فوطئت أرضها ودكت ، وأمر بحضور ابن العويلة وأستاذ الدار

(١) فى الأصل « رجل ضرير » .

إلى هذه (١٧٧ ا) الدار المذكورة وقال : « أريد أن تقسم هذه الدار وأنا حاضر ، فإنني قد كرهت عدة دور لأجل قسمتها » ، فقسمها متقدم البنائين وأستاذ الدار ، فأبطل ماقسموه جميعاً وأخذ ورقة بياض كبيرة وخط فيها صورة الدار ، وتقدم إلى أستاذ الدار أن لا يمكن أحدا من عمارة إلى أن يفرغ من هذه الدار، فجمع إليها جميع الصناع والأمانين والنجارين ، فلم يتخلف أحد من الصناع ببغداد إلا وحضر إليها ، وتقدم الخليفة أن يحضر الحاجب ابن مسافر ويؤمر بأن يزوق بيت الخيش الذى يلى الشط صورة جماعة يذكرون ، فأحضر ابن مسافر إلى دار الفلك ، وقيل له أن يصور صورة ملوك أحضروه عنده ، فنقله على الحائط مثله من غير أن ينقصه شيئاً ، فلما حضر الخليفة ورآى تلك الصورة أعجبته صنعته فأمره بأن يلازم المكان، فقال ابن مسافر : أريد أن يكون معى غلام معه زبدية الأصباغ ويناولنى ماأريد ، فقالوا له : « إختر من أردت » ، فقال : « أريد معتوق النقيب » وكان من نقباء الديوان العزيز ، فنفذ إلى معتوق وأحضر ، وكان طوال النهار على الخشب راكباً ، وكان الخليفة يدخل ويضحك على ابن مسافر ورفيقه النقيب ، فلما فرغت الدار أمر [الخليفة] أن يخلع على ابن مسافر وعلى معتوق رفيقه ، ورسم أن يرتب ابن مسافر حاجب منطقة ، وزادوا معتوقا فى معيشته .

وأمر الخليفة الفراشين بغسل دار الفلك وأن ينقل إليها من الفرش جميع مايحتاج إليه من الآنية وغير ذلك ، ورتب فيها محمد بن جلدك فراشاً ومعه جماعة من الفراشين ، وزخرفت الدار بالذهب والفضة حتى ذكر أنه لم يعمر مثلها . وكان الخليفة إذا أراد أن يصعد إليها من دجلة وقف الناس يرقبون صعوده فينظرون إليه لأن بين دار الفلك ودجلة خطوات (٧٧ب)، فتقدم فأمر بأن يعمر حائطان مشرفان من باب دار الفلك إلى شاطىء دجلة فيكون مثل الدرب ويجعل فيها طريق للمسلمين بحيث إذا صعد

لا يبصره أحد ؛ ورتب فى الدار جماعة كثيرة لحفظها ، وجعل لهذه الدار حرمة كحرمة التاج الشريف .

وفيها تقدم الخليفة بأن يعمر للشيخ عبد الجبار — متقدم الفتيان — صومعة تحت بغداد يكون دائرها سور داير ، فعمرت وانتقل إليها الشيخ عبد الجبار، وصار الخليفة يكثر التردد إلى عنده والحديث فى الفتوة ومعرفة الفتيان ، وكان الناس يمضون إلى الشيخ عبد الجبار ويزورونه ويخدمونه ويتقربون إليه لأجل الخليفة — ثبت الله دعوته — وكان الخليفة إذا أتى إلى عبد الجبار رأى عنده العقاب نسيبه وهو ملازمه ، فصار العقاب يتحدث مع الخليفة ويحضر عنده ويأتى إليه .

وكان ببغداد رجل يقال له داود بن سمرة متقدم فتيان جماعة ، فأراد الخليفة أن يحضر عنده ويسمع كلامه عنده ومال إلى كلامه وقرب لديه وصار الخليفة ينفذ إليه يحضر عنده فى البدرية ويتبسط معه ، وكان عبد الجبار لايسره ذلك ولا يشتهيه ، وكذلك العقاب وعبد الجبار أيضاً ماكان يسرهم ذلك ، والخليفة لا يعلم حقيقة ذلك ، وكلما جاء داود بن سمره كثر عند الخليفة وزاد موضعه وصار خلفه حدود عشرة ألف رجل ينسبون إليه ، وخاف منه عبد الجبار وجماعته .

وفى هذه السنة سألت أم الخليفة أن يؤذن لها فى زيارة مشهد سرمن رأى — على ساكنه السلام — ومشهد صندوديا ، فتقدم الخليفة إلى المخزن المعمور أن يعمل لها ما تحتاج من الإقامة ، وتقدم إلى ابن يونس الوكيل بباب الحجرة الشريفة أن يكون (١٧٨) على عزم السفر وأن يتسلم جميع ماعمل للسفر، وأن يتقدم إلى جميع العسكر والمماليك أن يكونوا فى الخدمة، وأن ينادى فى جميع العسكر أن الخليفة فى الصحبة للزيارة ، فأخرجت الخيم والمضارب والنوتيات ، وخرج الخليفة وأمه إلى الزيارة ، وكان يركب

وبتصيد والعسكر فى خدمته وهو غير متظاهر . وكان الأمير عماد الدين طغرل معه، وكان(١) الخليفة يفرق كل يوم على الأمراء صناديق الحلاوات وأصناف المأكل والفاكهة ، وابن يونس يتولى ذلك جميعه ، وكان على ابن أبى الكتائب ويوسف بن عنبر وأبو العز ومحمد بن يحيى وأبو الحسن ابن الكرخى والطاهر شرف الدين أبو الفضل بن الطاهر نقيب الطالبيين ، وكان [الخليفة] يدخل للزيارة هو وأمه ولا يمكن أحد من الدخول إلى الزيارة إلا بعد خروجهما ، وأنفق من الأموال حدودا من عشرين ألف دينار ، وكان سعود الخادم متولى دجيل فكان ينفذ فى كل يوم إلى العسكر إقامة من شعير وتبن وأغنام وأبقار وغير ذلك أشياء كثيرة ، وكان جميع من كان عند الخليفة منسوبا إلى أستاذ الدار ابن الصاحب [يذكر] جميع ما يجرى يوما فيوما وساعة بساعة، وعاد الخليفة — دام ظله — من تلك الزيارة ومن معه من الأصحاب والأمراء فى السفن إلى تحت التاج من باب البشرى، وكان جماعة من المماليك والأمراء يذمون ابن يونس ويقحون ذكره لكونه كان الخليفة يأمره أن يعطى الناس فكان يعطى قليلا، حتى إنه رد من صناديق الحلوى والأطعمة كثيراً ، فعلم الخليفة بذلك فأنكر عليه وفرّق جميع ذلك على دور الأمراء والمماليك وأرباب الدولة، وكان الخليفة قد تقدم إلى أستاذ الدار أن يعمر مشهد سر من رأى وأن يشيده وينفذ إليه فرشا وبسطا (٧٨ ب) وجميع ما يحتاج إليه ، وكذلك أيضاً فعل بمشهد صدودياً وأن يعطى جميع المجاورين بهذين المشهدين ثلاثة ألف دينار ، وأعطى مشهد موسى بن جعفر — على ساكنه السلام — ألف دينار لعمارته وخمس مائة دينار تفرق على ساكنيه .

وفيها عمرّت أم الخليفة مسجدا بمشرعة السقائين على شاطىء دجلة

---

(١) فى الأصل « وكان يفرق الخليفة ».

بعشرة الحطابين وغرمت عليه جملة كبيرة وقالت : « لايصلى فيه إلاّ رجل حنبلى » ، فأحضر إليها من باب الأزج مقرىء جيد ، فأمرت به أن يحمل إلى باب الحجرة وأن يخلع عليه ففعل به ذلك وجعل إماماً لذلك المسجد .

* * *

وفيها تقدّمت أم الخليفة بعمارة مشهد لرجل يقال له الشيخ على بن الهيتى ورباطاً هناك ، فعمل له قبة عجيبة البناء ، وكان هذا الشيخ على بن الهيتى رجلا صالحاً يُحكى عن عماد الدين بن رئيس الرؤساء أنه خرج من بغداد وتوجّه إلى ناحية زويدان لتلقىّ الحاج ، وكان معه ابن يوسف الدمشقى الواعظ ، فقال ابن يوسف لعماد الدين ابن الوزير إن الشيخ على الهيتى كبير السن فى عشر التسعين ، فقال عماد الدين : « لا يعقل بل يكون له سبعين أو فى عشر السبعين » ثم خاضوا فى حديث غيره إلى أن وصل الوزيران وجاءا إلى الشيخ على بن الهيتى وهو يصلىّ العصر وقد سبق العماد بركعة واحدة ، فلما دخل معه فى الصلاة وفرغ من صلاته تقدم عماد الدين ليأخذ يده ويصافحه ، فلما ترك يده فى يده قال له : « أنت على الصحيح ، فى عشر السبعين نحن » قال العماد : « فقبلت يده وعلمنا أنه صاحب كرامات » .

ثم إن أم الخليفة لما أكملت بنيان تلك القبة[١] أوقفت عليها قرية جيلة يكون ارتفاعها خمسمائة دينار ، وحملت إليها جميع ماتحتاج إليه من فرش وقناديل من جملتها قنديلان[٢] أحدهما فضة والآخر ذهب ، ثم (٧٩ ا) عملت على قبره — لما مات — صندوقا من الساج وغرمت عليه جملة كبيرة وكتبت اسمها على دائر الصندوق : « هذا ما أوقفته بحر دوّة أمير المؤمنين » .

وفيها تقدم الخليفة إلى أستاذ الدار أن يعمر له داراً فى ناحية حسناباذ

(١) أى قبة الشيخ على الهيتى .

(٢) فى الاصل « قنديلين » .

من معاملة نهر ملك وتقدّم إليه بأن يعجل فى عملها ، فجمع إليها جماعة من الصناع وحشر إليها أرباب الصنائع ففرغت فى مدة يسيرة . وكان يخرج ومعه جماعة لرمى البندق ويلبس ثياب الرماة ويرمى مع جماعة منهم ليلا وبكرة وعشية ، وكان يجد المشقة فى ذلك ويلبس قميصين من قطن أزرق ويفعل ذلك بيده أيام الرمى .

وفيها أحضر جماعة من قبّاض الحمام مثل ابن الدوامى وابن جابر صاحب المخزن وابن رزين وغيرهم من المعروفين بلعب الحمام وأمرهم أن يقبضوا[١] منه ففعلوا ذلك ، وتقدم إلى أصحابه أن يعمروا مبارح ودوراً للحمام ، وكثر ذلك وصار كل من يريد القرب من الخليفة يتقرب إليه بأن يقبض منه الحمام ، ولأصحاب الحمام فى ذلك قول[٢] محفوظ إذا حلف أحدهم يقول أصحاب الحمام لزمه ذلك فلا يكذب أبداً لقوله فى الفتوّة ورمى البندق: « ثلاث خصال لا يقدر أحد أن يكذب بها » .

* * *

وفيها تقدّم عنده شمس الدين على بن أبى الكتائب المعروف بالخواجا وكان يخدم الأمراء وكبر أمره عند الخليفة والأمراء ، وقرّبه وأدناه ، وجعل حديث الأمراء معه ، وكان رجلا كيسا بغداديا دمثا يتمسخر للخليفة ويتطاول حين يبسطه ، وكان المذكور حسن المحاضرة كريم الطبع ، وحسن حاله وزادت منزلته وتضاعفت حرمته ، وكان مسموع القول عند الخليفة ، عظيم القدر عند أرباب دولته ، وكان إذا سأل (٧٩ ب) الخليفة بأى أمر أجابهُ حتى إنه كان يسأله فى إطلاق من وجب عليه قتل أو صاحب جناية ويشفع فيه فيشفعه .

---

(١) فى الأصل « يقبضون » .
(٢) فى الأصل « قولا محفوظا » .

وفيها صعد رجل شاب على سطح ابن البخارى اسمه محمد الفراش وقد انحل حبل البرادة وكانت طويلة ملساء ، ، فجعل يكلف نفسه الصعود لتلك الخشبة وصعدها وعمل الحبل فى البكرة ونزل ، وكان فى تلك الساعة أستاذ الدار ابن الصاحب على سطح داره فشاهد هذه الحال من الفرّاش ، وبعد أيام نزل إلى الديوان من فتح خزانة المال التى للخليفة وأخذ خرقة فيها سبعمائة دينار ، فتقدم بأخذ الخازن والفراشين الذين للديوان وعرضهم على الضرب ، وكان الخازن رجلا[1] شيخاً كبيراً ماعرف له ولا سمع عنه إلاّ الخير ، وكان قريباً لأستاذ الدار ابن الصاحب وطولب الخازن بالذهب ، وصعب ذلك على أستاذ الدار كيف تجرى مثل هذه الواقعة فى ديوان الخليفة فى أيام ولايته ، فأحضر غلمان الديوان وسألهم عن هذه الحال فقالوا له : « الذى قد فعل هذا قد أخذ حبلاً وشدّه فى كنيسة الديوان ونزل وفتح المخزن وأخذ الذهب ورجع[2] فصعد بالحبل » ، فقال أستاذ الدار : « إنى كنت من أيام على سطح دارى رأيت على سطح ابن البخارى صبيا فراشا قد صعد فى حبل وتعلّق به وترك الحبل فى البكرة التى فى خشبة البرادة ، أريده الساعة » ، فنفذ إلى ابن البخارى فسأل عن ذلك الصبى فقيل إنه هو محمد الفرّاش ، فنفذه إليه فقال له أستاذ الدار : « أين الذهب الذى أخذته من الديوان ؟ » فأنكر ، فتقدّم بضربه فضرب ، ودام عليه الضرب فاعترف بسرقته ، فنفذ مع جماعة من الغلمان فأحضر الذهب وقد نقص منه عشرون ديناراً ، واستؤذن الخليفة فى قطعه (١٨٠ ا) فتقدم أن يحمل إلى حبس اللصوص ولا تقطع [يده] ، فهذا مال من بيت مال المسلمين وله فيه حق بل يحبس ، فنفذ إلى الحبس ، فأقام فيه عشرة أشهر ثم نقب الحبس وكسر القيد الذى فى رجله وحسّن لجماعة من العرب والمحتسبين أن يهربوا معه ، وعلم بذلك

---

(١) فى الاصل « رجل شيخ كبير » .

(٢) فى الاصل « رجعل صعد » .

السجان قبل أن يتم لهم أمرهم ، فأحضر شهوداً وأوقفهم على نقب الحبس وأحضر إليهم العرب وقد كسرت القيود من أرجلهم ، فاعترفوا بما عمل محمد الفراش وكتبوا بذلك مطالعة ورفعت إلى العرض الأشرف ، فبرز الخط الشريف بقطع يده ورجله ، فإن مثل هذا لا يأتى على المسلمين منه خير . فقطعت يده ورجله ، وحمل إلى البيمارستان العضدى .

وأما خازن الديوان فإنه كان يلقب بالسديد واسمه الأعز ، فأحضره أستاذ الدار وخلع عليه واعتذر إليه وأعاده إلى خدمته ، وتقدم الخليفة بأن يكون الذهب فى الخزانة فى صناديق عليها أقفال جياد ويحرس المكان ، وتقدم بأن تعلى حيطان الديوان ويمنع كل طريق إليه ، وأن يعمل له سياج من شوك ففعل ذلك ، فصار الديوان لا سبيل لأحد عليه من جهة من الجهات ورتب له الحراس .

* * *

وفيها زاد ابراهيم بن ابراهيم على أمير الحاج طاشتكين مائة ألف دينار فى ضمان الحلة والبلاد السيفية وما ينسب إليها ، فتقدم الخليفة بإحضار قاضى القضاة وإحضار أمير الحاج ، وأن يجمع بينه وبين ابراهيم بن ابراهيم ، وأن يكون من جانب أستاذ الدار ابن يونس الوكيل ، فحضر الجميع وأشار ابن البخارى إلى ابراهيم بالكلام فقال : « إن هذه الحلة فيها زيادة على المبلغ الذى على هذا الأمير مائة ألف دينار وأنا أضمن الموضع بهذا » ، وكان وزيره حينئذ المقرب ابن بختيار فقال : « اذكر لنا وجوه الزيادة » ، فأخذ يذكر وأمير الحاج ينكر ، وأستاذ الدار كبير التعصب لأمير الحاج ، وطولع الخليفة بالحال فكتب (٨٠ ب) : « إن المصلحة فى ذلك أن تقرر على أمير الحاج أن يحمل فى كل سنة شيئا ويقطع الحديث ولا يعين عليه ، فإننا قد كسرناه » ، فأحضر أمير الحاج ووزيره ابن بختيار وأخذ خطهما بما تقرر على أمير الحاج ، وتقدم إلى ابن ابراهيم بالانصراف وكف لسانه .

* * *

وفيها عجز ابن البخارى عن الركوب ليوم العيد إلى الديوان لأنه كان به مرض قد أعجزه وأثقله ، وكان يكلف نفسه الجلوس فى الديوان لأجل المنصب ، وقد ذكر أن سبب ذلك المرض من جهة زوجته وأنها أسقته سماً ، فتطاول مرضه لذلك ، فاستأذن الخليفة أن يحمل فى محفة ويحمل إلى صفة الزيتون ، فجلس فى موضعه ، وكان قد تناهى به المرض وعجز عن الحركة. فحضر أرباب الدولة وأنشد الشعراء مدحهم ، وكان عنده شغل من شدة مرضه .

* * *

وفيها وضع أستاذ الدار مَن نقل إلى الخليفة أن أبا الحسن بن الكرخى يسمع ويقول عنه أشياء ، ويذكر جميع مايكون فيه من أحوال تجرى فى خلوة أو مجلس ويتحدث بذلك فى الأسواق ، وأن الدليل على صحة ما نقل عنه أن الخطير البزاز قد حكى عنه جميع ذلك ، فتقدم الخليفة بإحضار الخطير البزاز وسمع كلامه ، فتقدم الخليفة بمنع ابن الكرخى من الدخول إليه ، ثم تقدم أستاذ الدار إلى كل من أخذ منه ابن الكرخى هدية أو قرضاً أو شيئاً أن يطالبه به إلى أن استوعب ماله ، وابن الكرخى يعتقد أن ذلك برضى الخليفة ، وتقدم بقطع معيشته من الديوان ومعيشة أبيه أيضاً ، وكان أبوه حاجب منطقة وحاجب منبر ، فكتب عمرو العلى بن النشال الهاشمى — وكان هذا المذكور يخدم الخليفة لما كان أميرا ، فلما ولى الخلافة تقدم بأن يرتب حاجباً صغيرا فرتب ، وكان الناس يستعظمون ذلك لأنه كان يبيع الحطب ، وكتب رقعة (٨١ ا) يسأل فيها أن يرتب حاجب منطقة وحاجب منبر موضع ابن الكرخى الشيخ الملقب بولىّ الدين ، فوقع الخليفة عليها بالإذن وعرضت على ابن البخارى ، فنفذ إلى أستاذ الدار وقال: «إن الناس يستعظمون ذلك ، وكون هذا فى الديوان حاجب صغير» فاستقبح قوله فقال إن الخليفة قد تقدم بذلك ولا يسيئه بيعه الحطب مع أنه من الأسرة الهاشمية فلا تقل فى هذا شيئا ألبتة » ، ثم أحضر ابن النشال وأجلسه بين يديه وصار موضع ابن الكرخى ، وعلم

الناس أن الخليفة قد تعصب لهذا ، ثم تقدم إلى هذا المذكور أن يكتب مطالعة تشتمل على أحوال الديوان سرا بحيث لا يعلم أحد ، وكبر عند الناس بهذه الحال .

* * *

وفيها ورد ضياء الدين ابن الشهرزورى إلى بغداد رسولا من عند صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان ابن البخارى قد تناهى به المرض وعمل فيه السم حتى تساقطت أظفاره ومعظم شعره وبقى كالفرخ ، وتقدم بإخراج الموكب للقاء ابن الشهر زورى ، فلما كان بعد ثلاثة أيام من قدومه تقدم إلى ابن البخارى أن يجلس له ويسمع كلامه ، ورأى أنه لا يقدر على ذلك لشدة المرض ، فتقدم أن يعمل له طراحة ومسند فى باب حجرة صغيرة ولها دهليز إلى النساء ، وجعل على الباب سترا ، وجلس والنساء عنده إلى أن حضر الرسول وحضر خالص الخادم ومشرف الديوان أبو غالب بن الخلال[1] — وكان يومئذ ينوب عن كاتب الأنشاء — وحضر المقربون والناس ، ولم يتخلف أحد ممن جرت عادته أن يحضر ، وتقدم إلى المماليك الخواص أن يحضروا حتى يكثر الجمع بهم فحضروا ، وأحضر ابن الشهرزورى وما كان صحبته من التحف ، وأزالوا الستر الذى كان ابن البخارى علقه ، فقام الناس لقدومه وخدموه وتقدم إليه أن يذكر ما عنده ، فقام وخطب خطبة حسنة بليغة ، وأخذ يذكر فتوح صلاح الدين وجهاده وما هو عليه (٨١ ب) من المرابطة للكفار وأنه مملوك مخلص ، وأن ما لهذه الدولة القاهرة مثله ولا من يجرى مجراه ولا من يماثله فى العبودية ، وبالغ فى ذلك ، ثم جلس فالتفت إليه ابن البخارى وقال له : يا أبا القاسم : إذا رجعت إلى يوسف بن أيوب فقل له يقرأ قوله تعالى (قل[2] لا تمنوا على إسلامكم بل

(١) فى الأصل « الخاذن » وفوقها « الخلال » .

(٢) قرآن كريم ، سورة الحجرات ٤٩ : ١٧ .

الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان) ، المنة للخليفة ثبت الله دعوته فى تقبل مثله ، وهذه البلاد المفتوحة بسعادة هذه الأيام وبحسن التعبد لها وبشمول أنعمه عليه ، فينبغى له أن يعلم ذلك ويتحققه » ، فعجب الناس من جوابه ثم أحضرت التحف وكان فيها شيء من دهن البلسان وحقة جوهر وثياب مصرية ومقاير مذهبة وخركاه[1] وشيء من العدة التى قد أخذت من الفرنج ، فتقدم إلى ابن الخلال أن يكتب إلى العرض الأشرف بشرح الحال التى جرت . وذكر عن ابن الشهر زورى ما أفاض من الأدعية الصالحة عن مرسله وأنه قد صحبه كذا وكذا ، وأخذ المطالعة ابن البخارى وكتب عليها أنه يسأل قبول ذالك ، ونفذ المطالعة ، ثم أسبل عليه الستر ، ولم يزل الناس على طبقاتهم حتى رجع الجواب من الخليفة ، وكان مضمون ما كتبه : « وقف على ما أنهاه من حضور رسول صلاح الدين — كثر الله فى الأولياء مثله — وما ذكره من حال نصرته وذلك بنا وبآرائنا وهمتنا وما نفذ فقد شرف بقبوله » ، ثم تقدم إلى الرسول بالانكفاء إلى الموضع الذى أعد له ، وكان قد أنزل بدار بالخاتونية البرانية . وكان الناس يتعجبون من كلام ابن البخارى وحسن ذهنه ودرايته وهو مشارف للموت .

وفيها مات ابن البخارى نائب الوزارة وذلك بعد أيام من قدوم ابن الشهر زورى .

ولما توفى [ابن البخارى] نفذ أستاذ الدار إلى داره[2] فاستولى على ما فيها من قليل وكثير وختم عليه وغير ذلك من خيل ودواب (٨٢ ا) ، وأمر بتجهيزه فغسل وكفن وحمل إلى جامع القصر وصلى عليه ، ولم يتخلف عنه أحد من أرباب الدولة ، وحمل إلى مقابر عند قبر أحمد بن حنبل رضى الله عنه .

---

(١) كلمة فارسية معناها الخيمة .

(٢) يعنى الى دار ابن البخارى .

وتقدم أستاذ الدار أن يمضى جميع أرباب الدولة إلى مكان دفنه ، وحمل جميع ما كان خلفه من مال وخيل ورقيق إلى المخزن المعمور ، وكان [ابن البخارى] قد وهب لبعض مماليكه بعض أملاكه فأخذت منهم الكتب وأخذت الأملاك ، وكان أستاذ الدار قد حزن عليه ، فلما مات احتوى على ما كان له من مطالعات يطالعه بها ولا يشتهى أن يظهر عليها أحد ، وكان[1] أستاذ الدار يعمل أشياء ولا يحب أن يطلع عليها الخليفة ، وكان أستاذ الدار يطلب من ابن البخارى ما كان يكاتبه به من مطالعة وغيرها فيقول « ذلك قد غسلته » ، ويتركه عنده لوقت حاجته ، فلما مات رأى تلك الليلة الخطوط ولم يغسلها ، فعلم أنه كان يريد قتله ، ففرح حينئذ بموته .

• • •

وفيها أنعم الخليفة على محمد بن يحيى بجميع الأرض والبستان المجاور لمحلة قَطُفْتَا والأرحاء على نهر عيسى ، فعمر جميع البستان وعمر فيه[2] داراً حسنة ، وعمر ملاصق البستان خانات ، وعمر أيضاً دارا حسنة لبيع الغزل ، وصار هناك سوق حسن لم يعرف من قبل ، وسأل الخليفة أن يعمل هناك نهرا ويجرى فيه الماء إلى البستان المذكور إلى الخانات من محوله يزدجرد فأذن له فى ذلك ، فلما وصل الماء إلى المواضع رغب الناس فى ذلك الموضع وصارت محلة من محال بغداد فيها البيع والشراء ومحط القوافل وجعل محمد بن يحيى الفراش يحمل إلى البستان من سائر الأشجار ويغرس فيه فأينع وأثمر ، ووصف للخليفة فمضى إليه وأقام فيه يوماً وليلة ، فرآه موضعا حسنا نزها ، وكانت أكثر فرجة أهل بغداد على نهر عيسى ، وكان الخليفة كثير التردد إلى ذلك الموضع ، وكان فى تلك الدار التى فى البستان روشن[3] حسن (٨٢ب) البناء فكان الخليفة يجلس فيه .

---

(١) فى الأصل « وكان يعمل استاذ الدار اشيا » .

(٢) فى الأصل « قبة » .

(٣) الروشن لفظ فارسى ، يقصد بها شرفة خارجة من الدار تطل على خارجه ، راجع .

وكان بهاء الدين أرغش من المماليك المستنجدية قد كبر عنده فكان يقربه الخليفة ويتحدث معه ، وكان الشرابى يحسده على ذلك ولا يحب قربه من الخليفة .

ولما حسن الموضع وراق للخليفة تقدم إلى محمد بن يحيى بزرع الجزيرة المجاورة له مبقلة وخضرا ، فصار ذلك الموضع من أنزه المواضع ، وصار ذلك الموضع محروسا بعد أن كان طريقا ، وكان أهل بغداد يخرجون فى كل يوم للفرجة ممن جرت له عادة من الرجال والنساء ، وكان يخرج جماعة من المحدثين المتمسخرين إلى ذلك الموضع والخليفة قاعد فى شباك يتفرج على العوام .

وكان لأهل بغداد عادة — إلى اليوم — فرجة بعد أسبوع من العيد يخرجون إلى الفرجة والتنزه ويقولون . « ندفن العيد » ، ويخرج رؤساء المحال والمقدمون [١] منهم ويحضرون شخصا يتمسخرون عليه ويكفّنونه كالميت ويبكون عليه ، فإذا طابوا ولعبوا ساعة من يومهم ذلك قام ذلك الشخص الذى كفن كهيئة الميت ويجعلونه مضحكة ، فأمر الخليفة أن يدفن العيد عند بستان ابن يحيى ، وأشار إليه بذلك .

فلما كان بعد العيد تقدم ابن يحيى إلى رؤساء العوام ومتقدمى [٢] المحال أن يخرجوا لدفن العيد فى ذلك الموضع المذكور ، فخرج خلق لا يحصى عددهم إلا الله سبحانه وتعالى من الرجال والنساء والأطفال ، والخليفة ينظر إلى العوام وفعالهم فقد أتوا بشخص منهم كهيئة الميت قد كفن وحمل فيما بينهم ، فقوم منهم يبكون ويصرخون ، وقوم يعزون ، وقوم يندبون ويعملون عزية للعيد ، فإذا ضجروا نزل الناس قدام بين يدى الستر فيلقون الميت فى الماء

(١) فى الأصل « المقدمين » .
(٢) فى الأصل « متقدمين » .

فيبقى فيه ساعة والخليفة يضحك عليهم ، فينزل متقدم الفراشين ومعه مائة دينار إمامية فيقول لمقدم العوام «هذه المائة دينار (١٨٣) لأجل الميت» فحينئذ يقوم الميت المكفن من الماء فيتصارخ الناس لذلك ويضحكون ويدعون للخليفة؛ وكان فى ذلك اليوم على سطح تلك الدار جماعة من المماليك الخواص مثل سنجر وإياس الرومى وبرنبا العلائى وياقوت وقيطرس وجماعة من المماليك .

فلما انقضى دفن العيد وخرجوا بأسرهم وتحت كل واحد منهم حصان عليه سرج بذهب وتخت وطوق وسر فسار ، وعليهم ملابس الزركش والثياب الطلس فكانوا يركبون يوم يكون من الحلية والثياب . فكان أهل بغداد يرجعون من فرجتهم يتفرجون على المماليك ويقولون «نحن كنا نتفرج على الميت ، فلم لا نتفرج على هؤلاء الملائكة الذين قد خرجوا» .

* * *

ذكر ما تجدد للملك الناصر صلاح الدين

فى هذه السنة من الغزوات والفتوحات

ولما دخلت هذه السنة شرع السلطان بمكاتبة الجوانب والأطراف والحث على وصول عساكر الإسلام إلى دمشق ليتوجه منها إلى غزاة الكرك، فلم تزل العساكر تتواصل من البلاد الشامية وبلاد الجزيرة وديار بكر ، فلما تكاملت عدة العساكر سار بها متوجها إلى الكرك فكان نزوله على ناحية أدر من أعمالها خامس شهر ربيع الآخر ، ووصل كتاب السلطان إلى والدى الملك المظفر — سقى الله عهوده الرضوان وكان نائبه بمصر — بوصوله إليه بالعساكر المصرية فشرع فى تجهيز العساكر ، فحين تكاملت خرج إليها متوجهاً إلى الكرك فأشرف بعد أيام على أعمالها ، وتلقاه السلطان بعساكره ونزلوا جميعاً قبالة الحصن على الوادى ، ووقع التضافر على مضايقة

أهل الشرك ، وعبر السلطان إلى الربض فنزل فى دار الرئيس ونصب عليها تسعة من المنجنيقات الكبار ورتب عليها جماعة من الرجال والأبطال يضمها صفاً واحداً قدام الباب ، فلم يزل يرميهم بالحجارة حتى أزعج من بالحصن ولم يبق بينه وبينهم مانع إلا الخندق[١] الواسع العميق ، فأشار السلطان بطمّه ، وكان ذلك من الأمور الصعاب (٨٣ب) . فأمر السلطان بضرب اللبن وجمع الأخشاب وبناء الحيطان مقابلة الربض إلى الخندق وتسقيفها وتأليف ستائرها ، ولما تم ذلك توافدت رجال العسكر وغلمانه على نقل مايرمى فى الخندق ، وتبادر الناس إلى طمه بالتراب ، فتمادى ذلك على تتابع الأيام والليالى ، واستمر المقام بنا وطابت نفوسنا على ذلك .

فبينا نحن مقيمون فى حصارهم إذ وصلنا الخبر باجتماع الفرنج وتحاشدهم فى الموضع المعروف بالواله ، وكنا قد ضايقنا الكرك أشد مضايقة ، فلم ير بدا من النهوض إليهم ، وكانت الطريق إليهم ضيقة وعرة ، فصابرهم أياماً فلم يقدر على الوصول إليهم . فلما طال ذلك قال السلطان :

« الرأى أن نرحل عنهم ونبعد عن جهتهم لعلهم يخرجون من الضيق إلى السعة فنرجع عليهم ونظفر بهم » ، فرحل عنهم ، وأقام على فراسخ يسيرة وترك هناك الأمير عز الدين جاولى مطلعاً فى أحوالهم فلما رحل[٢] عن الموضع رجعوا القهقرى ليلا وسلكوا فى المضايق من جبل إلى جبل ، وأتوا إلى الكرك ، فتأسف السلطان عند فوت الغرض منهم وعزم على الرحيل إلى نابلس فرحل نحوها ، فسبى وسلب وغنم وأقام عليها يوماً واحداً حتى

---

(١) وصفه العماد الكاتب فى رسالة بقوله : « ولولا الخندق المانع من الارادة ، وانه ليس من الخنادق المعتادة ، بل هو وادمن الاودية ، واسع الافنية لسهل الشرع ..» راجع وصفه بالتطويل فى الروضتين ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ١٥٩/٢ — ١٦٠ ، هذا وقد ذكر ابن الاثير ، ١٠٥/١١ ، ان عمقه كان نحو ستين ذراعا .

(٢) المقصود بذلك صلاح الدين وجيشه .

استخرج العسكر الغنائم ، وكان الناس قد تفرّقوا فى الشعاب والأودية . فلما تكامل جمعهم رحل بهم فنزل على سَبَسْطِيَة(١) وفيها مشهد زكريا عليه السلام، وقد اتخذه الفرنج كنيسة وأودعوها أمتعة كثيرة ، وكان فيها جماعة من الرهبان والقسوس ففدوها بأسارى من المسلمين وطلبوا الأمان ؛ ثم رحل من هناك فكان اجتماع العساكر على الفوار . ووصله الخبر بوصول رسل دار الخلافة إلى دمشق فسار بعساكره متوجهاً إليها محفوفاً بالنصر والظفر، فلما دخلها اجتمع برسولى(٢) دار الخلافة (١٨٤ا) وهما صدر الدين شيخ الشيوخ وبشير الخادم ، فأفاضا عليه الخلع النبوية ، وكان قد وصله مع الرسولين المذكورين قصيدة امتدحه بها الأجل العالم جمال الكتاب أمين الدولة أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله سبط التعاويذى الكاتب البغدادى ، وكان من افاضل الشعراء بدار الخلافة فأنفذها إليه يهنيه بالخلع النبوية وهى :

حتام أرضى فى هـــواك وتغضب
وإلى متى تجنى على وتعتب
ماكان لى لولا ملالك ذلة
لما مللت زعمت أنى مذنب
خذ فى أفانين الصــدود فإن لى
قلبا على العـــلات لايتقلب
أتظننى أضمرت بعــدك سلوة
هيهات ، عطفك من سلوّى أقرب
لى فيك نار جوانح ماتنطفى
حرقاً وماء مدامع ماينضب

(١) الضبط من مراصد الاطلاع ٦٨٩/٢ حيث ذكر انها مدينة من نواحى فلسطين من اعمال بيت القدس على يومين منها قرب نابلس ولم أعثر عليها فى
(٢) فى الاصل « برسل » .

أنسيت أياماً لنا ولياليا
للهو فيها والبطالة ملعب ؟
أيام لا الواشى يعد ضلالة
ولهى عليك ولا العزول يؤنب
قد كنت تنصفنى المودة راكباً
فى الحب من أخطاره ما أركب
فاليوم أقنع أن يمر بمضجعى
فى النوم طيفُ خيالك المتأوب
ماخلت[1] أوراق الصبى تذوى نضا
رتها ولا أن الشبيبة تسلب
حتى انجلى ليل الغواية واهتدى
سارى الدجى ، وانجاب ذاك الغيهب
وتنافر البيض الحسان فأعرضت
عنى سعاد وأنكرتنى زينب
قالت — وريعت من بياض مفارقى
وشحوب[2] لونى — بان منك الأطيب
(٨٤ب) إن تنكرى سقمى فخصرك ناحل
أو تنكرى شيبى فثغرك أشنب
ياطالباً بعد المشيب غضارة
من عيشه : ذهب الزمان المذهب

---

(1) هذه هى الرواية الواردة ايضا فى ديوانه ، أما ما أورده ابو المحاسن فى النجوم ٥٨/٦ فعلى الصورة التالية :
ما خلت ان جديد ايام الصبا ... يبلى ولا ثوب الشبيبة يسلب

(2) فى النجوم ، شرحه « ونحول جسمى »

أتروم بعد الأربعـــين تعدها
وصل الدمى ؟ هيهات عز المطلب
ومن الشقاء وقد ثناك طلابه
نفعاً فتطلبه ونورك أشيب
لولا الهوى العـــذرىّ يادار الهوى
ماهاج لى طرباً وميض خلّبُ
كلا ولا استجذبت أخــــلاف الحيا
وندى صلاح الدين هام صيب
ملك ترفع عن ضريبٍ قــدرُه
فإليه أكباد الرواحل تضرب
أردى له الأعـــداءَ جد غالب
وحمى الممالكَ منه ليث أغلب
يرجى ويرهب بأسه ، والماجـــد الم
فضال من يرجى نداه ويرهب
ثبت إذا غشى الوغى ، والزاغبية
شرع ، والأعوجيـــة شـــذب
مخضرة أكنافه لوفـــوده
والعام محمـــر الذوائب أشهب
أرض بروض المكرمات أريضة
وثرى بنـــوار الفضائل معشب
صب بتشيـــد المآثر متعب
فيها ، ومن شاد المآثر يتعب (؟)
حملت به بعــــد العقام فأنجبت
أم العـــلى ، ما كل أم تنجب (؟)

ملكتْ سجاياه القلوبَ محبة
إن الكريم إلى القلوب محبب
كفٌّ يكُفُّ الحادثات ، وراحة
ترتاح للجدوى ، وقلب ٌقلّبُ
وندى يهش إلى العفاة تكرماً
ومواهب بالطارقين ترحّب
(١٨٥) وغرامه كالنار شاب ضرامها
خلق أرق من الزلال وأطيب
يغريه بالعفو الجناة كأنما الـ
ـجانى إليه بذنبه يتقرّب
فيرى لهم حقا عليه ولم يكن
ليبين فضل العفو لولا المذنب
ياطالبي شأو ابن أيوب قفوا
أنضادكم ، ما كل شأو يُطلب
لا تقتفوا لأبي المظفر فى الندى
أثراً ، ولا تسمو إليه فتتعبوا
بك ياصلاح الدين يوسف أكثب
النائى ورف المقشعر المجدب
ذلّلتَ أخلاق الزمان لأهله
فأطاع ، وهو الخالع المتغضب
وأقمت سوقاً للمدائح مربحاً
فإليه أعلاق الفضائل تجلب
ونهضت للإسلام نهضة صادق الـ
عزمات ، ترأب من بناه وتشعب

وغضبت للدين الحنيف ولم تزل
في الله ترضى منذ كنتَ وتغضب
غادرْتَ أهل البغى بين مجندلٍ
لِقِيَ الحمـــام ، وخائف يترقب
أو هارب ضاقت عليه برحبها الأ
رضُ الفضاء ، وأين منك المهرب ؟
فاصبُحْ بـــلاد الروم منك بغارة
للنصر فيها رائد لا يكذب
وانكح صوارمك الثغور يزورها
في كل يوم من جيوشك مقنب
وارم الكنائس من سطاك بمارج
متأجج نـــيرانه تتلهب
وارفع بها للمسلمين منابراً :
باسم الخليفـــة ثم باسمك يُخطب
واسق الجياد من الخليج ، فـــورده
يدنو عليك إذا عزمت ويقـــرب
(٨٥ب) ملحت موارده وأقسم أنها
من نيل مصرٍ في مذاقك أعذب
واقرع « بحى على الفلاح » مسامعا
تصبو إذا ذُكر الصليب فتطرب
لاتبق زناراً يُشد بها عـــلى
علج ، ولا ناقوسَ دير يضرب
واعمـــد لحرب المشركين مهذَّبا
بالسيف من بسواه لا يتهـــذب

واحسم بحـــد ظباك داءً ، حسمه
ودواؤه بعـــد التفاقم يصعب
حتى يُرَى للمشرفيـــة مطعم
بالفتك من تلك الدماء ومشرب
فالعـــذل ليس بناجع أو ينثنى
وغـــرارُ نصلك بالنجيع مخضّب
لاتعفـــوَنَّ إذا ظفرت بجرم
منهم ، فرب جريمة لا توهب
فلتشكرنك أمة تحنـــو على
ضعفائها حـــدبا كما يحنو الأب
واخلع قـــلوب الناكبين بلبسها
خلعا إلى شرف الخـــلافة تنسب
فرجيـــة وشى يكاد شعاعها الذ
هبىُّ بالأبصـار حسنا يذهب
وعمامة ماتاج كسرى مثلهـــا
فى الفخر ، وهى بتاج كسرى تعصب
ومهنـــد طبعَتْه قحطانٌ ، وأهـ
ـدته إلى مصرٍ قديما يعـــرب
مسى عتاداً للخـــلائف بينهم
متوارثاً يوصى به لابنٍ أب
يغرى بجوهـــره وماء صقاله
ومضاء عزمك ، فهـــو قاضٍ معضب
حضب النضار وإنه يوم الـــعدا
عما قليـل فى يديك سيخضب

وتحل منها طوق تَمَلُّكٍ رأيه
عند الملوك معظم ومرحَّبُ
(١٨٦ا) فالله طوّق جبرئيل كرامة
لم يؤتها ملك سواهُ مقرّب
وَرُع العدى منها بأدهم رابع
يعنو لغرّته الصباح الأشهب
سلب الدجى جلبابه ، فهلاّ له
ونجومه تَمرج عليه ومركب
وافاك يصحب فى القياد ولم يكن —
لو لم تَرُضه يد الخليفة — يصحب
وبراية سوداء ، قلبُ الشرك ـ مُذ
عُقِدَت للملك ـ مستطار يرعب
فكأنها أسداف ليل مظلم
وسنان عاملها عليك كوكب
فأفِضْ ملابسها عليك عظيمة
لا تُستَرَدّ ونعمة لا تسلب
والبس شعاراً ما يُمَلَّكُ مثله
لسوى الأئمة من قريش منكب
مما تخيرّه الخليفة منحة
لك فاصطفاه لقاءَ ما تستوجب
الناصر النبوىّ محتده ، ومَن
عيصُ الرسول بعيصه متأشب
من يستظل من الخطوب بظلّه
ونبيت فى نعمائه تتقلب

نأه عن الأبصار ، دانٍ جـــوده
لعفاته ، فهـو البعيـد المكثب
ۥن يمس عن نظر العيون محجبا
فـله جزيلُ مواهبٍ لا تحجب
دنتـك منـــه فراسة نبوية
تملى عليه الحقّ وهو مغيب
رضاه خير من ارتضاه للملكه
يقظان يسهر فى رضاه ويدأب
ورآك أسرعهم إلى الأعـــداء إقـ
ـداماً ، وغـــيرك محجم متهيب
فاسحب ثياب سعادة — فضــلا لسا
بغها — على ظهر المجرة يسحب
(٨٦ ب) وتملّ ماخولته من دولة
غراء ، طالـع سعدها لايغرب
فى نعمـةٍ أيامها لا تنقضى ،
وسعادة سلطانها لا يُغلب

* * *

وفيها امتدحنا الكمال المغربى التنوخى بقصيدة مطلعها :
قسما برقة خــدّه المتوردّ
ورشاقـةٍ فى قـدّه المتأوّد
إنى لأهـواه ولست بحائل
عن حبه إن صدّ أو لم يصدد

كم ليلة قد بتها أرعى السهى
جزعاً لفرقته بمقلة أرمد
قضيتها ما بين نوم نافر ،
وزفير مهجور ، وقلب مكمد
كلفا بمعتدل القوام كأنه
بدرٌ بدا فى جنح ليل أسود
لم أنس أيام السرور وطيبها
بين الصريم وبين برقة ثهمد
والروض قد أبدى بدائع نوره
من أزرق ومفضض ومورّد
والماء يبدو كالصوارم سارياً
فيعيده مرُّ الصبا كالمبرد
والطير بين مسجّع ومرجّع
ومغرّد ومعدّد ومردّد
يدعو لنعمة ناصر الدين الذى
فاق البريّة بالدوام السرمد
والواهب البدر الذى إنعامه
بين البريّة ظاهر لم يجحد
يعطيك معتذراً ويسأل خاضعاً
فى أن تعود إلى التماسك فى غد
فرضابه يمضى ببذل مواهب
وأداء مفروض وورد مورد
وإذا خشيتَ من الزمان سجية
تردى فلا تعلَقْ بغير محمد

(١٨٧) العادلِ الملكِ الهمام الماجدِ النّـ
ـدْبِ الكميِّ الباذل المتودّد

من معشر أحسابهم لم تنقطع
عنّا ، وجمرة عزمهم لم تخمد

لا برّه عنا بمنقطع ، ولا
زند الندى فى راحتيه بمصلد

ما أمَّهُ فى جنح ليلٍ مدلجٌ
إلاّ هداه بنوره المتوقّد

فذراه كالبيت العتيقِ يحجّه
من كل فجٍّ كلُّ ركب مُجْتَدى

زُرْ مجده تزر المكارم والعُلا
وترى الندى يغشاه من وجهٍ ندى

فإذا بلغتَ إليه عمَّكَ جوده
ونوالُه ، أقَصَدْتَ أم لم تقصد

يا أوحد الدنيا أتيتُك قاصدًا
مستعدياً من جور دهر أنكد

أخنى علىّ بصرفه ، وبنوه قد
حافوا علىّ ، وقد تخاذل مسعدى

فخطبتُ من جدوى يديك بيغيتى
وأمنت من صرف الزمان الأنكد

فاسلم وسُدْ أبدًا ، ودُمْ فى نعمةٍ
مقرونة بسعادة لم تنفد

* * *

رجعنا إلى إتمام الحديث :

فلما استقر السلطان بدمشق أياما أمر السلطان والدى الملك المظفر بالرجوع إلى مصر بالعساكر المصرية وكنت يومئذ نائبه بمصر وبلادها إلى أن رجع إليها ، وكان خروجه من دمشق فى اليوم الخامس عشر من شعبان من السنة المذكورة .

وأما السلطان فإنه حين اجتمع برسولى[1] الخلافة بدمشق وهما : شيخ الشيوخ وبشير الخادم أنعم عليهما إنعاماً جزيلا وتلقاهما بالبشر على جارى عادته ، وطال مقامهما فمرضا مرضاً شديداً وسألا الانصراف ، فأشفق عليهما وأشار عليهما بالقعود (٨٧ ب) إلى أن يخف مرضهما فبقيا على ذلك أياماً ، ثم سألاه أن يأذن لهما بالانصراف فأذن لهما وودّعهما وأصحبهما الأميرَ حسام الدين طمان وكان مقدّم عسكر سنجار ، وأمره بمرافقتهما والرفق بهما فى السير ، فساروا جميعاً على طريق الرحبة ، وكان الزمان قيظاً شديداً فاشتدّ ببشير المرض فمات قبل وصوله .

وأما شيخ الشيوخ فمات حين وصلها[2] ودفن هناك ، وكانت وفاته فى شعبان من السنة .

وأما السلطان فإنه أقام بدمشق حتى دخل فصل الشتاء وأمر بضرب مضاربه إلى جهة بعلبك ، وكان يركب فى كل يوم إلى الصيد ويرجع ، فأقام على ذلك أياماً حتى اجتمع إليه العساكر ، ثم رحل إلى بعلبك فوصلها بعد يوم وليلة وخيّم على ظاهرها وذلك فى اليوم العشرين من ذى القعدة من السنة المذكورة ، ورحل منها إلى جهة حمص بها بعد أيام فبقى بها أياماً ، ثم سار إلى حماة فأقام بها باقى ذى الحجة من السنة المذكورة .

---

(١) فى الأصل « برسل » .

(٢) الوارد فى ابن الأثير : الكامل ٢٠٧/١١ ، أن وفاة شيخ الشيوخ كانت بالرحبة حيث دفن بمشهد البوق .

ودخلت سنة إحدى وثمانين وهو مخيّم بحماة ، وسأذكر الأحوال
سا إن شاء الله تعالى .

* * *

وفيها[١] جاز أبو يعقوب بن عبد المؤمن [البحر] إلى الأندلس فى جمع كبير وقصد غربى بلادها ، فحاصر مدينة شنترين[٢] شهراً كاملا فأصابه مرض فمات ، وذلك فى شهر ربيع الأول من السنة المذكورة ، وحمل فى تابوت إلى أشبيلية ، فكانت مدة ولايته اثنتين وعشرين سنة وأشهراً[٣] ، وخلف أولاداً جماعة .

* * *

ذكر ولاية (٤) أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن

ولما مات السيد أبو يعقوب اجتمع الموحّدون وأولاد عبد المؤمن على تقديم ابنه أبى يوسف يعقوب وذلك أنه مات من غير وصية لأحد من بنيه فبايعوه وعقد له الولاية ، ودعوه بأمير المؤمنين وقدّموه الأمر من حين موت أبيه فقام بذلك ، ووضع ميزان[٥] القسط ، وبسط (١٨٨) أحكام العدل على حقيقة النظر فى الأمور والورع فى الدين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة حدود الله عز وجل فى أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها على سائر البلدان ، فاستقامت الأمور ببركاته ، وظهرت

---

(١) تكاد عبارات هذا الخبر تتشابه تشابها كبيرا مع عبارات ابن الاثير ، الكامل ٢٠٥/١١ .

(٢) عرفها مراصد الاطلاع ٨١٥/٢ بأنها واقعة غربى قرطبة على نهر باجة قرب مصبه

(٣) فى ابن الأثير ، شرحه ، ٢٠٥/١١ « وشهرا » ، أنظر زمباور : معجم الانساب.

(٤) أمامها فى الهامش « ولاية يوسف بن عبد المؤمن » . ويبدو أن ابن الأثير نقل هذا الخبر عن المؤلف فالخبران متطابقان فى المعلومات والالفاظ .

(٥) « ميزران » فى الأصل .

الفتوح العظيمة ببركاته وعزماته ، وبدأ فى النظر بأمور الأندلس فثقّف ثغورها ، وظهرت رجاله فى قواعدها ، وأثبت المقاتلة فى مراكزها ، وجرى ذلك كله فى شهرين من أول ولايتـــه ، ثم عاد إلى مراكش وأقام بها .

* * *

ذكرى واقعة شرف الدين قراقوش المظفرى فى هذه السنة

ولما سار شرف الدين قراقوش إلى بلاد إفريقية ونزل على الحمام[1] وأقام عليها أربعين يوماً يقاتلها وهدم فيها ثغرة سدها أصحابها بالنخل ، وأحرق ماسدوا به وقاتلهم فلم يقدر منهم على شىء ورحل عنها ، وهرب منه ابن شكل وصار إلى عرب يقال لهم « عوف » عند مقدم معهم يقال له « جناح[2] بن عقيل » ، وكان الأكراد قد أفسدوا عقله وقالوا له : « إذا صرت عنده لحقناك وتكون سلطاناً لنا وتملك البلاد » ، فلما مضى لم يلحقه من الأكراد أحد ، وبقى عند العرب معه قريب من عشرين رجلا لاغير ، ووصل سيد الناس وأخوه المنصور إلى شرف الدين [قراقوش] ودخلوا فى طاعته وحالفها ، وحلفا له وأعطاهما عطايا جزيلة ، ولدخولهم فى طاعته فرح أهل بشترى وانقادوا خوفاً من أن يحصرهم بأهل بلادهم ، وولى عليهم رجلا يقال له « حراج » كان يخدم عند والدى الملك المظفر بديار مصر ، ووصل إليه فى الجماعة التى وصل فيها ابن شكل وسار عنه وتولى بفزارة ، وكانت ولايته فيها ولاية ضعيفة .

ورحل شرف الدين عن الحمام ودخل إلى إفريقية ونزل بجزيرة باشُو[3]

---

(١) لعلها ذات الحمام التى أشـار اليها مراصد الاطلاع ٤٢٣/١ وقال فى شأنها « بلد بين الاسكندرية وافريقية » .

(٢) فى الاصل « حاح » .

(٣) فى الاصل « ناشوا » والتصحيح من مراصد الاطلاع ١٥٣/١ حيث اشار الى قول ابن حوقل عنها : وجزيرة شريك اقليم له مدينة تعرف بمنزل باشو واسعة العمل، منها الى القيروان مرحلة .

من أعمال تونس وهى من أحسن الأعمال يكون فيها ألف ضيعة وثلاث جهات منها غيط بها البحر ، ووجهة واحدة منها إلى الجبل وما رآى الناس أحسن منها عملا (٨٨ب) فأقام بها مدة ثلاثة أشهر يستغل البلاد وينهبون الناس مايقدرون عليه ورحل عنها إلى الجبل يستغله ، فجاءت « عوف » مع ابن شكل وجاءت إلى موضع يقال له[١] سردانية قريب من القيروان ، وسمع بهم شرف الدين فركب إليهم ونزل إليهم ، وسير قبله جماعة من زغب بقدر خمسمائة فارس ومن أصحابه مائتى فارس ، فالتقوا معهم وكسروهم قبل وصول شرف الدين ، ونزل فى موضعه على قصر يقال له « قصر أبى نصر » وكان يحاصره فأخذه ولم يجد فيه طائلا ورحل ، وخرج من إفريقية وعاد إلى النزول على الحامة ، ووصلت مشايخ عوف وأمراؤهم قريباً منه ونفذوا إليه يستأذنونه فى الحضور إليه فأمرهم[٢] فحضروا ، ولما سلموا عليه وقاموا قياما بين يديه شفعوا له فى ابن شكل فقبل شفاعتهم ، واستقربهم المجلس فقاموا ثانية فشفعوا فى حميد بن جارية وذباب وأن يستخدمهم ويعيدهم إلى بلادهم ويصالحهم ، ففعل .

وأحضروا فى ذلك اليوم حميد بن جارية وحالف بينه وبين زغب وعوف وكثرت العرب معه ، فطلبوا أن يدخلوا معه إلى إفريقية إلى تونس وغيرها من البلاد التى ماوطئها ليكنالوا منها ففعل ورحل عائداً إلى إفريقية ، فغنم الناس أكثر من الدفعتين الأوليين ، ووصل إلى تونس ووقف بإزائها ، ورحل إليها فقفز ابن شكل ودخل ولحقه وقت التقفز رجل من أصحاب شرف الدين كان قديما يخدم والدى الملك المظفر يقال له حمدان القواس ، واعتقد كل من رآه أنه قفز معه ، فلما أدركه عند الرجالة أخذ شربوشه[٣] وثنى

---

(١) قال عنها مراصد الاطلاع ٧٠٦/٢ « جزيرة فى بحر المغرب كبيرة ليس بعد صقلية واقريطش اكبر منها » .

(٢) لعلها « فأقرهم » .

(٣) الشربوش غطاء للرأس يشبه التاج ولكن بغير عمامة وقد قال محيط المحيط عنها انها قلنسوة طويلة اعجمية ، وكان الشربوش – زمن هذه الاحداث – من لباس الامراء ثم أبطال زمن برقوق ، انظر المقريزى : الخطط ٦٦/٢ .

فرسه راجعاً وضرب بنشاب الجرخ فما أصابه شيء، وعاد شرف الدين وقت العشاء من ذلك اليوم عن تونس ونزل بموضع يقال له قصر نعامه، وأصبح فرحل عنه وأدركه الشتاء، فخرج من إفريقية وسار يطلب النزول على الحامة فوصلها فى ستة أيام، ويوم السابع وقت الصبح كان العسكر على أسوارها (١٨٩) فوجدوا كل من بها قد ارتحل، ونزل الجميع الجبل بقلعة لهم على رأس جبل كانت تكون خالية، واتفق أن مقدميها بنى ثمال كانوا بعد فى المهدية[1] فأخذوا وكانوا ثلاثة : على وحسين ومفرح، فلما أخذوا وأحضروا إليه قال : « قد أمكن الله تعالى منكم، وأما أهل الحامة فمالهم عندى ذنب »، ثم أمر من سار إلى القلعة ونادى من بها : « ألا إن المقدمين قد أخذوا، وأنتم إن نزلتم إلى بلدكم فأنتم آمنون بأمان الله تعالى وأمان رسوله، لا نأخذ منكم شيئاً بل نجريكم على العادة فى أيام من تقدم من أخذ الخراج والأعشار»، فلما تحققوا ذلك نزل الجميع وعادوا إلى الحامة وعمرت أحسن عمارة.

وأراد قتل أولاد ثمال فحضر سيد الناس مقدم طره وشفع فى نفوسهم بشرط أن يؤدوا قطيعة على رقابهم : مائة ألف دينار مأمونية فقبل شفاعته، وعجلوا من ذلك ثلاثين ألفا، وضمنهم سيد الناس بما بقى عليهم وأخذهم وانكفأ إلى طره. وأقام شرف الدين تحت الحامة قريباً منها، واضطرب[2] أهل قابس بأخذ الحامة لأنها قريبة منها، وخرج إليه على بن عيسى بن شكاب وهو من كبار مشايخ قابس اتهمه الموحدون بأنه يكاتب قراقوش، وكان بها فقيه كبير يقال له ابن نزار قتله أهل قابس لاعتقادهم أنه كاتب قراقوش فثارت عليه العوام وحصروه فى داره وقتل بها.

* * *

---

(١) مراصد الاطلاع ، ١٣٣٧/٣ .

(٢) فى الأصل « اطربت » بلا تنقيط .

سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

وفيها خلا ديوان الزمام ببغداد من نائب وزارة ، وكان الخليفة قد فوض الأمور بأسرها إلى أستاذ الدار ابن الصاحب وجعل الاختيار إليه فيمن يرتب ويعزل . فاستاذن ابن الصاحب الخليفة — ثبت الله دعوته — بأن يرتب عز الدين صدقة بن صدقة نائبَ وزارة ، وكان حاجباً بباب النوبى ، فأذن له الخليفة فى ذلك ، فأحضره إلى داره وخلع عليه خلعة شريفة ، وأحضر حاجب الحجاب ابن جعفر وحجاب (٨٩ ب) الديوان بأسرهم وكل من يتعلق بالديوان العزيز من الكتاب وغيرهم ، وقال لهم : « إن الخليفة قد رسم أن يكون هذا — وأشار إلى عز الدين بن صدقة — نائب وزارة بالديوان العزيز أسوة بمن تقدمه فكونوا بين يديه وفى خدمته » فقالوا : « السمع والطاعة » ، ثم تقدم بأن يدخل مركوبه إلى الدار فأدخل وخرج من عند أستاذ الدار وقام له أستاذ الدار كل القيام ، وركب من الدار على الصُفّـة وخوطب «بجلال الدين» ، وخرج الناس بين يديه إلى باب الديوان، فلما أراد النزول عضده ابن جعفر حاجب الحجاب ودخل وجلس فى حجرة الصلاة ، وأحضر الكتاب والخازن واعتبر أحوال الديوان ساعة، ثم ركب وجماعة من الأمراء بين يديه إلى داره التى فى القرية بدار الخليفة فى درب البستان ونزل بها ، وتقدم إليه أستاذ الدار « أن لا تعمل شيئاً إلا بأمرنا ، وإن كتبت شيئاً أكتبه إلينا» فقال: « السمع والطاعة » ، وحضر جماعة من أرباب الدولة دار المذكور يهنئونه بالولاية . وأنشد الشعراء ، وحضر العلماء ، وانعكف الناس عليه .

وفى ذلك اليوم تقدم إلى ابن عبد الله بن الوكيل أن يكون بين يديه حاجب المجلس ، وخلع عليه وصار حديث الناس معه واستقل أمره أسوة من تقدمه ، وكان الناس يفضلونه فى الاحترام والإكرام على من تقدمه لأنه كان من بيت الوزارة ، وسأل بعد أيام من ولايته أن ينقل إلى

الدار التى كان فيها ابن البخارى — دار المطبق — وهى التى كان فيها عون الدين الوزير ابن هبيرة ، فأذن له فى ذلك فانتقل إليها ، وتقدم له بالإقطاع الذى كان لابن البخارى وهى جللتا ومايجرى معها من أعمال طريق خراسان ؛ وحاصل هذا الإقطاع فى كل سنة عشرة ألف دينار إمامية . ونفذ نوابه إلى الإقطاع وتصرف فيه وحكم فى الديوان وبسط يده ولسانه . وكان أستاذ الدار ابن الصاحب كل ساعة يتقدم إليه بما يعمل ، تارة ينفذ إليه الحاجب أبا الرضا وتارة أبا (١٩٠) الشجاع وتارة بملان ، وما كان يتجاوز ما يتقدم به إليه ، وكان عادة الوزير أو النواب الذين يسكنون هذه الدار لا يركبون إلى صلاة الجمعة بل يمضون إلى الصلاة مشاة اقتداء بعون الدين بن هبيرة الوزير رحمه الله تعالى لأن حائط الجامع حائط هذه الدار من باب القصور الشريفة من دار الخلافة التى بابها فى المطبق وهى بجامع القصر ، وينزل الوزير والنائب إذا ركبا ببابها خطوات قريبة ، فقال جلال الدين بن صدقة . « ما أريد أن أمشى ولا أخرج إلا راكباً » ، وكان فيه تيه عظيم وتهور ومن تقدم عمل بنفسه ما أراد ، وقدم الفرس يوم الجمعة وركب من دخل الدار وخرج إلى الصلاة . فعلم الناس أن هذه الحال تدل على جهله وقلة عقله ، وكان حاجب الحجاب يعضده عند ركوبه وعند نزوله ، ويطالع بجميع حركاته وما يتكلم به أو يتقدم به أو يطلقه أو يخرجه ويذكر ذلك كل يوم بمطالعة ويعرضها على أستاذ الدار ، فإن رأى فيها ما يستحسنه عرضه وإن رأى ما يكرهه لا يعرضه ، فعلم بهـذه الحال أستاذ الدار .

* * *

وفيها رتب ابن عون الدين بن هبيرة حاجباً بباب النوبى الشريف ، وكان أستاذ الدار يرى فى حقه ويقرّ به ، وكان قد ربى معه فى المكتب ، وكان أستاذ الدار لا يزال يصف دينه ويسدد رأيه ، وخلع عليه خلعة جميلة

وخدع عليه أيضاً أستاذُ الدار تشريفاً جميلا ، وكان نائب[1] الباب ابن الظهيري وصاحب الخبز بالباب ابن الحلال ، وقاضي الباب ابن الصباغ قاضي الربع ، وكتب ما كتب حاجب الباب ابن الظهيري رقعة إلى العرض الأشرف أن ينعم عليه بالتشريف على عادة أمثاله ، فخرج الأمر بإحضاره إلى الديوان العزيز وتشريفه فأحضر وشرف بخلعة سوداء وعمامة سوداء وسيف مذهب وفرس .

* * *

وفيها كتب صفي الدين بن عمارة رقعة إلى الخليفة يذكر فيها (٩٠ ب) « أن أرباب الأملاك بناحية بعقوبا[2] وناحية بُوَهْرز[3] قد أخذوا جملة كبيرة من أموال الوقف أجلهم الله تعالى ، ولو تقدم[4] باعتبار ذلك وتحقيق ما قد صار إلى المذكورين لحصل له من المال مبلغ كبير ، » فأنفذ الخليفة الرقعة إلى أستاذ الدار وتقدم إليه بأن ينفذ مع ابن عمارة جماعة لاعتبار هذه الأحوال ، فتقدم أستاذ الدار إلى نائب الوزارة جلال الدين بن صدقة بأن يتولى ذلك ويدبره ، فأحضر المحتسب ابن الرطبي ومعه عدل من عدول الحضرة ، وتقدم إلى ابن عمارة بأن يخرج ويحقق ذلك فخرج ، وكان ابن صدقة قد عرض الرقعة على الخليفة - دام ظله - وقد حسن له هذه الحال ؛ فمضى ابن عمارة ومسح الأملاك بناحيتي بعقوبا وبُوَهْرز ، فحضر إلى الديوان خلق كبير من الناحيتين واستغاثوا يوم الجمعة قدام الخطيب بجامع القصر

---

(١) في الأصل « حاجب » وفوقها « نائب » .

(٢) بعقوبة من مدن العراق ، كانت على الطريق المؤدي الى بغداد وتقع بأعلى النهروان ، راجع : مراصد الاطلاع ١/١٥٤ ، ولي سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٨٥ — ٨٦ .

(٣) بوهرز : بضم الباء وفتح الواو و سكون الهاء وكسر الراء : قرية كبيرة تحت بعقوبا ، راجع مراصد الاطلاع ١/٢٣٢ .

(٤) أي الخليفة .

الشريف ، وأنهى ذلك إلى الخليفة من جانب أستاذ الدار ، وكان ابن صدقة يمنع من يتألم [١] ، فتقدم الخليفة بإحضار ابن عمارة إلى الديوان وإحضار قاضى القضاة ابن الدامغانى والمحتسب ابن الرطبي وأمر بإحضار أرباب الأملاك وينظرون تكييف هذه الحال ويطالعونه بحقيقتها ، فحضر الجماعة وجلس صدقة بن صدقة فى بيت الجيش الكبير وسمع ماذكره ابن عمارة من زيادة الأملاك ، وتقدم إلى الملاك بإحضار كتب أملاكهم واعتبارها وطال الحديث فى ذلك، وكان المجمل على أهل بعقوبا وأهل بوهرز من الذهب مائة ألف دينار إمامية، وأرباب الأملاك لايعترفون بشيء من ذلك ؛ فوقع الخليفة بتقليد ذلك قاضى القضاة « فان ثبت عنده شيء يحكم به وإن لم يثبت عنده شيء فلاحاجة لنا بأموال الرعية » ، فقال قاضى القضاة « ماثبت عندى إلا حجج الملاك فحسب » فقال ابن عمارة وصدقة بن صدقة : « يؤخر هذا إلى أن يحضر من يشهد به لبيت المال وما قد أخذ [٢] ....

(١٩١) سعادة لو أحاط الحارمى بها
لعاد فيها ادعاه وهو حزنانُ

فاسعد بها دولة غراء ما ادّرعت
بمثلها حمير قدما وساسان

وأسلم ، تدوم لنا النعمى فإنك ما
سلمتَ فى جذل ، فالدهر جذلان

لازلت بدر سمـاء يستضيء به
ويهتدى مظلم منا وحيران

---

(١) لعلها « يتكلم » .
(٢) الظاهر أن بعد هذه الكلمة ورقة ـ على الاقل ـ ضائعة لعدم وجود رابط بين مجرى الكلام وما يلى .

ولا سعى لك صرف الدهر فى حرم
ولا رأى وجه من يرجوك حرمان

* * *

وفيها كتب جلال الدين صدقة بن صدقة نائب الوزارة مطالعة إلى الخليفة يكثر القول فيها فى حق أستاذ الدار بن الصاحب وأن الديوان يحكم فيه برأيه ، والأموال تجى إليه ومايقدر أحد يستوفى لبيت المال منه شيئاً . فوقف الخليفة على المطالعة وكتب عليها إلى ابن صدقة يصدقه فيما ذكره ، فتيقن ابن صدقة وظن فى نفسه أن الخليفة قد تغير على أستاذ الدار وأنه يقبل القول فيه ، وكان ابن صدقة ضعيف الرأى قليل التصور اعتقد أن الخليفة هو الذى اختاره لهذه الولاية وأن أستاذ الدار لم يكن له فى ترتيبه شيء ، فصار إذا تقدم أستاذ الدار بأمر يتعرض هو لإبطاله ويقول : « لا أفعل هذا الأمر إلا بتقدم الخليفة ، وأستاذ الدار لا يعلم كيف هذا الأمر » ، فلما حضر عند الخليفة قال إنه قد جنح أمرنا فى الديوان وصار هذا النائب إذا تقدم إليه بأمر يقول : « لا أفعله » ، فقال له الخليفة « كأنك ماعلمت أنه كتب إلىّ مطالعة يذكر فيها كذا وكذا فى حقك وهذا مايجىء منه خير ، إن شئت أن تصرفه فاصرفه ورتب غيره من شئت ، فذاك إليك » . وكان هذا جميعه من غير طينة نفس الخليفة لأنه قد تغير على أستاذ الدار ولا (٩١ ب) يُظهر له ذلك من شدة خوفه منه ، فخرج أستاذ الدار من عند الخليفة ونفذ الحاجب علان إلى الديوان بأمر ، فقال نائب الوزارة ابن صدقة : « ما هذا ديوان الأبنية ، هذا ديوان الخليفة ، مايقدر أحد يتقدم فيه بأمر إلا بأمر الخليفة » ، فرجع الحاجب علان وحكى ماجرى من ابن صدقة لأستاذ الدار فعظم ذلك عليه وشاع ذلك فى بغداد وقال الناس: « هذا دليل على تغير الخليفة على أستاذ الدار » وكثر القول فى ذلك ، وكثرت معاداة ابن صدقة لأستاذ الدار ومباينته له ، فكتب أستاذ الدار

إلى الخليفة أسماء جماعة لكى يختار منهم شخصاً لنيابة الديوان ، منهم عارض الجيش ابن الدرانج وشرف الدين بن الخلال وحاجب الباب ابن هبيرة ونجم الدين بن الثقفى ، وذكر أن هؤلاء الجماعة كلاً منهم يصلح أن يكون نائب وزارة ، ومدح ابن هبيرة حاجب الباب وذكر أنه كان ينوب فى الديوان عن أبيه وبالغ فى القول ، فبرز خط الخليفة يقول: « إن ابن الدرانج ـ عارض الجيش ـ أصلح من هؤلاء ، وبعد هذا فالحديث معك ، والرأى إليك فى ترتيب من شئت ، فليس لنا فى هذا حديث » ، فنفذ[1] إلى ابن الدارنج وتحدث معه وعرفه الحال وقال : « إذا ركب نائب الوزارة إلى الديوان عرفونى حتى أنفذ إليه أعزله ليكون ذلك أكثر فى الشناعة عليه وكسر الحرمة » ، فحملت دواة ابن صدقة إلى الديوان ، وجاء من أخبر بركوبه فتقدم أستاذ الدار إلى الحاجب أبى الرضا أن يأخذ معه جماعة من الحجاب وجماعة من أصحابه من ديوان الأبنية ويمضى إليه ويقول لنائب الوزارة ابن صدقة : « قد استغنى عنك فالزم بيتك ، فمضى الحاجب إلى الديوان فلم يجده ، فرجع إلى داره فدخل عليه وقال له : « إلزم بيتك فقد (٩٢ ا) استغنى عنك » .

ثم تقدم إلى الحاجب أن يحضر معه جميع النواب بالديوان العزيز ويحضرون إلى الديوان ، ففعل ذلك ثم رجع الحاجب أبو الرضا إليه وقال له : « قد تقدم إليك أن تحضر جميع[2] ما يكون عندك من خطوطه ولا يبقى عندك منها شىء » ، ففعل ذلك وحلف بالنعمة الشريفة أنه لم يبق عنده شىء ، وكثر القول من الناس أن أستاذ الدار قد تحكم فى دار الخلافة بحيث لو أراد أن يعزل الخليفة لفعل . وكثر خوف الناس من أستاذ الدار فكان الأمراء وأرباب الدولة يترددون إلى خدمته خوفا منه .

---

(١) أى أستاذ الدار .

(٢) فى الأصل « مكتوب » .

وكان جماعة من الناس يقولون إن الخليفة يريد قتل أستاذ الدار وأن هذا جميعه استدراج له .

ثم إن أستاذ الدار أحضر بهاء الدين عارض الجيش إلى داره وأدخله إليه خلوة ، ثم أذن للناس بالدخول إليه فلم يبق من أرباب الدولة أحد ، وأذن لجميع الناس ذلك اليوم بالدخول عليه فدخلوا . فلما استقر بهم المجلس التفت أستاذ الدار إلى عارض الجيش وقال له: « أدع للخليفة وأعلم أنه عيّن عليك فى نيابة الديوان العزيز وأخرج من ذمته مظالم العباد وفوضها إليك ، فيجب أن تنظر لنفسك وتبصر أين تضع قدمك ، فلا تمكّن من ظلم أحد ، ولتكن سيرتك حسنة ليحسن الذكر ويكثر الدعاء لهذه الأيام الزاهرة » ، فبكى عارض الجيش بكاء شديدا إلى أن تعجب الناس من ذلك ، ثم التفت أستاذ الدار إلى حاجب الحجاب والكتاب وحاشية الديوان وقال لهم : « قد رسم أن مرجع أمركم إلى هذا ، وهو المستخدم لكم ولا يخالفه أحد فى أمر من الأمور » ، فقالوا : « السمع والطاعة » ، ثم قال له : « انعم باسم الله » ، فقام ليخرج من عنده فقام له أستاذ الدار على قدميه .

ثم تقدم أستاذ الدار أن يدخل مركوبه إلى وسط الدار ويركب من موضع جرت عادة النواب ، فحلف ابن الدارنج أنه لا يركب إلا[1] خارج (٩٢ ب) الدار فلم يمكن من ذلك ، وركب على طرف الإيوان الذى يلى الباب وخرج والناس بين يديه والمماليك والأمراء والحجاب والكتاب وغيرهم من الناس ، وجلس فى حجرة الصلاة ، وكتب مطالعةً تشتمل على حضوره فى الديوان وشكره الأنعم الشريفة ، ونفذ المطالعة إلى باب الحجرة ، وخرج الجواب إليه بأن يطيّب نفسه ويشرح صدره ، واستقل بالنيابة .

* * *

(١) فى الأصل « الى » .

ذكر ما تجدد للملك الناصر صلاح الدين
فى هذه السنة بمصر والشام من الفتوحات والغزوات

ودخلت هذه السنة والسلطان مخيم بحماه معول على قصد الموصل ، فلما دخلت أيام من المحرم سار بعساكره متوجها إلى حلب ، فلما قرب من تل السلطان خرج للقائه أخوه الملك العادل سيف الدين ومعه عسكر حلب وكان صاحبها ، فاستبشر السلطان بلقائه ثم سار من تل السلطان فنزل بظاهر حلب فأقام أياما حتى اتصلت به العساكر ، وسار منها متوجها إلى الفرات فنزل بمكان يعرف برسا تحت ألبيرة على فرسخين منها ، فلم يزل هناك ثلاثة أيام حتى تكامل عبور جميع العسكر ، ثم رحل متوجها إلى حران ، فلما وصلها ضرب خيمة فى ظاهرها وكان بها مظفر الدين كوكبورى وكان قد وصل رسوله ابن ماهان إلى السلطان قبل عبوره الفرات يحثه على العبور والوصول إلى حران ، وقال إن مظفر الدين قد كتب خطه بخمسين ألف دينار يوم الوصول إلى حران تكون برسم النفقات ، وكتب خطه للسلطان بذلك .

فلما وصل السلطان إلى حران بقى بها أياما ومظفر الدين لاتجرى منه حركة بما بذله رسوله ، والسلطان من كرمه لا يندبه إلى ذلك .

فلما كان بعد أيام أنفذ إليه قاضى العسكر شمس الدين بن الفراش والعماد الكاتب الأصفهانى وقال لهما : « امضيا إلى مظفر الدين (١٩٣) واكشفا عن أمره وأخبراه بما أخبر عنه رسوله من المال الذى بذله » ، فمضيا إليه ، فلما بصر بهما كأنه علم بما جاءا به فقام قبل أن يقعدا ، وجاء بالمصحف الكريم وحلف به أنه لم يبذل شيئا مما ذكر عنه ، وأن رسوله كذب عليه فيما ذكره ، فرجعا إلى السلطان وأخبراه بالقصة فسكت عن بيانه مطرقا .

فلما أصبح ركب إلى الميـــدان ساعة واستصحب معه مظفرالدين

إلى سرادقه على العادة ، ثم أمر به فنقل إلى خيمة ووكل به فيها ومنعه من أصحابه ، فهاج العسكر واجتمع الأمراء عند السلطان وتكلموا وقالوا له : « إن هذا لا تأمنه ولا تخلى سبيله ، والرأى أن تنقله إلى قلعة حلب فتسجنه بها » ، فلما انصرف الأمراء من عنده تقدم إليه الفقيه عيسى وقاضى العسكر وذكراه الصفح والإحسان، فقال للفقيه عيسى: « إمض إليه وطيب نفسه وسكن روعه» ، فمضى إليه وعرفه ذلك فقال : « السلطان مالك رقّى ، وأنا أخرج له مما معى من البلاد وأكون بين يديه برسم الخدمة كأحد المماليك» فقال له : «بل تسلم إليه قلعتى الرها وحران» ، فقال : «السمع والطاعة» فرجع إلى السلطان وعرفه الحال فأمر له بتشريف جميل يليق به واستدعى به ، فقبل الأرض بين يديه وتسلمت منه القلعتان ثم أعيدتا إليه فى آخر السنة .

وأقام السلطان بحرّان [شهر] صفر وتوجه منها إلى رأس[1] عين فى مستهل شهر ربيع الأول فنزل بها يوما واحداً ، ثم رحل منها إلى دارا فنزل بها فتلقاه صاحبها ؛ ووصل فى تلك الحال عماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان بعساكر ديار بكر وآمد عوضا عن أخيه نور الدين وكان قد تأخر لمرض عرض له ، فشكره السلطان وأجزل له العطاء ، ثم رحل السلطان إلى نصيبين وسار منها إلى بين النهرين فضرب مخيمه هناك، ووصل إليه معز الدين سنجر شاه بن غازى بن مودود بن زنكى حاجب (٩٣ب) الجزيرة ، فاستبشر السلطان بقدومه ووفّر له من إحسانه، وسار بعساكره إلى طريق الدولعية[2] قاصدا

---

(١) راس عين أو رأس العين ، وهى فى الاصل رأس عين الخابور ، وهو مدينة كبيرة من مدن الجزيرة بين حران ودنيسر ،وتكثر بها العيون حتى يقال انها تبلغ ٣٦٠ عينا ، وقد اورد ابن حوقل وابن جبير — على بعد الفاصل الزمنى بينهما — وصفا لها ، وكانت هذه العين تعرف عند الرومان باسم Resaina ، انظر مراصد الاطلاع ٥٩٣/٢ — ٥٩٤ ، ولى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٥ والمراجع الواردة هناك فى حاشية رقم ٣٠ .

(٢) فى الاصل « الدولبية » والتصحيح من مراصد الاطلاع ٥٤٢/٢ حيث عرفها بانها قرية كبيرة بينها وبين الموصل يوم فى طريق نصيبين ، وانظر ابن واصل : مفرج الكروب ١٦٦/٢ .

إلى دجلة ، فنزل على بلد من شاطىء دجلة فى آخر شهر ربيع الأول ، ووصله الخبر بوفاة نور الدين بن قرا أرسلان صاحب آمد يوم الاثنين رابع عشر من الشهر المذكور ، فأمر أخاه بالرجوع إلى تلك البلاد وأمره بترتيب أمورها ، ثم رحل منها فضرب مخيمه على الإسماعيليات وأقطع البلاد الأجناد ، وسير الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب الهكارى ومعه جماعة من الأمراء[1] إلى العقر وأعماله[2] .

وأمر السلطان بعمل جسر فنصب ، وعبر مظفر الدين بن على صاحب حرّان وخيم بالجانب الغربى ومعه جماعة من الأمراء ، وجاء أخوه زين الدين من إرْبِل[3] بعسكره وجماعته وأمر الناس بترك القتال وتأخير الزحف ، وأرسل القاضى ضياء الدين الشهرزورى برسالته إلى الديوان العزيز فى إنهاء الأحوال وشرح الأسباب المقتضية لنهوضه لخدمة المواقف المقدّسة الناصرة لدين الله ، وأن المواصلة كاتبوا البهلوان بضرب الدرهم والدينار باسم السلطان السلجوقى ليظهروا بنصره ، وأنهم بعد ذلك راسلوا الفرنج يغرونهم بقصد الثغور وكشف ما اعتادوه من الظلم ، ويذكر أيضاً ما افتعلوه من مبايعة ابن أخيهم سنجر شاه بن غازى وابن زين الدين صاحب أربل وما ضيّعوا من محافظته ، وأنهم لم يرعوا حقه ولا حق أبيه الذى حفظ يتيهم ، وأشياء كثيرة لم نذكرها .

* * *

(١) فى الاصل « الاكراد » وفوقها « الامراء » ، أما العقر فقرية بين تكريت والموصل تنزلها القوافل ، أنظر مراصد الاطلاع ٣/٩٥٠ .

(٢) سار ابن المشطوب الهكارى الى قلعة الجزيرة حيث تجمعت لديه حشود كثيفة من الاكراد الهكارية ، أنظر الكامل لابن الاثير ، ١١/٢٠٨ ، هذا وقد أرسل الصلاح جماعة من الامراء الحميدية الى العقر واعمالها لافتتاح قلاعها ، راجع ابن واصل : مفرج الكروب ، ٢/١٦٧ .

(٣) مدينة كبيرة لها قلعة حصينة ذات خندق عميق فى طرف المدينة يقع سور المدينة فى نصفها ، والقلعة على تل عال من تراب وهى أكبر من قلعة حلب وأوسع منها ، راجع فى ذلك مراصد الاطلاع ١/٥١ .

فصـــل

من كتاب عن السلطان الى مجد الدين بن الصاحب استاذ الدار الامامية في وجه ما شرحه من الحال :

« قد أحاط العلم الكريم بأن التوجه لم يكن فى هذه السنة من دمشق إلى حلب إلا للجهاد فى سبيل الله عز وجلّ فإنه غاية الأرب وذلك بنية غزاة (١٩٤) أنطاكية ، فإن غزاة الفرنج من جانب دمشق إنما تستقيم أسبابها ، وتستتبّ آرابها إذا كانت عساكر مصر حاضرة ، والأيدى بقوتها متظاهرة ، وكانت العساكر المصرية قد طالت بالشام إقامتها ، وتوفّرت فى ملازمة الخدمة فى البدارات عرامتها، فرأى إراحتها واستجامها، وعادت إلى مصر لتستجد استعدادها واهتمامها ، ووصل إلى حلب لقربها من البلاد الإسلامية لتجمع العساكر منها لغزاة أنطاكية ، وطمع أيضاً فى وصول العسكر الموصلى للإنجاد ، والمساعدة من سائر الجهات على الجهاد، والاستظهار منها بتوافر الأمداد ، فإن رسل المواصلة ما زالوا متردّدين ، وللخديعة بالقول والكتب مجدّدين، وهم فى أثناء ذلك يراسلون الجوانب ، ويكاتبون الأجانب ، ويرتقبون النوائب ، وتذهب بمعاودتهم الأوقات ، وتحدث دون قصدهم الحادثات ، فهادن أنطاكية هدنة آذنت بغبطة الإسلام ، وخلّص من طال إساره من ذوى الإقدام ورجال الشام ، ورأى أن المواصلة لا ينزلون عن المحتمين به ، ولا يرفعون أيديهم عن المعتصمين بسببه ، ومنهم صاحب الجزيرة وصاحب إربل ومن بتكريت والحديثة وغيرها ، وأنهم لا يقفون فى المكر والخديعة عند أمد ، وأن رسلهم متناوبة إلى كل أحد ، فسار على أنه يلحق البلاد قبل هجوم الحرّ ، ويصل إليها فى وقت إمكان الحصر ، فما وصل إليها إلا والحر قد اشتد استعاره ، والقيظ قد تأججت ناره ، ورأى الوقت يَعْسُر فى تقديم آلات الحصار ، ويخشى عليها مع نار الهجير من قبول النار ، فإنه

استصحب منجنيقات ودبابات ، وأخشاباً[1] لعمل البرج مهيات ، و وقد الظهيرة يؤثر فيها ، ويشق أيضاً لبس الدروع على مستلبيها ، فلم يبق إلا المقام بنية المطاولة والمصابرة ، والتمهل إلى أن يطيب الزمان ويتيسر إمكان المحاصرة ، فتوطّن عزمه على التوطّن ، وأقام بنيـة التثبّت وقوة التمكن ، (٩٤ ب) وأقطع البـلاد والولايات ، وولى الإقطاعات ، وخيّمت العساكر المنصورة بشرقى الموصل وغربيها فضيقت خناقها ، وملأت بنجوم الأسنّة آفاقها ، وتضرّمت فى أعمالها ، وتفرّقت فى سهولها وجبالها » .

ومنه :

« ورأينا أن مقامنا بغير شغل ، فأفكرنا فى أمر يقوم مقام الحصار سهل ، وهو أنّا وجدنا الماء فى أوان نقصانه ، وأنه إذا سُدّ وحوّل فهذا زمان إمكانه ، فركبنا وشاهدنا موضع التحويل ، وأيقنا من الله تعالى بنجح التأميل ، » وذكر[2] المهندسون أهل الخبرة أنه يسهل تحويل دجلة الموصل عنها ، بحيث يبعد مستقى الماء منها ، فحينئذ يضطر أهلها إلى تسليمها بغير قتال ، ولا حصول ضرر فى تضييق ولا نزال ؛ واستدعى لذلك الآلات واشتغل بجمع صناع ورجال » .

وأصدر أيضاً كتاباً إلى الديوان العزيز بمقتضى ذلك .

• • •

رجعنا إلى إتمام الحديث .

---

(١) فى الأصل « اخشابات » .

(٢) يستفاد مما ذكره أبو شامة : الروضتين ٦٣/٢ ان العبارة المحصورة بين قوسين من كلام العماد فى رسالة له الى الديوان العزيز . راجع الروضتين ٦٣/٢ .

ولم يزل السلطان محاصراً للموصل مواظبا على مضايقتها إلى أن أتاه الخبر — بوفاة شاه أرمن صاحب خلاط — يوم السبت العشرين من شهر ربيع الآخر، وكانت وفاته يوم الخميس الرابع[1] منه، فحينئذ ترددت الآراء وكثرت المشورات وأتى إليه الأمراء وذوو الرأى منهم من أشار عليه بالمسير إلى تلك الديار، ومنهم من قال له: «تجمع بين الأمرين فتترك بعض العسكر بقدر ما تضايق به البلد من الجانبين، وتعجل بالمسير لأخذ تلك الخطة»، فلما أصبح وردت عليه [2] كتب أولياء الدولة بخلاط وتلك الولايات وبدليس [3].

ووصل من أمراء خلاط عماد الدين ملك، وحرض السلطان على المسير إلى تلك الديار وقال: «هذه الموصل ملك ما يخشى فواتها» فبقى السلطان مفكراً فى أمرها فى يومه وليلته. فلما أصبح عزم على الرحيل عن الموصل، ثم أمر الرسول بالمسير إلى بلد خلاط، وأمر أمراءه بالتأهب وعرفهم ما عزم عليه من قصد تلك الخطة، ثم أرسل إلى (١٩٥) زين الدين بن على كوجك صاحب إربل بالرجوع إليها، وجعل فى معونته الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب.

* * *

ذكر رحيل السلطان من الموصل الى ديار بكر ومسير ناصر الدين محمد ابن شيركوه ومظفر الدين بن على كوجك فى القدمة الى خلاط، وذكر وصول بهلوان بن ايدكز الى المغرب.

فيها كان رحيل السلطان عن الموصل بعساكره فى أواخر شهر ربيع

---

(١) فى الكامل لابن الاثير، ٢٠٩/١١، وعنه أخذ مفرج الكروب، ١٦٨/٢، «التاسع» والصواب ما هو وارد بالمتن أعلاه.

(٢) وذلك خوفا من أن يمكلها العجم.

(٣) الضبط من مراصد الاطلاع ١٧١/١ حيث عرفها بأنها بلدة من نواحى أرمينية قرب خلاط، لكن انظر لى سترانج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٢١٨، وحاشية رقم ٢٢، والمراجع المذكورة هناك.

الآخر من السنة وتقدم إلى ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه بأن يتقدم إلى خلاط ، وأردفه بمظفر الدين [بن زين الدين] صاحب حران ومن تابعهما ، فلما وصلوا إلى خلاط وجدوا سيف الدين بكتمر — أحد مماليك شاه أرمن —[1] قد دخلها وحمى معقلها ، فوقف ناصر الدين ومن معه دونها ، وجاء شمس الدين بهلوان أبو جعفر محمد بن أيدكز[2] فى عساكر الشرق ونزل بقرب خلاط أيضا ، وكان وزير خلاط مجد الدين أبو الموفق بن رشيق يكاتب السلطان [صلاح الدين] مرة ويكاتب البهلوان أخرى ، ويكتب إلى ناصر الدين [بن شيركوه] بالإقامة .

وأما السلطان فإنه سار متوجها إلى ديار بكر فخاف جميع متملكيها من قدومه إليهم .

فأما النظام البقش — متولى ماردين — فإنه احترز وتحصن ؛ وأما صاحب آمد فإنه خاف على نفسه من السلطان أن يأخذها بعد موت أبيه نور الدين [محمد بن قرا أرسلان] ، وأشار على السلطان جماعة من الأمراء بأخذ آمد وقالوا له : « إنما أنت وهبتها لنور الدين ولا حرج عليك فى أخذها من ولده مع كونه طفلا، وأنه قد امتنع أن يأتى إلى الخدمة » فقال : « هذا أمر لا يفوت استدراكه ، ونحن نتقدم بإيفاد من نثق به إليهم ونتأمل ماهم عليه ونبنى الأمر على اليقين» . فندب إليهم القاضى شمس الدين محمد بن محمد بن الفراش ، فحين دخل إلى آمد وجدهم على جادة العزم على الوصول إلى الخدمة فتركهم ، وأتى إلى السلطان فخبره بوصول (٩٥ب) قطب الدين سليمان — ولد نور الدين محمد بن قرا أرسلان — ، وكان

---

(١) كان شاه ارمن فى ذلك الوقت هو ناصر الدين سلمان بن ابراهيم ، راجع زامباور : معجم الانساب ، ص ٣٤٨ .

(٢) « ايلدكز » فى مفرج الكروب ، ٢/١٦٨ .

وصول السلطان إلى ميافارقين فى العشر الأول من جمادى الأولى ، فرأى أهلها مفارقين لطاعته ، وأتاه كتاب ناصر الدين محمد بن شيركوه يستأذنه بالوصول إليه ، فأذن له بذلك وقال : « الرأى أن نبتدىء بحصار ميافارقين وفتحها » ، وشاور أصحابه وأمراءه فى ذلك فقالوا له : « الرأى ماتراه » .

* * *

ذكر حصار ميافارقين

ولما علم النظام البقش بمسير السلطان إلى تلك الجهة ندب من أصحابه الأمير أسد الدين برتقش وأمره بالمسير إلى ميافارقين ، فلما وصلها بذل يده فى الأموال وفرّق على الرجال ، ونصب المنجنيقات والعرادات ، وملأ الأبراج بالأجناد ، وأرعد وأبرق وأنف واستكبر، فلما عاين السلطان ذلك أمر عساكره بالاستعداد ونصب المناجيق فنصبت ، وأمر الناس بالقتال والزحف ، وطال القتال عليها صباحاً ومساء ، وخرج جماعة منهم وأحرقوا منجنيق السلطان ، فقتل من الفرقتين جماعة كبيرة وقتل يوسف المنجنيق ، وكان مقداماً شجاعاً ، وكان فى كل يوم تشتد الحرب ويكثر النزال ، وكانت الأمور لا تزداد إلا شدة ، وطال الحصار ودام .

وكانت خاتون بنت قرا أرسلان — زوجة قطب الدين صاحب ماردين — حينئذ بميافارقين[1]، وكانت تحرض الناس على القتال، وكانت ذات يتامى ولها حالة حسنة معروفة بالصلاح والتقى ، فلما لج الحصار وطال الأمر وتمادى راسل السلطان الأمير المذكور بميافارقين يستلينه ويستكشف

---

(١) عرفها مراصد الاطلاع ١٣٤١/٢ ، وياقوت : معجم البلدان ٧٠٣/٤ وما بعدها بأنها أشهر مدينة بديار بكر ، ويظن أنها من بناء الروم ، أنظر وصفها الجغرافى والتاريخى فى لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٤٣ — ١٤٤ ، حاشية رقم ٢٠ ، ٢٢ .

نهج الجواب من جانبه، ويرغبه تارة ويستعطفه تارة ، ثم يتوعده تارة ويتهدده أخرى ، فذكر أنه يقضى حق من وجب عليه حقه ، يعنى بذلك صاحبه، وذكر « أن قطب الدين مذ درج إلى رحمة الله تعالى لم تزل الخاتون مالكة الأمر ونحن لها مطيعون » .

فراسل السلطان حينئذ خاتون مرة أخرى وهى لا (١٩٦) ترجع إليه جواباً يشفيه ، ثم إنه قال لها : « إنا لا نبرح هاهنا حتى نفتح ميافارقين ، وإنا — نحن — أولى بحفظ بيتك ورعاية حقك ، وهذه البلدة إذا دخلناها فلا خروج لنا عن رضاك ونصاهرك فى إحدى عقائلك » ، ولم يزل بها حتى طابت نفسها بما بذله السلطان لها .

وراسل [السلطان] عند ذلك الأمير الأسد [برتقش] وقال له : « دع اللجاج والمجانبة فإن خاتون قد مالت إلى جانبنا » ، فلما بلغه أن خاتون قد وافقت السلطان على مراده لانت عريكته [و] ضرع إلى رأى السلطان واستقر أن ينقطع إلى خدمته وأن يكون فى جملة من شملته سوابغ نعمته ، وأن يخصه بحنلجور[١] وأعماله ، وأن يقرر مع خاتون أن يبقى ماكان عليها باسمها من المواضع واسم خدامها، وسألت أن يفرد لها حصن الهتاخ[٢] ، وخطب السلطان إليها إحدى بناتها لابنه الملك المعز فتح الدين اسحق[٣] والتمست منه ماقرره على يمينه ، فسارع إلى مرادها .

* * *

(١) ذكر ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٣١١/١ انه اسم لكورة كبير متصلة بديار بكر من نواحى ارمينية فيها قلاع وقرى للأرمن .

(٢) الضبط من معجم البلدان ، ومراصد الاطلاع ١٤٥١/٣ .

(٣) وكان عمره اذا ذاك لا يتجاوز الحادية عشرة ، راجع شفاء القلوب ، ورقة ٧٣ ا والروضتين ٢٧٦/١ .

ذكر ميافارقين وفتحها

ولما كان يوم الأربعاء آخر يوم من جمادى الأولى تقدم السلطان إلى القاضى نجم الدين بن عصرون والعماد الكاتب الاصفهانى بالدخول إلى ميافارقين لعقد النكاح على ابنة قطب الدين لولده اسحق ، وكان وكيل السلطان لابنه : العماد الكاتب ، ووكيل ابنة قطب الدين القاضى نجم الدين ابن عصرون لتقرير المهر وتسليم النقد ، وجلس السلطان فى سرادقه للهناء ، وخرج إليه الأعيان من البلد ، ونفذ إلى خاتون هدايا وتحفا برسم المخطوبة، وأنعم على الأمير أسد الدين بجنلجور ، وشرفه تشريفاً جميلا .

ووصل عند ذلك قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا أرسلان ، وأمر السلطانُ الأمراءَ بلقائه ، ثم خرج من بعدهم فتلقاه بالإكرام، ولم يزل عنده مكرما ثم شرفه وأمره بالرجوع إلى آمد موفور الحظ من جانبه ، وفوض السلطان ولاية تلك الأماكن والبلاد إلى (٩٦ ب) مملوكه حسام الدين سنقر الخلاطى .

* * *

ذكر رحيل السلطان من ميافارقين ونزوله على شاطىء قراماں

ورحل السلطان من ميافارقين ونزل على الموضع المذكور وراسل البهلوان ، وكان السبب فى وصوله مراسلة سيف الدين بكتمر له وتخويفه من السلطان ، وأنه متى أخذ خلاط واستولى على ممالكها قصد جميع بلاد العجم ، وحمل إليه مع ابنته — زوجة شاه أرمن — مالا جزيلا ، وندب السلطان الفقيه عيسى إلى مجد الدين بن رشيق الوزير بخلاط فتكلم معه فأحال الحال على البهلوان ، وأنكم لو استعجلتم قبل وصوله إلى البلاد لتم المراد » .

ثم إن الفقيه عيسى ندب شخصا من أصحابه للتجسس على عسكر البهلوان وتصفح الأحوال ، فلما توسط عسكره نذروا به فادعى أنه رسول من صاحبه الفقيه عيسى رسول السلطان ، فطلبوا منه حينئذ وصول الفقيه عيسى إليهم فكاتبه بذلك ، فأرسل الفقيه عيسى كتابه إلى السلطان يعرفه صورة الحال ، فكتب السلطان إلى البهلوان بإرسال الفقيه عيسى إليه ، فتوجه الفقيه عيسى حينئذ إلى البهلوان فأكرمه إكراماً عظيما ، فشرع الفقيه عيسى بالصلاح وفتح أبواب الاستعطاف والاستمالة فيما بين الفئتين ، ورجع وفى صحبته رسول البهلوان إلى السلطان فأكرمهم وأجزل لهم من عطائه ورجعوا موفورى الحظ من جانبه ، ورأى أن الأمر يتطاول فأخّره إلى حين انتهاز فرصة الإمكان .

* * *

ذكر وصول رسل السلطان الينا الى مصر والبشارة لنا بفتح ميافارقين

ولما فتح السلطان ميافارقين واستولى على ممالكها أرسل نجا بين بكتابه إلى والدى الملك الظفر — وكان حينئذ صاحب مصر والمستولى على ممالكها — يخبرنا بما مَنّ الله تعالى عليه من فتح (١٩٧) ميافارقين، فشرعنا حينئذ بتزيين البلدين : القاهرة ومصر ، وأرسلنا رسلنا إلى جميع البلاد المصرية بذلك ، وضربت البشائر فى جميع الأماكن ، وسررنا بما منّ الله تعالى عليه من النصر والظفر، وخلع على المبشرين له بذلك ووفر عطيّتهم وشرّفهم .

* * *

ذكر رحيل السلطان من شاطىء قرامان وتوجهه الى الموصل

وذلك فى شهر رجب من السنة المذكورة فكان وصوله إلى نصيبين فنزل بها أياما حتى تكامل وصول العساكر إليه وذلك فى آخر الشهر

المذكور، ثم رحل من نصيبين فنزل على شاطىء دجلة بكفر[1] زمار بقرب الموصل وذلك بعد أربعة أيام من شعبان[2] ، فحينئذ ضاقت على صاحب الموصل الأرض بما رحبت وغلقت أبواب الموصل وأحاطت بها العساكر واضطرب أهلها اضطراباً شديداً ، وكان السلطان يركب فى بعض الأيام ويشرف على البلد وينظر مقاصده، وكان يأتيه منذ نزل — على ماحكى لى — فى الرسالة[3] من الموصل قوم بعد قوم ، فبينا هو على ذلك من حصارهم والتضييق عليهم إذ أقبلت عليه النساء الأتابكيات تخضعن له فى القول وسألنه عاطفته ، فأنزلهن خير منزل وأكرمهن غاية الإكرام وأجابهن إلى مارمنه منه وقبل شفاعتهن ، وقال لهن : « لابد من قاعدة نبنى عليها وتتألف عليها القلوب وتطمئن إليها الأنفس » . فاستقر الأمر أن يكون عماد الدين زنكى صاحب سنجار — أخو صاحب الموصل — وسيطا فى البين وحكما فيما يعود بمصلحة الجانبين . وسير السلطان رسوله إلى صاحب سنجار فى إيفاد رسوله، فأنفذ وزيره شمس الدين بن الكافى ، وكان من قبل قد سبق القول فى تسليم بلاد شهرزور[4] وقلاعها وحصونها وضياعها وكذلك ماوراء الزابين[5] من البوازيج والرستاق وبلد القراملية[6] وبنى قفجاق ، فدخل (٩٧ ب)

(١) كفر زمار قرية من قرى الموصل ، أنظر مراصد الاطلاع ١١٧٠/٣ .

(٢) وقد أقام بها شهرى شعبان ورمضان ، أنظر الكامل ، ٢١٠/١١ .

(٣) يعنى بذلك السفارة بين الجانبين .

(٤) هى احدى الكور الواقعة بين اربل وهمذان ، وجميع أهلها كرد ، وكان تعدادهم فى القرن العاشر الميلادى قرابة ستين ألف أسرة ، أنظر مراصد الاطلاع ٨٢٢/٢ ، ولى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ ، وحاشية رقم ٩ .

(٥) المقصود بالزابين هنا الزاب الاعلى وهو ما بين الموصل واربل ، ومخرجه من عين رأس جبل ، وهو يمتد حتى يفيض فى دجلة على فرسخ من الحديثة ، أما الآخر فهو الزاب الاسفل ومخرجه فيما بين شهرزور وأذربيجان ويفيض فى دجلة فوق تكريت ، انظر مراصد الاطلاع ٦٥٢/٢ ، اما البوازيج فبلد قرب تكريت ومصب الزاب الأسفل الى دجلة ، شرحه ٢٢٧/١ ، وياقوت : معجم البلدان ، وأما الرستاق فمدينة بفارس من ناحية كرمان ، أنظر مراصد ٦١٥/٢ ، وياقوت : شرحه .

(٦) « القرابلى » فى الكامل ، ٢١٠/١١ ، و « القرابلية » فى مفرج الكروب ، ١٧١/٢ . انظر فيما بعد ص ٢٢٥ س ١٢ .

شمس الدين بن الكافى وشمس الدين قاضى العسكر لأخذ العهد من صاحب الموصل على ما ذكرناه ، واستقرت القواعد على ذلك ، وضربت الدنانير والدراهم باسمه ، وخطب له على المنابر بجميع تلك الممالك .

* * *

نسخة

كتاب كتبه السلطان الى اخيه سيف الاسلام ملك اليمن يذكر فيه فتح ميافارقين وعوده الى الموصل وما جرى من الصلح ، وذلك بانشاء العماد الكاتب الاصفهانى

« كتابنا ونعم الله تعالى منوط بمزيد الشكر عندنا مزيدها، محوط من السديد توأمها وفريدها، حال من الاغتباط منها جيدها ، حال في محل الارتباط لنا أبيسها وشرودها ، والنصر ماض نصله، والخير واضحة سبله، والملوك وقد دانت لنا رقابها ولانت صعابها ، وذلت لعزتنا أعزتها ، وتوفرت للتناهى فى العبودية لنا هزتها ، فرسلهم على الأبواب العزيزة للذلة خاضعة ، عارضة للاستكانة ضارعة، والممالك لمملكتنا خاطبة، وفى عدلنا راغبة ، ولطلوع سنى إحساننا بكشف ظلم الظلم عنها طالبة ، والوجوه سافرة ، والأيدى ظافرة ، ولاشك فى إحاطة علمه بعبورنا الفرات فى صفر سنة إحدى وثمانين لإصلاح ديار بكر والموصل ، وفوزنا فى كل وجهة بالنصر العذب المنهل ، وأنا أقمنا أشهراً على بلاد الموصل وتصرفنا فيها ، وأنعمنا على الأجناد بأعمالها ونواحيها ، فاتفق اختلال أمر ديار بكر لمـــوت ملوكها وتبدد سلوكها ، فقصدناها وقررنا أمورها ، وأعدنا إلى مطالعها من سياستنا نورها، وفتحنا ميافارقين وهى أم بلادها ومقلد نجادها ، ومركز محيطها ونقطة بسيطها ، فملكنا بها من ديار بكر رق ملوكها ، وأطلقنا بها شمس المهابة بعد دلوكها ، وأخمدنا الفتن وقد وقدت، ونبهنا السنن (١٩٨) وقد رقدت، وأحيينا العدل

وقد دثر ، وأنعشنا الفضل وقد عثر، ودخل الشتاء فخرجنا من تلك الديار بعد ضم شتاتها، ونظم مصالحها وصرف آفاتها، وآذن حيا رحمتنا رُفاتها ،ولأجل اعتصام الأطراف بنا واستمساكهم بسببنا ، ومنهم صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن أخى صاحب الموصل ، وزين الدين بن زين الدين على كوجك صاحب إربل رأينا أن نقيم فى بلاد الموصل لنشتو بها إلى الربيع، ونستجد حينئذ فى فتح البلاد حسن الصنيع . ولما تحقق صاحب الموصل هذا العزم ، وخشى هذا السهم ، ضاقت عليه الأرض بما رحبت،وضافته الهموم التى وجفت لها القلوب ووجبت ، فألقى سلاحه ، وطلب بالصلح صلاحه ، وخفض بضراعته جناحه ، وحفظ على أهله فينا نجاحه ، ولم يزل لنا مذعناً ، وكان حلمنا لمأمن روعه لما أتى مؤمناً مؤمّنا، ونزل لنا عن جميع ماوراء الزاب من البلاد والقلاع ، والحصون والضياع ، وشهزور ومعاقلها وأعمالها ، وولاية بنى قفجاق وولاية القرابلى(1) والبوازيج وعانة، وقررنا عليه الموصل وأعمالها على أنه يكون بحكمنا ، وينفذ عسكره إلى خدمتنا ، وتكون الخطبة والسكة باسمنا وسمتنا ، وأن يطلق المظالم، ولا يرتكب فيها المآثم ، وقد حصلت لنا من صاحب الموصل ومن جميع مَن بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة ، وصارت فى كل خطة لدولتنا الخطبة ، وتمت فينا الرغبة، ونمت لنا المحبة وعمّت الهيبة والرهبة ، وما سمت لكل ذى رتبة سامية إلا بالانخفاض لأمرنا الرتبة ، والدولة ناضرة ، والحدائق ناظرة الأحداق ، منيفة الإشراف منيرة الإشراق ، متعالية السناء سنية العلاء ، وبنعمة الأولياء متوالية النعماء ، سامية الهمة هامية السماء ، نامية الصحة صحيحة الأسماء، والعوارف إلى ذوى الشكر منا فوارع، والصنائع فى ذرى الابتهاج بنا نصائع، والعزائم (٩٨ ب) إلى الجهاد فى سبيل الله عز وجل نوازع ، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع ، ونجحت الآمال ورجحت ، وتمكن ساعد القدر وساعد إمكان القُدر .

---

(1) انظر ما سبق ص ٢٢٣ سطر ١٥ ، وحاشية رقم ٥ .

رجعنا الى اتمام الحديث

ولما تسلم السلطان البلاد المذكورة ولاها جماعة من أصحابه ومماليكه وأمرائه ، فأما شهرزور فإنه أرسل إليها مملوكه مجاهد الدين أياز ، وندب للنظر فى تلك الأعمال شمس الدين بن الفراش ، وأقطع البوازيج لبعض خواصه ، ووقف ضيعة تعرف ببا قيلا على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد .

ثم رحل السلطان من الموصل فى شوال متوجها إلى نصيبين فكان فيها ثامن الشهر المذكور وأقام بها أياما ، ثم رحل منها إلى حران فى العشر الآخر من شوال فكان وصوله إليها فى آخره ، ولم يزل السلطان بحرّان إلى آخر السنة وكان قد ألمّ به مرض شديد مدة مقامه فى حران وطال ذلك به ، وكثرت الأراجيف عنه فى تلك المرضة .

* * *

ذكر شىء من مكارم اخلاقه رضى الله عنه

ذكر بعض أصحابنا أن السلطان لما اشتد به المرض بحران وكان قد أتاه جماعة كبيرة من سائر بلاد الإسلام طلباً لإنعامه عليهم على جارى عادته وحسن سجيته قال : فاستغاث الناس ومن هناك من القاصدين له والسائلين ، فسمع ضجة الناس فقال : « ما هذه الضجة » ؟ فقيل له « هؤلاء الوافدون عليك قد اجتمعوا على بابك متأسفون على ما بك » قال : « فأمرنى بكتب أسمائهم فكانوا خلقاً كثيراً ، فأعطى كلا منهم على قدره وما قسم الله تعالى على يده ، فكان مالا كثيراً » ، وسارت الأخبار بمرضه .

فأما أخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر فإنه سمع بحلب مرض أخيه فسار إلى حران يقطع المنازل فوصلها بعد أيام ، فأقام بها عند السلطان

لضبط الأمور وسياسة الجمهور والجلوس فى نَوْبَتِـيْـه[1] لتولى مصالح الرعية ووظائف السماط والعمل فى كل مهم وتنفيذ ما يخرج من المراسيم السلطانية (٩٩ ا) وسماع مراسلة الجوانب وغير ذلك .

واتصلت بنا الأخبار إلى مصر والكتب من عنده بمرضه ، وكان والدى الملك المظفر حينئذ بها ومتوليا[2] على ممالكها ، ثم تواترت إلينا كتبه بعافيته وركوبه ، فسررنا بما مَنَّ الله به تعالى على الإسلام وأهله بعافيته .

* * *

ذكر من توفى فى هذه السنة من الأماثل وغيرهم ممن نذكره :

فيها توفيت عصمة الدين ابنة معين الدين أنر وكانت فى عصمة نور الدين محمود بن زنكى ، فلما توفى وخلفه السلطان بالشام فى حفظ البلاد ونصرة الإسلام تزوَّج بها فى سنة اثنتين وسبعين [وخمسمائة] وكانت من النساء العفائف ، ذات معروف[3] وصدقة وصلاح .

وفيها توفى[4] سعد الدين مسعود بن أنر رضى الله عنه .

وفيها توفى عز الدين جاولى وكان من أكابر الأمراء .

وفيها قتل قوام الدين أبو محمد عبد الله بن سماقة وزير قرا أرسلان ، قتل بآمد ، قتله مماليك مخدومه وذلك أنه كان قد تمكن واستولى على ما كان

---

(١) يقصد بذلك النوبة السلطانية ، راجع مفرج الكروب ١٧٢/٢ .

(٢) فى الأصل « متولى » .

(٣) هو الخاتون عصمة الدين ابنة معين الدين انر وزوجة نور الدين محمود ، فلما مات عنها تزوجها صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ ، وكانت دينة عفيفة برة ، كثيرة الاوقاف على الخير ، أنشأت مدرسة للحنفية بدمشق ورباطا للصوفية ، ولما ماتت دفنت بتربتها التى أنشأتها بقاسيون دمشق ، انظر النعيمى. الدارس فى تاريخ المدارس ، ٢٤٤/٢ — ٢٤٥ النجوم ، ٧٨/٦ ، ٩٦ .

(٤) هو أخو خاتون عصمة الدين وقد مات بعدها فى نفس السنة ، أنظر Ency. Isl. Arte: Khatun.

بصدده، وكان أحد الأمراء الكبار — ويُعرف بالصلاح — فبلغ أنه قد تولىَّ الأمر معه وكلاهما مستشعر من صاحبه، فسبق الوزير إلى قبضه وحبسه واستقل فى التدبير، فلما سمع الملك الناصر صلاح الدين بهذه الواقعة من الوزير وما حدث منه فى حق الأمير المذكور قال يوماً فى مجلسه: «لقد تعرَّض هذا للخطر وكأنىّ به وقد ذهبت نفسه» فكأنه نطق بما كان فى القدر المحتوم، فلم تكن إلا أيام قلائل [إلاَّ] والخبر ورد بقتله.

ذكر السبب فى قتله

وذلك أن جماعة من المماليك المفردين تآمروا على قتله فجاء أحدهم إليه وهو جالس فى ديوانه وعنده جماعة من الأماثل والأكابر وغيرهم فقال له: «الملك يدعوك وحدك ليسألك عن حديث عندك»، فقام ودخل الدهليز فثاروا عليه وقتلوه، ثم أخرجوا الصلاح من الحبس، فلما تمكن قبض وبسط، وشرَّد أصحاب الوزير وقتل منهم من أدركه، ثم إنه قتل أولئك القاتلين (٩٩ ب)[1] إلى أن أدرك الأمير رشده.

وفيها توفى الأمير ناصر الدين[2] بن شيركوه بحمص فى تاسع ذى الحجة من السنة المذكورة.

وفيها توفى الفقيه مهذَّب الدين عبد الله بن أسعد الموصلى بحمص، وسأذكر ما تجدَّد من الأمور السلطانية فى سنة اثنتين وثمانين إن شاء الله تعالى.

وفيها تجهَّز أبو يعقوب بعسكر زهاء على عشرين ألفاً، وجمع جموعاً

---

(١) ورد بعد هذا أربع كلمات مطموسة.

(٢) راجع عن موته ابن الأثير: الكامل ١١/٢١٠ — ٢١١، وابن واصل: مفرج الكروب ٢/١٧٤، والمقريزى: السلوك ١/٩٠.

كثيرة لقصد عليّ بن اسحق ورجع مكسوراً[١] .

* * *

واقعة قراقوش المظفرى

وفى هذه السنة وصل إلى نواحى قشطيلة أبو الحسن على صاحب مايرقة.[٢] لأنه كان خرج إلى بجاية وملكها وكسر السيد أبا على بن عبد المؤمن وأخذ منه أموالا عظيمة وسار إلى مرعية فملكها وعاد من فوره راجعاً إلى ناحية المشرق، وجعل بجاية وراء ظهره وترك بها أخاه أبا زكرى ونزل هو على قسطنطينة الهواء محاصراً لها فأقام عليها أربعة أشهر. فوصل إلى بجاية عسكرُ الموحدين تقدمهم السيد أبو زيد عمر بن عبد المؤمن، فلم يقدر أبو زكرى على الإقامة ببجاية فلحق أخاه إلى قسطنطينة. وسار إليهما أبو زيد لجيشه فانهزموا بين يديه إلى قلعة[٣] ابن حماد فأخذوها ونهبوها فلحقهم فانهزموا إلى بلره أخذوها أيضاً ونهبوها ، فسارع إليهم أبو زيد فدخلوا نفطة[٤] وكدكين من عمل قشطيلة ، وسمعوا بشرف الدين أنه على الحامة فنفذوا إليه رسولا وقالوا: «إننا قوم من بنى العباس ونريد دولتهم، ونحن نريد أن نكون وإياك مجتمعين » ، فنفذ إليهم شرفُ الدين بهاءَ الدين ساروج ومعه ستون فارساً من أجناده وشطار عسكره، فلقيهم على حامة البهاليل

---

(١) ذكر ابن الأثير فى الكامل هذا الخبر بتوسع تحت عنوان « ذكر ملك الملثمين والعرب افريقية وعودها الى الموحدين » .

(٢) مايرقه جزيرة فى شرق الاندلس ، مراصد الاطلاع ١٣٤٦/٢ ، أما بجاية فقد عرفها نفس المرجع ١٦٣/١ بأنها مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب ، اما قسنطينية الهواء فقلعة كبيرة عالية من حدود افريقية مما يلى المغرب ، شرحه ١٠٩٢/٢ — ١٠٩٣ .

(٣) سماها ياقوت : معجم البلدان ، قلعة حماد ، وهى فى الاصل « ابن » وقد صحح ما بالمتن بعد مراجعة مراصد الاطلاع ١١١٧/٣ — ١١١٨ حيث عرفها بأنها مدينة لها قلعة عظيمة تسمى افربوشت وهى قرب أشير من أرض المغرب الادنى .

(٤) غير منقطة فى الاصل وقد ضبط الاسم على رسمه فى مراصد الاطلاع ١٣٨٢/٣ حيث قال « مدينة بأفريقية من أعمال الزاب الكبير » .

يحاصرونها ، وقد كانوا نزلوا على توزر[1] فما قدروا عليها ولا على نفطة وكدكين ، فلما وصلت الأتراك إليهم رجعوا إلى الحامة المذكورة فأخذوها عنوة وقتلوا فيها ألفا وسبعمائة رجل ونهبوها (١١٠٠) وكانت من البلاد الحسنة الطيبة الكثيرة البساتين والفواكه [وانعقد[2] الصلح] فتقررت القاعدة على أن تكون البلاد بينهما نصفين ، يكون لشرف الدين من البلاد : نوبة ، ومن نوبة إلى الغرب للمايرقي ، ومهما فتحوه كان قسمة بينهما ، واتفقوا على ذلك وتحالفو وتجمعوا ، ولم يزالوا بقية سنتهم يرحلون وينزلون من موضع إلى موضع ويتمادون ، وأصحاب المايرقي يقلون وأصحاب شرف الدين يكثرون ، لأن الميارقة ما كان لهم مدد من خليفهم ، وأصحاب شرف الدين لهم الإقطاعات تصل إليهم من جبل نفوسة ومطماطة وبلاد نفزاوة وغيرها .

* * *

ودخلت سنة اثنتين وثمانين [وخمسمائة] . وسأذكر واقعته فيها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

* * *

سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة

فيها نقل إلى الخليفة أن حاجب الباب يعشق امرأة مغنية يقال لها خطليشة الظفرية وكانت مستحسنة ، وأنه يمضي إليها إلى الجانب الغربي من بغداد ، فلم يصدق ذلك .

وكان أستاذ الدار ابن الصاحب يثني على المذكور ، والخليفة يتمنى له

---

(١) مدينة فى أقصى افريقية من نواحى الزاب الكبير من أعمال الجريد ، أنظر ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ١/٢٨٠ .

(٢) ما بين الحاصرتين غير مقروء فى الاصل .

عشرة حتى يؤذيه ، وكان يفعل ذلك لبغضه لأستاذ الدار ، فتقدم إلى جماعة من الحماة أن يترقبوا من ابن هبيرة تلك الحالة المذكورة ويعلمونه بصحتها ؛ وكان الخليفة يكثر الجلوس فى بستان محمد بن يحيى الفراش بالشارع على نهر عيسى ، وكان حاجب الباب له بستان على نهر عيسى وقد عمر فيه داراً حسنة . وكان يمضى إليه والناس بين يديه والخليفة يبصره وينفذ من يعتبر حاله ، وكان ابن هبيرة قد منع الناس من شرب الخمر وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وبالغ فى الاحتياط وإظهار الدين .

فبينا الخليفة ذات يوم فى بستان محمد بن يحيى ينظر إلى خارج البستان من الدار التى [هو] فيها وإذا بخطليشة الظفرية قد أقبلت إلى بستان حاجب الباب ابن هبيرة فدخلت إليه ، ثم بعد ساعة أقبل حاجب الباب وقدامه (١٠٠ب) غلمانه والسيوف مشهورة بين يديه ومن خلفه ، و [هو] لا يعلم أن الخليفة فى بستان ابن يحيى الفراش . فقال الخليفة : «هذا يوم ابن هبيرة» ثم إنه أشار إلى على بن أبى الكتائب وقال له : « نصبر ساعة وتأخذ معك جماعة من المماليك وتمضى وتكبس البستان وتنزل من حيطانه وتترك عمامة ابن هبيرة فى عنقه ، وتقرن هذه القحبة إلى جانبه ، وتمضى بهما فى السوق من أوله إلى آخره وتشهرهما فى البلد ، وبعد ذلك تتركهما فى الخان الذى فى البدرية إلى أن أجىء إلى دار الخلافة ، وأدبر بأى قتلة أقتله ، فقد أمرضنى هذا الكلب وأفعاله القبيحة ، لأنه يأمر الناس بالمعروف ولا يفعله ، وينهاهم عن المنكر ويأتيه » .

فبينا الخليفة يوصى ابن أبى الكتائب بما يفعله وإذا جميع من كان مع حاجب الباب قد رجعوا ومعهم فرسه ولم يبق عنده سوى المغنية خطليشة ، فمضى ابن أبى الكتائب ومعه جماعة من المماليك والأتراك الصبيان وهم لا يعرفون من هو حاجب الباب ولا غيره ، وأتوا جميعاً إلى بستان ابن هبيرة فوجدوا الباب مغلقاً ، فأمر [ابن أبى الكتائب]

المماليك أن يصعدوا من الحائط فصعدوا وفتحوا الباب ، فدخل ابن أبى الكاتب فوجد ابن هبيرة متكئاً على مخدة والمغنية إلى جانبه عليها قميص تحتانى بغير سراويل ، فأخذوه وإياها وخرجوا بهما من البستان وضربوهما ضرباً شديداً حتى أشرفا على الهلاك ، وصار الخليفة يبصرهم .

ثم إنهم عبروا بهما إلى الجانب الشرقى وهما على تلك الحال فطوّف بهما فى نهر معلى فى السوق والضرب يأخذهما إلى أن وصلوا إلى باب البدرية فأدخلا إليها إلى الخان ، وجعل ابن هبيرة فى أحد البيوت وفى رجله سلسلة ، وجعلت المغنية فى بيت آخر مقابله .

ورجع ابن أبى الكاتب والمماليك إلى الخليفة وهو فى بستان محمد بن يحيى الفراش فعرفوه بذلك .

وأما أستاذ الدار فإنه أخبر بحال ابن هبيرة فضاق صدره وكثر خوفه واستشعاره .

وكان (٢) . . . .

(١) فى الأصل « متكى » .

(٢) إلى هنا ينتهى القسم الموجود من مخطوطة مضمار الحقائق .

المراجع المستعملة فى حواشى
كتاب مضمار الحقائق

١ — العربية

— ابن الأثير (على بن محمد .. الجزرى) :
ا — الكامل فى التاريخ ، ج ١١ (القاهرة ١٣٠٣)
ب — التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (تحقيق الدكتور عبد القادر أحمد طليمات . دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٦٣)
التاريخ او العبر وديوان المتبدأ والخبر (بولاق ١٢٨٤ هـ)

— ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد .... ت ٨٠٨ هـ) :
التاريخ ، او العبر وديون المبتدأ والخبر (ط . بولاق ١٢٨٤ هـ).

— ابن خلكان (أحمد بن محمد .... ت ٦٨١ هـ) :
وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان (مطبعة اليمنية بالقاهرة ١٣١٠)

— أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل .... ت ٦٦٥ هـ) :
ا — الذيل على الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) (نشره السيد عزت العطار الحسينى . القاهرة ١٣٦٦/١٩٤٧) .
ب — الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية (تحقيق الدكتور محمد حلمى محمد أحمد . القسم الثانى — القاهرة ١٩٦٢) .

— ابن عبد الحق البغداد (عبد المؤمن .... ت ٧٣٩ هـ) :
مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، ٣ أجزاء (تحقيق على محمد البجاوى ، دار أحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٣٧٣/١٩٥٤)

— ابن العماد الحنبلى (عبد الحى .... ت ١٠٨٩ هـ) :
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج ٤ (نشرته مكتبة القدسى بالقاهرة ، ١٣٥١ هـ) .

— أبو الفداء (اسماعيل بن على الملك المؤيد .... ت ٧٣٢ هـ) :
المختصر فى اخبار البشر ، ج٢ (مطبعةالحسينية بالقاهرة ١٣٢٥هـ)

— القلقشندى (احمد بن على ... ت ٨٢١ هـ) :
صبح الأعشى فى صناعة الانشا (ج ٣ ، ٤ ، ١٣) (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٠) .

— ابن كثير (اسماعيل بن عمر ... ت ٧٧٤ هـ)
البداية والنهاية ، ج ١٢ (مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٣٢) .
— لى سترانج :
بلدان الخلافة الشرقية (ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، مطبعة الرابطة ، بغداد ١٩٥٤)
— محمد مختار (اللواء) :
التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية (الطبعةالاولى ، المطبعة الاميرية ببولاق ١٣١١ هـ)
— ابو المحاسن (يوسف بن تغرى بردى .... ت ٧٨٤ هـ) :
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦ (طبعة دار الكتب المصرية) .
— المقريزى (احمد بن على .. ت ٨٤٥ هـ) :
السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة (طبعة دار الكتب المصرية) .
— ابن واصل (محمد بن سالم المازنى .... ت ٦٩٧ هـ) :
مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب ، ج ٢ (نشره الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣) .
— ابن الوردى (عمر بن المظفر بن عمر ... ت ٧٤٩ هـ) :
تتمة المختصر ، طبعة الوهبية بالقاهرة ١٢٨٥ هـ .
— ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ) :
معجم البلدان .

المراجع الغربيـــة

Albon : La Mort d'Odon de St. Amand, (R.O.L., XII).

Blochet : Histoire d'Egypte de Maqrizi.

Dozy (R.) : Supplément aux Dictionnaires Arabes (2 Vols.).

Dussaud (R.) : Topographie Historique de la Syrie Antique et Médievale (Paris, 1927).

Gaudefroy-Demombynes : La Syrie à l'Epoque des Mamelouks d'après les Auteurs Arabes (Paris, 1923).

Grousset (R.) : Histoire des Croisades et de Royaume Franc de Jérusalem, t. II, (Paris, 1935).

Lane-Poole (Stanley) : Saladin (Putnam, Lond., 1926).

Quatremère (E.) : Histoire des Sultans Mamelouks de l'Egypte, t. II (Paris, 1837).

Runciman (S.) : History of The Crusades, Vol. II (The Kingdom of Jerusalem), Cambr., 1952.

Sauvaire : Description de Damas.

فهرست تفصيلي لمخطوطة

مضمار الحقائق

صفحة	الموضـــــوع

الموضـــــوع	صفحة

ـ اعمال المحقق ـ

● نور الدين والصليبيون	دار الفكر العربى	(نفد)
● الحرب الصليبية الاولى	»	(الطبعة الثانية)
● اعمال الفرنجـة وحجاج بيت المقدس	»	(الطبعة الثانية)
● حملة لويس التاسع على مصر والشام	»	(نفد)
● اهل الذمة فى الاسلام لترتون	دار المعارف (الطبعة الثانية)	١٩٦٨
● زنجبار لهولنجزوورث	»	١٩٦٨
● رحـلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر	»	١٩٦٨
● مذكرات جوانفيل عن القديس لويس	»	١٩٦٨
● تاريخ مسلمى اسبانيا لدوزى	»	١٩٦٣
● جوليات دمشقية (مخطوطة) لمؤرخ شامى مجهول	الانجلو	١٩٦٨
● فتح القسطنطينية لكلارى	مركز الشرق الاوسط	١٩٦٤
● انباء الهصر لعـلى بن داود الجوهرى	دار الفكر العربى	١٩٦٨
● انباء الغمر بأنباء العمر (مخطوطة لابن حجر العسقلانى) ـ المجلس الاعلى للشئون الاسلامية		١٩٦٨
● الاحتكار فى العصر المملوكى (مقال بحوليات اداب عين شمس)		١٩٦٤
● مضمار الحقائق لمحمد بن عمر بن شاهنشاه ـ عالم الكتب		١٩٦٨

A Fifteenth Century Crusade Attempt against Egypt (1959).
The Egyptian Expeditions Against Castellrosso & Rhodes (1961).

تحت الطبع

● الدبلوماسية البابوية .

● التطور التاريخى للجريمة والعقاب .

● ذيل عبر الذهبى للسيد الحسينى (مخطوطة)

● فضائل الاسكندرية »

● نزهة النفوس والأبدان لعلى بن داود الجوهرى »

● المنهج التاريخى عند المؤرخين المسلمين والاوربيين فى العصر الوسيط

رقم الايداع بدار الكتب
٢٢٢ / ١٩٦٨

دار الهنا للطباعة
ت : ٧١٣٢٧

MIDMĀR AL-ḤAQĀ'IQ.

(A.H.575-582 = A.D. 1176-1186)

By

The Ayyubide Prince of Ḥamāh

Muḥammad b. 'Umar b. Shāhinshāh

(A.H. 567 ? - 617 = A.D. 1171-1221)

Edited & Annotated

By

HASAN HABASHI (Ph.D. Lond.)

Published By

THE WORLD OF BOOKS

38, Abd el Khalek Tharwat Str., Cairo

Tel. 51401